# ثورة بلا اخطاء
# ثورة وهميــة

حين تنشب ثورة حقيقية في بلد من البلدان ، فهذا اعتراف صريح بأن ثمة واقعاً متخلفاً عفناً يشوه حياة الإنسان ، ولابد له من أن يزول .

وحين تنجح الثورة ، ويتسلم الثوار السلطة ، فان مهمتهم الأساسية الأولى تصبح آنذاك هي العمل على الخلاص من ذلك الواقع المتخلف .



ومهمتهم تلك لا يمكن بالطبع أن تنجز في أيام قلائل وعن طريق إصدار عدد من القرارات ، ولابد لها من كفاح يومي قد يستمر طوال سنوات ليحقق عملا شاقاً شبيهاً بالمعجزة إذ عليه أن يهدم ويبني في آن واحد ، ومن البديهي ألا يخلو من أخطاء ، غير أن تلك الأخطاء إذا لم تحارب وجوبهت بالتجاهل تحولت إلى خطر يهدد الثورة بالإبتعاد عن أهدافها ، وعزلها عن الشعب الذي هو قوتها الأساسية .

والتنويه بتلك الأخطاء والتنبيه لأخطارها وضررها مهمة الفئة المثقفة الواعية في المجتمع ، وهي دون ريب مهمة تاريخية جليلة ، وإذا أهملت تلك الفئة القيام بها ، فان إهمالها تعبير عن خيانتها لشعبهاوثورته ؛ إذ أنها تتيح للأخطاء أن تستمر وتتزايد وتؤخر عملية التغيير والتطوير .

ولذا فإن الثوار الحقيقيين من الحكام لايأبهون للتصفيق ومقالات الثناء وكلمات المديح لثقتهم بأن عملهم هو لا أكثر من قيام بواجبهم إزاء شعبهم ، وبأنهم يؤدون الدور الذي كرسوا حياتهم من أجله .

كما أنهم إذا طمحوا إلى الحفاظ على نقائهم الثوري والإستمرار في تطوير وطنهم ، سينظرون إلى ما يرتكب من أخطاء على أنه الفرصة التي ينتظرها أعداؤهم كي يجدوا ما يستغلونه للقضاء على الثورة .

وفي المرحلة الراهنة من الحياة السياسية العربية أدلة كثيرة تبرهن على أن الثورة التي تريد أن تبقى يجب أن تظل ثورة وتحمي نفسها من المنافقين والإنتهازيين ، وترحب بمن ينبه على أخطائها ، ويفضح تلك الأخطاء بوصفها البذور المؤدية إلى القضاء على الثورة .



وثمة إمتحان لإخلاص المثقف لشعبه وثورته ، ويتجلى في تقويمه للحاكم من خلال ما يقدمه لشعبه لامن خلال مايظفر به من مغانم شخصية .

وقول الحقيقة على الرغم من أنها أحياناً قاسية ومرة يقتضي التأكيد على أن ذلك الإمتحان سيسفر عن نتائج تكشف عن أن الكثيرين من المثقفين يستخدمون ثقافتهم من أجل خدمة مصالحهم الشخصية فقط ، بل أنهم دعماً لبقائهم وامتيازاتهم يحاولون تصوير كل منتقد لأي خطأ على أنه الخائن الذي يستحق أن يحرم الحرية ، ولكنها محاولات ستخفق إذا كانت الثورة حقيقية ، وستنجح إذا كانت الثورة قد تحولت إلى مجرد زحام على المناصب .

زكريا تامر

# اللحظة الفاعلة في التاريخ

صفوان قدسي

(١)



في كل مرة أحاول فيها الكتابة عن هذه الحقبة من تاريخنا المعاصر ، فإنني سرعان ما أجد نفسي مشدوداً إلى فكرة قديمة ،لكن صوابها ليس موضع شك بحال من الأحوال .

ذلك أنني أؤمن إيماناً لاشبهة فيه بأنه مامن حقبة زمنية من حقب التاريخ إلا ولها أبطالها الذين كان لهم شأن عظيم في صنعها .

صحيح أن الشعب هو الأصل وهو الأساس ، وصحيح أيضاً أن البطل في التاريخ لا يستطيع أن يصنع شيئاً إلا إذا كانت اللحظة التاريخية قادرة على أن تمده بالأسباب التي تجعل قيادته لهذه الحقبة التاريخية ، أمراً ممكناً .

لكن الصحيح أيضاً هو أن البطل في التاريخ يستطيع دائماً أن يسهم في تحريك هذه اللحظة التاريخية وفي دفعها إلى الأمام بحيث تغدو اللحظة المناسبة لظهور هذا البطل .

أحاول أن أقول إن البطل لا ينهض في فراغ . إنه ينهض في لحظة تاريخية معينة

.لكن هذه اللحظة التاريخية ليست من صنع قوة غيبية . أي إنهاليست من صنع حركة يقوم بها التاريخ من تلقاء ذاته . إنها ، أولاً وقبل كل شيء ، من صنع قوة بشرية تظهر في الوقت المناسب والمكان المناسب ، ويكون لها من قوة الفعل والتأثير ما يجعلها قادرة على أن تجعل هذه اللحظة بالذات هي اللحظة التاريخية المناسبة لظهور البطل .

(٢)

ولقد كان هناك من يقول إن البطل في التاريخ ليس له وجود . وحتى إذا كان لهذا البطل من وجود ، فإن وجوده لا يعدو أن يكون تعبيراً عن حركة تاريخية محددة اقتضى تطورها ووصولها إلى لحظة معينة أن يظهر البطل ليكون أداة من أدواتها في تحقيق غاياتها التاريخية .



بل لقد كان هناك من يمضي إلى أبعد من ذلك عندما يرى إلى الإنسان في التاريخ على أنه مجرد ترس صغير في آلة الزمن الكبرى ، وعندما يرى إلى البطل في التاريخ على أنه لا يعدو أن يكون أداة لتحقيق غرض كوني ليس للإنسان قدرة على التحكم فيه أو السيطرة عليه .

وفي كل مرة أقع فيها على مثل هذا الكلام ، فإن ذاكرتي سرعان ما تستعيد من التاريخ نفسه وقائع وأحداثاً كبرى تسهم في ترسيخ تلك الفكرة التي وقعت عليها في يوم غابر من حياتي ، والتي مازلت أؤمن بها إيماناً أجد نفسي معه مشدوداً إلى الدفاع عنها دفاعاً يجعلني أقع في خلاف بشأنه مع الكثيرين .

ذلك أن وقائع التاريخ وأحداثه الكبرى تقدم شواهد ناصعة في

وضوحها على أن دور البطل في التاريخ ليس مما يمكن التقليل من شأنه ، وعلى أن الإنسان ليس مجرد ترس في آلة الزمن الكبرى ، وعلى أن الفرد ليس مجرد أداة لتحقيق غرض كوني مجهول .

وقائع التاريخ وأحداثه الكبرى تقول شيئاً محدداً ، وهو أن الإنسان هو الذي يصنع تاريخه ، وأنه ما من حقبة زمنية من حقب التاريخ إلا إلا وكان لها أبطالها الذين تركوا بصمات أصابعهم واضحة فوق كل برهة من برهاتها . بل إن بعض هذه الحقب التاريخية إنما ينسب إلى اسم بعينه بحيث تغدو هذه الحقبة التاريخية أو تلك غير قابلة للفهم والتحليل إلا بعد قراءة دقيقة لتاريخ ذلك الرجل الذي أصبح اسمه مقروناً بتلك الحقبة التاريخية .



(٣)

وحين ظهر جمال عبد الناصر ، فإن ظهوره لم يكن مجرد تعبير عن لحظة تاريخية معينة تستدعي ظهور قائد يعبر عنها، ويضع نفسه في خدمتها ، ويكون أداة من أدواتها .

كان جمال عبد الناصر أكبر من ذلك .

كان قائداً في مستوى القادة الذين لايرضون بأن يكونوا مجرد أدوات في يد التاريخ ، وإنما يبحثون لأنفسهم عن دور يصنعـــــون به التاريخ .

وبهذا المعنى ، فإننا نستطيع أن نمضي إلى القول بأن هناك حقبة في تاريخنا المعاصر يمكن أن نطلق عليها بحق اسم حقبة جمال عبد الناصر .

وقد نمضي أحياناً إلى أبعد من ذلك عندما نسمي تلك الفترة التي ظهر فيها جمال عبد الناصر والتي استمرت مايقرب من عقدين من الزمن ، بأنها عصر جمال عبد الناصر .

وما زلت أذكر كيف أن جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » ، أشار إلى مسرحية الكاتب الإيطالي الذائع الصيت « لويجي بيرا نديلو » المسماة « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . وكانت إشارته تلك مدعاة إلى الاستنتاج بأن جمال عبد الناصر كان يعتقد أن هناك دوراً ينتظره . لكن هذا الدور لم يكن من صنع المصادفات . كانت هناك أوضاع تستدعي ظهور جمال عبد الناصر ، لكن جمال عبد الناصر ماكان ليظهر لولا أنه كان يتمتع بمواصفات معينة تجعله قائداً لحقبة باهرة من تاريخنا العربي المعاصر .



**(٤)**

**ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يترافق ظهور حافظ الأسد مع غياب جمال عبد الناصر .**

**كانت الأمة العربية في حالة من الضياع والتمزق ليس لها مثيل . وكان غياب جمال عبد الناصر المفاجيء نكسة خطيرة جاءت في الوقت غير المناسب حين كانت هذه الأمة تحاول أن تتغلب على الأسباب التي أدت بها إلى هزيمة عام ١٩٦٧ .**

**كان هناك فراغ يحتاج إلى من يملؤه .**
**وكان هناك دور يبحث عن مؤلف .**

وكانت هناك لحظة تاريخية تستدعي ظهور قيادة من مستوى قيادة حافظ الأسد .

وكانت هناك حقبة زمنية جديدة تبحث عمن يعبر عنها ويسهم في صناعة وقائعها وأحداثها الكبرى .

وكانت هناك مسؤوليات قومية عظمى تحتاج إلى من يكون في مستواها وفي مستوى المخاطر التي يمكن أن تنجم عن حملها .

وكانت هناك ، بفعل غياب القيادة التاريخية لجمال عبد الناصر ، شكوك حول مستقبل النضال العربي ، وحول جملة مسائل كانت مطروحة أمام العقل السياسي العربي .



(٥)

وحين ظهرت قيادة حافظ الأسد ، فانها كانت في حقيقة الأمر تلبية لواقع عربي كان يواجه كل هذه التحديات .

لكن قيادة حافظ الأسد لم تكن مجرد استجابة لهذه التحديات .

صحيح أن التحدي يصنع استجابات من مستوى هذا التحدي ، لكن الصحيح أيضاً هو أن البطل في التاريخ ليس مجرد استجابة من هذا النوع أو ذاك .

وبهذا المعنى فإن ظهور قيادة حافظ الأسد كان فعلا ورد فعل في آن معـاً .

كان استجابة لظرف تاريخي محدد ، وكان في الوقت نفسه تجاوزاً لهذا الظرف التاريخي نحو آفاق أوسع وأرحب .

ومازلت أذكر كيف أن «روجيه غارودي» في كتابه المسمى «ماركسية القرن العشرين» أعاد الاعتبار لما كان يسميه باللحظة الفاعلة في التاريخ. وكان يقال عادة إن هناك ما يصح أن نطلق عليه اسم اللحظة المنفعلة. لكن هذا المفكر الفرنسي الذائع الصيت كان يرى إلى حركة التاريخ على أنها ذلك المزيج المدهش من اللحظة الفاعلة واللحظة المنفعلة.

هذه اللحظة الفاعلة هي تلك التي ظهرت فيها قيادة مناضل كبير اسمه حافظ الأسد.

ومن هذه الزاوية بالذات، يمكن فهم واستيعاب تلك الواقعة السياسية التي حدثت قبل ثماني سنوات، والتي جرى العرف على تسميتها بالحركة التصحيحية، والتي هي بحق لحظة فاعلة في تاريخنا، كان لها، ولايزال، شأن عظيم في حياتنا الوطنية والقومية.

# البلدان النامية والتطور

د. عبد المنعم زنابيلي

لقد اصبحت العلاقات في المجتمع الدولي المعاصر خطيرة جدا بسبب ظهور توترات اجتماعية بين مختلف الطبقات والمجموعات السياسية والايديولوجية والعرقية، وذلك قد يؤدي في المستقبل القريب الى تهديد الاستقرار والسلام العالميين والى فناء قسم كبير من الجنس البشري .



ان أحد مظاهر هذه الازمة العالمية، وهي على غاية كبيرة من الخطورة، تكمن في تفاوت التطور لمجموعتين من البلاد : البلاد المتقدمة الغنية والبلاد المتخلفة الفقيرة ، وفي تفاوت معدلات النمو لثرواتهما .

ان الهوة بين المجموعتين تتسع باضطراد لصالح المجموعة الاولى وعلى حساب المجموعة الثانية ، واصبحت جميع الاوساط الدولية تتحدث عن اخفاق البرامج والخطط التي اعتمدتها البلاد النامية ، وارتفعت بعض الاصوات الحرة تطالب باعتماد استراتيجية جديدة للتنمية ، خاصة وأن مشكلة النمو اصبحت تعتبر من قبلها مشكلة سياسية قبل ان تكون اقتصادية .

ان هذه الازمة الخطيرة هي التي دعتنا الى بحث الموضوع التالي وهو: هل تدور تنمية البلاد النامية في حلقة مفرغة ؟

ان الحديث عن التنمية هو حديث الساعة على صعيد المحافل الدولية المختلفة . ومما لاشك فيه بأن الخوض في هذا البحث يتطلب عددا كبيرا من المجلدات لايفائه حقه ويتجاوز كثيرا هذه الصفحات التي نحاول من خلالها طرح الموضوع مشكل موجز ، خاصة وان مشكلات التنمية متعددة ومتشابكة .

ولتبسيط البحث سنعمد الى الاجابة عن الاسئلة التالية :

**اولا :** ماذا يقصد بالبلاد النامية وماهي الظواهر والسمات المتشابهة التي تجمع فيما بينها ، وماذا يقصد بالتنمية ؟

**ثانيا :** ماهو العامل الرئيسي الذي اكدت عليه الدول النامية على صعيد المحافل الدولية لحل مشاكل تنميتها ؟

**ثالثا :** ماهي العوامل الاخرى التي اغفلها اكثر الاقتصاديين والتي نعتبرها من العوامل الاساسية التي تحد من التنمية في البلاد النامية ؟



**جواب السؤال الاول :**

لقد جنح اكثر السياسيين والاقتصاديين في العالم الى تسمية مجموعة الدول النامية بالعالم الثالث ، لما لهذه المجموعة من ظواهر وصفات مشتركة . الا ان هذه الظواهر والصفات لايمكن تحديدها بصورة واضحة وعلمية ، وقد ادت الى الكثير من المناقشات بين مختلف الفئات والمجموعات الاقتصادية حول تفسيرها وتحديد اسسها . وتعتبر بصورة عامة من البلاد النامية غالبية البلاد التي كانت مستعمرة او شبه مستعمرة والتي لم تصبح الا حديثا دولا ذات سيادة . ومن المتعارف عليه ايضا ان تعتبر بلادا نامية تلك البلاد التي تسعى الى التحرر من التبعية العسكرية والاقتصادية ، بعدما تمكنت من تحقيق استقلالها السياسي .

وقد عمدت الاوساط الدولية فيما مضى الى تصنيف البلاد المختلفة وفقا لدخل الفرد فيها واعتمدت خمس فئات هي :

١ ـ البلاد قليلة النمو حيث لايتجاوز دخل الفرد فيها / ١٠٠ /دولار سنويا كالهند ودول افريقيا الوسطى .

٢ ـ البلاد النامية حيث يتراوح دخل الفرد فيها مابين / ١٠٠ و ٣٠٠ / دولار سنويا كدول شمال افريقيا والشرق الاوسط .

٣ ـ البلاد النامية الغنية حيث يتراوح دخل الفرد فيها مابين /٣٠٠ و ٥٠٠ / دولار سنويا كبعض دول امركا اللاتينية والدول المصدرة للنفط .

٤ ـ البلاد المتطورة الفقيرة حيث يتراوح دخل الفرد فيهـا مابـين / ٥٠٠ و ١٠٠٠ / دولار سنويا كدول جنوب شرق اوربا .



٥ ـ البلاد الصناعية المتقدمة حيثيزيد دخل الفرد فيهاعن /١٠٠٠/ دولار سنويا كدول اوربا واميركا الشمالية واليابان واوستراليا ونيوزلندة

ويعتبر هذا التحليلُ سطحيا ، لانه في الواقع لايفسر بشكل او بآخر خصائص البلاد المختلفة ولا العوامل التي ادت او ستؤدي في المستقبل الى تطوير هياكلها وبنيتها الاقتصادية ، وذلك يمنع من اعتماد سياسة تنمية بصورة علمية .

وقد عكف الاقتصاديون، على مختلف مذاهبهم ومنذ اوائل الخمسينات على دراسة اوضاع البلاد النامية ومظاهر التخلف فيها ؛ فمنهم من حدد التخلف بالعجز عن استثمار الموارد الطبيعية في البلاد ، وآخرون عزوا التخلف الى فقدان التخطيط وعدم السير وفق خطة تنمية معينة . والبعض

الاخر عرف التخلف بالفقر والشقاء . الا ان جميع وجهات النظر هذه ليست على درجة كاملة من الحقيقة العلمية . ويلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ومشتركة بين مظاهر التخلف في البلاد النامية وهي ؛ ليست على سبيل الحصر بل على سبيل المثال ، نقص التغذية وضعف الانتاجية الزراعية ، وانخفاض مستوى الدخل القومي ومستويات المعيشة ، وعدم استثمار الامكانيات الصناعية بصورة كافية ، وضعف استهلاك الطاقة المتحركة اي الميكانيكية ، والتبعية الاقتصادية ، بالاضافة الى شلل القطاع التجاري وتأخر البنيان الاجتماعي ، والتفاوت الاقتصادي والاجتماعي بين مختلف المناطق في البلد الواحد ، وسوء الاستخدام ، وظاهرة الامية وضعف التوجيه العلمي وتزايد السكان .



ونظرية التنمية موضوع حديث جدا بدات معالمه تتوضح مابين عامي / ١٩٤٥ و ١٩٦٠ / واخذ يتطور تحت تأثير الوقائع المادية والحاجات الملحة . وقد اعتبر اكثر الاقتصاديين التنمية فنا يوضع في خدمة علم الاقتصاد للتأكد من ان النتائج المرجوة قد تحققت وفقا للتطلعات المقررة. كما أن عددا من الاقتصاديين كان يعتقد ، قبل الحرب العالمية الثانية ؛ان الحرية الاقتصادية سوف تساعد المستعمرات القديمة على التطور والنمو اسوة بالبلاد الصناعية ، معتمدة في ذلك على مبداي المنافسة والتخصص اي التقسيم الدولي للعمل . الا ان الحرية الاقتصادية تتعارض ومبدأ التدخل ، في حين أن مفهوم التنمية يعتمد على اجراء تحليل دقيق للوقائع والمعطيات المادية وينطلق من العمل على تطوير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، وبشكل خاص في البلاد النامية .

ان فن التنمية يهدف في الحقيقة الى توجيه الاختيارات الاقتصادية في ظل الواقع المادي للبلد النامي ؛ اي معتمدا على ماضيه وحاضره وأوضاعه الخاصة ليقوم بالتحولات الهيكلية بصورة منهجية وببناء اقتصاد

قومي متجانس يتمتع بالمركزية والديناميكية الذاتية . كما أن سياسة التنمية تهدف الى القضاء على ظواهر التخلف .

اما بناء الاقتصاد القومي المتجانس فانه يعني العمل على تحويل السكان من القطاعات ذات الانتاجية الضعيفة الى قطاعات ذات انتاجية عالية وبشكل خاص من الزراعة الى الصناعة الحديثة ، ورفع مستوى الانتاجية للفرد في القطاعات الاخرى .

وانه يعني ثانيا توجيه اختيارات التنمية بشكل يؤمن للاقتصاد الجديد التماسك والالتحام اللذين كان يحتاج اليهما الاقتصاد المتخلف عن طريق انشاء مجمعات صناعية متكاملة ، وذلك بشكل ينسجم مع الشروط المادية الواقعية للبلد النامي ومع التوازنات المطلوبة في التنمية بين مجالات الزراعة والصناعات الخفيفة والصناعات الاساسية ( اي الطاقة والتعدين والميكانيك والكيمياء ) .



وانه يعني ثالثا اقامة هياكل جديدة ذات ديناميكية ذاتية تساعد على التحرر من التبعية تجاه الخارج وذلك يتطلب اجراء تعديلات جوهرية في بنية التجارة الخارجية وفي سياسة توزيع الدخل والتمويل وفقا لحاجات تنمية متسارعة ، وكذلك في سياستي الاجور والاسعار وبشكل خاص العلاقات بين الاسعار الزراعية والصناعية ، واخيرا في سياستي التمويل الذاتي والادخار وعلاقتهما بتمويل التنمية .

وانه يعني اخيرا اللجوء الى التخطيط الاقتصادي ، ومما لا شك فيه أن عملية وضع خطة التنمية تستوجب تعريف وتحديد استراتيجية شاملة للتنمية واعتماد اهداف قطاعية تنسجم مع هذه الاستراتيجية واختيار المشاريع المناسبة والسياسات الملائمة لها .

تحتل البلاد النامية مكانا مهما في عالمنا الحـالي لانها تكون حوالي ٧٠ ٪ من أراضي العالم غير الاشتراكي واكثر من ٧٢ ٪ من سكانه ولانها تتمتع بثروات طبيعية ضخمة تساعدها على زيادة نموها صناعيا وزراعيا. وتحتوي اراضيها على ثروات ضخمة من الغاز الطبيعي والحديدوالنحاس والنيكل والنفط والمنغنيز والكوبالت والقصدير وعلى قسم كبير من احتياطي الثروات الطبيعية الاخرى ، الا انها تحتل مكانا متواضعا من حيث الانتاج الصناعي الذي يقدر بحوالي ١٠ ٪ من حجم الانتاجالصناعي الراسمالي .

ان البلاد النامية ، تعتمد في الاساس ، على الزراعة التي تقدم من ٥٠ ٪ الى ٩٠ ٪ من ثرواتها الا ان هذه الزراعة تعتمد بصورة رئيسية على محصول واحد فقط ، علما بان البلاد النامية مناطق كثيرة الخيرات ولديها الامكانيات الواسعة لتوفير الغذاء لا لسكانها فقط وانما ايضا انتاج فائض من المواد الغذائية ، خاصة وان الطلب على هذه المواد يزيد سنويا على الصعيد العالمي بمعدل ٦ ٪ تقريبا بينما لا يزيد الانتاج الا بمعدل٣ ٪ .



لقد كان هدف الامم المتحدة الاول مساعدة الدول النامية علىزيادة سنوية في نسبة النمو تعادل ٥ ٪ من دخلهاالاجمالي السنوي وذلك خلال عشرة اعوام . الا ان هذه الزيادة لم تتحقق بصورة عامة الا في حدود ٤ ٪ ، بالاضافة الى أن زيادة السكان التي هي في حدود ٢ ٪ الى ٢ر٥ ٪ امتصت القسم الاكبر منها فاصبح معدل النمو للدخل الفردي لا يزيد عن ١ر٥ ٪ الى ٢ ٪ ، وهكذا يتضح أن مستوى المعيشة لن يتضاعف قبل نصف قرن تقريبا . ولكننا يجب ان نعتبر هذه الزيادة الضئيلة في النمو بحكم العدم لسببين رئيسيين هما :

١ ــ ان العالم المتطور يتقدم بخطى واسعة وحثيثة بينما يتقدم العالم النامي بخطى وئيدة وبطيئة ، مما يسبب في اتساع الهوة بينهما .

٢ ـ ان ثروات البلاد النامية وامكانياتها تتعرض بصورة مستمرة للتهديد والامتصاص من قبل الدول المتطورة .

**جواب السؤال الثاني :**

أما العامل الرئيسي الذي اكدت عليه الدول النامية في المؤتمرات الدولية فقد كان التخلف في قطاع التصدير . ومن الملاحظ ان التجارة العالمية تتسع باضطراد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، الا ان أكثر التوسع كان يجري فيما بين الدول المتطورة ، فقد وصلت قيمة الصادرات العالمية خلال عام ١٩٦٣ الى حوالي / ١٧٠ / مليار دولار بعدما كانت خلال عام ١٩٥٠ في حدود / ٦٢ر٥ / مليار دولار . وقد كانت حصيلة البلاد النامية منها على التوالي / ٣٥ر٤ / مليار دولار / ٢١ر٦ / مليار دولار أي ان النسبة المئوية لصادراتها قد هبطت من ٣٣ ٪ من عام ١٩٥٠ الى ٢١ ٪ عام ١٩٦٣ .



ولو ان انخفاض نسبة التصدير قد رافقه انخفاض في نسبة الاستيراد لعوضت الدول النامية خسارتها من التصدير بربح مواز في الاستيراد ، بالاضافة الى أن اسعار التصدير استمرت في الانخفاض ، بينما كانت اسعار الاستيراد بارتفاع مستمر ، مما ادى الى تعاظم الخسارة التي حلت بالدول النامية من جراء تدهور اسعار تصديرها بالنسبة لاسعار استيرادها .

وقد رات الدول النامية بأن هدفها الاساسي يكمن في معالجة مشاكل التجارة الدولية وايجاد الحلول العملية لها ، اذ انه رغم ما بذلت وما تبذل من جهود في سبيل تقدمها الاقتصادي والاجتماعي ، عن طريق تعبئة مواردها القومية وتطوير زراعتها وزيادة تصنيعها وتنويع انتاجها وتجارتها ، فانها لم تكن تتمكن من تحقيق أهدافها . الا اذا دعمت جهودها بجهود دولية مماثلة تساعدها على زيادة حصيلتها من صادراتها التقليدية وعلى

ايجاد اسواق لسلعها الجديدة وزيادة حصتها من الصادرات العالمية في ظل شروط حسنة للتبادل التجاري من حيث اسعار التصدير .

ولبلوغ هذه الاهداف قرعت البلاد النامية ناقوس الخطر وبدات بالدعوة لايجاد حل يؤمن الوصول الى اتفاق حول سياسة جديدةبالنسبة للتجارة الدولية اذ أن مبادىء وانماط التجارة العالمية لاتزال تخدم اغراض الدول المتطورة ومصلحتها .

وقد أقرت مؤتمرات التجارة الدولية المتعددة عدة مبادىء بغية تحسين الاوضاع التصديرية للبلاد النامية ، ومن اهمها :

أولا : اللجوء الى عدد من الاتفاقيات حول المنتجات الاساسية تهدف الى تثبيت اسعار المادة موضوع الاتفاقية لتأمين استقرارها وتحقيق ثبات دخول منتجيها .



ثانيا : التعويض المالي الدولي ويهدف الى تزويد البلاد النامية بمساعدة طويلة الاجل للحيلولة دون عرقلة برامجها الانمائية والىاعطائها الحق بالاستقراض من صندوق الامم المتحدة .

ثالثا : ازالة الحواجز الجمركية التي تضعها البلاد المتطورة امام صادرات البلاد النامية من المنتجات الاساسية والتي تساعد على زيادة هذه الصادرات وتوفير الموارد اللازمة لها من القطع الاجنبي .

رابعا : التنويع ويعني توسيع وزيادة عدد المنتجات أو السلع الاولية والمواد المصنوعةوذلكيؤدي الىتحويل الهيكل الاقتصادي فيالبلادالنامية.

خامسا : المخزونات المعدلة التي يجب أن تعمل ضمن اطار سياسة دولية للمنتجات الاساسية ، يهدف الى ازالة التقلبات الحادة للاسعار في

المدى القصير والى تحقيق الموارد عن طريق التصدير بشكل واسع .

سادسا : تحسين نظم التسويق وتوزيع السلع الاساسية .

سابعا : تشجيع انشاء الصناعات التحويلية في البلاد النامية لزيادة صادراتها على شكل سلع مصنعة ونصف مصنعة .

ثامنا : اعتبار السلع الصنعية التركيبية منافسة لصادرات البلاد النامية .

الا ان حصة البلاد النامية استمرت في الانخفاض فوصلت نسبتها الى حوالي ٤ر١٧ ٪ ، من مجموع التجارة العالمية عام ١٩٧٠ . وهكذا نلاحظ بان حصة البلاد النامية من المبادلات التجارية استمرت في التقلص، فبعد ان كانت هذه النسبة في حدود ٣٢ ٪ عام ١٩٥٠ هبطت الى ٢١ ٪ عام ١٩٦٣ ومن ثم الى ٤ر١٧ ٪ عام ١٩٧٠ .



وابتداء من عام ١٩٧١ اخذت جميع الاسعار العالمية بالارتفاع ، الا ان اسعار المواد المصنعة التي تصدرها الدول المتطورة ارتفعت بشكل خيالي بالنسبة الى اسعار المنتجات الاساسية التي تصدرها الدول النامية، علما بان اسعار هذه المنتجات تعرضت لتقلبات عديدة ، ارتفاعا وانخفاضا ، منذ نهاية عام ١٩٧٣ . ومما لا شك فيه أن مثل هذه الحالة لا يستفيد منها الا الثري على حساب الفقير . ومما لاشك فيه ايضا ان زيادة التضخم أدت الى ارتفاع الاسعار لمصلحة الدول المتطورة وعلى حساب الدول النامية . وقد عزت الاوساط الاقتصادية العالمية ، وبصورة خاصة أوساط الامم المتحدة ، الازمة الاقتصادية العالمية التي مازالت قائمة حتى الآن الى الازمة النقدية ، وهي بدورها نتيجة للعجز الحاصل في ميزان مدفوعات الولايات المتحدة الاميركية منذ عام ١٩٧١ .

ومع اننا لا ننكر اهميـة هذا العامـل ولا نستهين بمدى تأثيره في المبادلات التجارية العالمية ، خاصة وان الولايات المتحدة الاميركية تعتبر كأول قوة اقتصادية في العالم ، الا اننا نجنح الى اجراء تحليل للاوضـاع التي سادت العالم خلال السنين الاخيرة لنرى مدى وعمق الازمة التي سببتها وما زالت تسببها بعض الجهات الدولية .

١ ــ دخلت الولايات المتحدةالاميركية الحرب في فيتنام وتحملالشعب الاميركي ، من جراء ذلك ، جميع الاعباء والنفقات . لقد دامت الحرب في فيتنام فترة طويلة تعادل ربع قرن تقريبا وكانت خسائرها فادحة وكبيرة بالنسبة للشعب الاميركي وادت الى وقوع العجز في ميزان مدفوعات الولايات المتحدة الاميركية ، علما بان الحكومة الاميركية قد انفقت في سبيل هذه الحرب حوالي / ١٥٠ / مليار دولار .



٢ ــ بدات بعض الدول المتطورة بالعمل على التحرر من التبعيـة السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة الاميركية ، وبشكل خاص ، بعد أن نما اقتصادها وتطور ، وظهر تيار قوي على مسرح السياسة الدولية ينادي بانشاء كتلة عالمية ثالثة مستقلة عن العملاقين الكبيرين ، وتمثل الديغولية هذا التيار في فرنسا بشكل واضح . وقد ظهرت الى جانب ذلك مراكز تنافسية قوية في اوربا الغربية واليابان وشكلت قوىاقتصادية ضخمة لا يستهان بها .

٣ ــ وبالمقابل قوي دور المؤسسات الاحتكارية والشركات متعددة الجنسية واصبحت لديها تراكمات راسمالية ضخمة تساعدها على فرض سيطرتها الاقتصادية في جميع انحاء العالم واصبح دورها حاسما على صعيد الاحتكار العالمي .

٤ ـ انسحب الوجود العسكري الاميركي من فيتنام ، وكان من المفروض ان تميل اسعار المنتجات الاساسية والسلع المصنعة بما فيها التجهيزات ، الى الانخفاض بسبب تقلص متطلبات عجلة الحرب الاميركية، الا أن هذه الاسعار ، على عكس ذلك ، مالت الى الارتفاع وبصورة خاصة اسعار السلع المصنعة التي تصدرها الدول المتطورة .

٥ ـ تدهورت شروط التبادل التجاري للدول النامية تدهورا فاجعا، وتقلصت حصتها من التجارة العالمية واصبحت اكثر شعوبها مهددة بالفقر والمجاعة .

٦ ـ اصبحت التكتلات الاقتصادية العالمية قوية جدا واصبح دورها حاسما على صعيد المبادلات الدولية ، وتكوين المخزونات وانتهاج سياسة اقتصادية منسجمة الى حد كبير مع مصالح اعضائها .



٧ ـ ان ظهور ازمة نقدية عالمية ، والتي زادت في حدتها الولايات المتحدة الاميركية عن طريق تحللها من اتفاقيات بريتون وودز قد أدى الى عدم امكانية تحويل الدولار الى ذهب وانخفاض قيمته في الاسواق العالمية ، والى تعويم عملات بقية الدول الراسمالية وارتفاع قيمتها في هذه الاسواق . ومما لا شك فيه ان عدم وجود معدلات صرف ثابتة وتعرض قيمة العملات الى الارتفاع والانخفاض يؤديان حتما الى بلبلة اقتصادية عالمية يستفيد منها القوي على حساب الضعيف .

٨ ـ ان ارتفاع حجم كتلة الدولارات الاوربية المسماة ( اورو ـ دولار ) ساعد على زيادة التضخم النقدي في الاسواق الاوربية .

٩ ــ ان زيادة حجم كتلة الدولارات البترولية المسماة ( بترو ــ دولار ) على صعيد الاسواق المالية العالمية ، والتي تزيد سنويا عن مبلغ / ٤٠ / مليار دولار ، تتعرض الى الامتصاص والتبديد المتواصل بسبب انخفاض قيمة الدولار .

١٠ ــ ان ظهور العجز المستمر في ميزان المدفوعات الاميركي ، والذي بلغ مجموعه لغاية عام ١٩٧٣ حوالي / ٩٠ / مليار دولار والذي ارتفع خلال عام ١٩٧٦ الى حوالي / ٣٠ / مليار دولار ، أدى الى انخفاض سعر الدولار في الاسواق العالمية والى اتخاذ القرار وحيد الجانب بعدم قابلية تحويله الى ذهب .

وقد ادت هذه التحولات العميقة بحكومة الولايات المتحدة الاميركية الى العمل على التقرب من الكتلة الاشتراكية عن طريق عقد الاتفاقيات المختلفة ، السياسية منها والاقتصادية ، مع الاتحاد السوفييتي ، وفتح المجال أمام سياسة الوفاق والتعايش السلمي ، الى جانب اعترافها بالصين الشعبية والسعي الى اقامة الجسور فيما بينهما ، وذلك طبعا على حساب الضعيف أي البلاد النامية .

وهكذا يتضح لنا من تحليل هذه العناصر أن ثمة عوامل أخرى تعيق التنمية في البلاد النامية ، وهي ليست عوامل اقتصادية وفنية بحتة ، وانما عوامل سياسية اغفلها اكثر الاقتصاديين علما بأننا نؤكد أن جميع هذه العوامل متشابكة ومتداخلة لا يمكن الفصل فيما بينها .

ثالثا : فما هي هذه العوامل ؟ :

**جواب السؤال الثالث :**

ان العوامل الاساسيةالتي تحد من التنميةفي البلاد الناميةهيالتالية:

آ ــ عدم الاستقرار الذي تتميز به البلاد النامية دون غيرها ، وهو

حصيلة الاستعمار الذي بذر بذوره فيها قبل ان ينسحب منها ، فبالنسبة الى الوطن العربي مثلا ، عمل الاستعمار على اقامة الكيان الصهيوني الزائف وعلى دعمه بصورة متواصلة ليكون عائقا امام اي تقدم وتطور وليستنفد الامكانيات العربية على مدى الزمن وليساعد على عرقلة نموها واستقرارها . وفي شبه القارة الهندية اوجد الاستعمار مشكلة كشمير وغيرها قبل انسحابه ، كما انه لم يتورع عن اقامة الحدود المصطنعة في قارات آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية واثارة الخلافات والانشقاق ، ناهيك عن التحريض على الانقلابات المختلفة حين لا تروق له انواع الحكم الوطني فيها .

ب ـ رغبة الدول الاستعمارية في الحصول على المكاسب التي كان يحققها لها الوجود العسكري في الماضي وزيادة رفاهية شعوبها على حساب البلاد النامية . لقد تطورت الدول الصناعية في الماضي ، لا على حساب شعوبها وثورتها الصناعية ومهارتها التكنولوجية فقط ، بل تطورت في الواقع على حساب مستعمراتها وعلى حساب استغلال شعوبها ، فتراكمت الثروات والاموال الطائلة لديها ، واصبحت مع مرور الزمن تتحكم في الموارد والرساميل العالمية ، بالاضافة الى تحكمها في مصير المناطق والشعوب الضعيفة وجعلها مصدرا اساسيا للحصول على المواد الاولية والاساسية بأبخس الاثمان وسوقا كبيرا لموادها المصنعة التي يتم تصريفها بأسعار شبه خيالية . ولو كان تطورها قد جرى بصورة طبيعية لكانت الآن اقل ثراء وتقدما . اما البلاد النامية فان نموها يسير ببطء لانهاتعتمد على تطوير امكانياتها المعرضة للامتصاص بسبب عوامل عديدة ودون ان تتمكن من استثمار الشعوب الاخرى كما هو الحال بالنسبة للدول

الاستعمارية ، علما بانها مازالت تعيش في جو من التهديدات السياسية والعسكرية .

جـ ـ ومن هذه المنطلقات تمكنت الدول الاستعمارية من الترويج لتجارة السلاح التي تعتبر من اكثر التجارات العالمية رواجا والتي تحقق لها الارباح الخيالية . فبعد ان تسارع سباق التسلح وزاد تعقيدا واتسع مداه ليشمل ابعد المناطق في العالم اصبحت سوق الاسلحة الحربية من اضخم الاسواق الصناعية العالمية فبلغت النفقات العالمية خلال عام ١٩٧٧ ما يعادل / ٤٠٠ / مليار دولار .

ان الاموال التي تنفقها الدول المتطورة في سبيل التسلح تفوق جميع التصورات ، واذا عمدت هذه الدول الى تقليص نفقاتها العسكرية ولو بقدر يسير ، لقاء مساعدة الدول النامية على النمو والتطور لتقلص الفقر والجهل من جميع ارجاء المعمورة .

ومن جهة اخرى ، ان هذه النفقات الضخمة تؤدي الى الحؤول دون استخدام الموارد المالية في مجال التنمية الاقتصادية ، وان مجموع النفقات العسكرية السنوية في العالم يمكن ان تؤمن دخلا سنويا لائقا لما يعادل ملياري شخص في ٣٦ بلد فقير . ان الدخل القومي في العالم بلغ عام ١٩٧٤ حوالي / ٥٥٦٠٫ / مليار دولار وحصة البلاد النامية لم تتجاوز / ١١٥٠٫ / مليار دولار ، ويمكن القول ان الفرد الواحد ، وفقا للوتيرة الراهنة لسباق التسلح يقدم ما يعادل اكثر من ثلاث سنوات من حياته لتوفير الاعتمادات العسكرية التي تحتاج بلاده اليها . وبالنسبة للبلاد النامية فان حصتها من الانفاق العسكري التي كانت تشكل ٩ ٪ من

المجموع العالمي عام ١٩٦٠ قد تضاعفت واصبحت ١٨٪ عام ١٩٧٥ . ان الدول المتطورة تنفق حوالي ٦ ٪ من مجموع دخلها القومي في نفقات الدفاع لديها ، بينما تنفق الدول النامية ما يعادل ٥ ٪ . اما بالنسبة لمجموع بلاد الشرق الاوسط فتجدر الملاحظة ان دخلها القومي قد قدر عام ١٩٧٤ بحوالي / ١٣٥ / مليار دولار ، بينما قدرت نفقاتها العسكرية بحوالي / ١٨ / مليار دولار اي ما يعادل حوالي ١٤ ٪ من مجموع الدخل القومي فيها . والشرق الاوسط يمثل وحده ما يعادل اكثر من ٥٣ ٪ من مجموع النفقات العسكرية في البلاد النامية . وعلى المستوى الاجتماعي تصل النفقات العسكرية في الشرق الاوسط بالنسبة للفرد الواحد الى / ١٥٠ / دولار فتفوق بذلك بلاد حلف الاطلسي حيث تصل هذه النفقات الى / ١٤٦ / دولار . مقابل ذلك لا تخصص بلاد الشرق الاوسط سوى / ٤٢ /دولارا للفرد في مجال التربية و / ١٥ / دولارا في مجال الصحة ، بينما تصل هذه الارقام الى / ١٩٢ / دولار للتربية و / ١٥٠ / دولار للصحة في اوربا الغربية .

وهكذا نلاحظ كيف ان نفقات الدفاع والتسلح غير المنتجة تمتص قسما وافرا من امكانيات الدول النامية وتعرقل مسيرة التنمية فيها .

د ــ كما ان عدم الاستقرار يؤدي الى نزوح الرساميل الوطنية الى الدول الصناعية الغنية والى تهريب الاموال من قبل بعض الفئات والطبقات المتداعية ، وامثلتنا على ذلك كثيرة منها :

١ ــ ان سقوط الديكتاتورية الفاشية في البرتغال بتاريخ ٢٤ نيسان عام ١٩٧٤ ؛ ادى الى نزوح عدد كبير من الرساميل الخاصة . ووفقا

لتقارير مصرف البرتغال يقدر مجموع الرساميل الهربة ، على شكل أوراق نقدية ، خلالعام واحد، بأكثر من مليار اسكودو ، مما دعا الحكومة البرتغالية الى استصدار القرارات الحاسمة لوقف تسرب رؤوس الاموال البرتغالية الى الخارج .

٢ ــ ان حكومة الدومينيك تعمل حاليا على استعادة / ٥٠٠ / مليون دولار اودعت لدى المصارف الاجنبية من قبل ابن الدكتاتور تروجيللو .

٣ ــ منذ منتصف عام ١٩٧٥ تتعرض ايطاليا الى خسارة شهرية تعادل / ٥٠٠ / مليون دولار ناجمة عن نزوح رؤوس الاموال الايطالية باتجاه شمال أوربا وخاصة الاتحاد السويسري .



٤ ــ لقد تمكن المارشال لون نول ، الرئيس السابق لدولة كمبوديا من تهريب ١٦ طن من الذهب الى المصارف الاوربية ، وذلك قبل أن يتداعى الحكم الموالي للولايات المتحدة بعدة ايام .

ويجب الا يغيب عن البال اخيرا أن المبالغ التي تحتوي عليها السوق الاوربية للدولار المسماة (اورو-دولار) تتعاظم يوما بعد يوم، وقد وصلت خلال عام ١٩٧٦ الى ما يعادل / ٢٠٠ / مليار دولار ، وان ربع هذا المبلغ اي حوالي / ٥٠ / مليار دولار يأتي من البلاد النامية .

هـ ــ بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ظهر بشكل واضح أن دولا عديدة بدات بعمليات التنمية لديها وفق خطط علمية ، بينمابقيت الدول المتخلفة واكثرها ينتمي الى آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية في منعزل عن هذا التطور ، ولم تتمكن من الالتفات الى مشاكل تنميتها الاقتصادية . علما بأنها ، بالاضافة الى ذلك ، كانت تفتقر الى الخبرة

الفنية في مجالات عديدة ، والى راس مال وطني او اجنبي يساعدها على استثمار مواردها الطبيعية .

وعلى اثر التنافس السياسي والعقائدي بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية ظهرت كتلتان سياسيتان هما الكتلةالاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفييتي وتتجسد في حلف وارسو ، والكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة الاميركية وتتجسد فيحلفشمال الاطلنطي. وكان لابد لكل كتلة سياسية من ان تدعموجودها واستمرارها بأساساقتصادي متين ، فانشئت المنظمة الاقتصادية العالمية للبلاد الاشتراكية / مجلس التعاون الاقتصادي / عام ١٩٤٩ ، كما انشئت المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي عام ١٩٤٨ والتي تطورت فيما بعد لتصبح بما يعرف الآن بالسوق الاوربية المشتركة منذ ٢٥ آذار عام ١٩٥٧ . وتؤمن هذه الاسواق عادة :

١ ــ اتساع نطاق السوق الاستهلاكية لانتاج الدول الاعضاء .

٢ ــ زيادة التخصص في عدد كبير من الصناعات .

٣ ــ توثيق الاتصالات بين المنتجين في الدول الاعضاء وتسهيل انتقال رؤوس الاموال والخبرة واليد العاملة وانتشار الاختراعات والتكنولوجيا وتخفيض كلفة الانتاج .

٤ ــ التعامل مع الدول والتكتلات الاقتصادية الاخرى على اسس اكثر رسوخا . ومما لا شك فيه ان هذه التكتلات في علاقاتها الخارجية تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على السياسات الاقتصادية ، ان لم نقل على التيارات السياسية المختلفة في كثير من الدول وخاصة الدول النامية .

وتجدر الملاحظة الى ان هاتين الكتلتين العملاقتين المتباينتين في في أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية قد تمكنتا في ظل سياسة الوفاق الدولي من التفاهم حول الاساليب والوسائل الواجب اتباعها لزيادة التبادل التجاري فيما بينهما . فما هي الاسباب التي دعت الى عدم التفاهم بين الدول المتطورة والنامية اذا لم تكن كامنة في منطق القوة والضعف ومنطق الاستعمار الذي لايريد التراجع عن مراكزه القوية المنتشرة في ارجاء المعمورة .

و ـ ان النظامين الاقتصادي والمالي اللذين هيمنا بعد الحرب العالمية الثانية تم اعتمادهما دوليا في ظروف واوضاع استثنائية ، فهما يؤمنان السيطرة الاقتصادية والمالية للرأسمال العالمي وفي طليعته الرأسمال الاميركي على حساب الشعوب الضعيفة ، علما بأن النظام النقدي الدولي الذي ابعد الدول النامية عن المساهمة في اتخاذ القرارات المالية جعلها في موضع اللامسؤولية . بالاضافة الى ان هذا النظام قد اسند الى الدولار الاميركي دور العملة الاحتياطية الى جانب الذهب لتثبيت أسعار المصرف ويعود سبب ذلك الى موافقة الولايات المتحدة الاميركية على بيع وشراء الذهب بحرية في معاملاتها مع الدول الاخرى على أساس سعر ثابت ( ٤٢ر٢٢ دولار لاوقية الذهب ) . وقد ساعد دور الدولار ، كعملة احتياطية ، الولايات المتحدة على توسيع مختلف نشاطاتها في انحاء العالم عن طريق إقامة الفروع العديدة للشركات الاميركية عن طريق شراء اسهم الصناعات الاجنبية لتحقيق سيطرتها عليها فزاد الاستثمار الاميركي الخاص الطويل المدى زيادة خيالية وأصبح ، على سبيل المثال ، ١٢٨ مليار دولار عام ١٩٧٢ بعد ما كان ـ ٥٤ ـ مليار دولار عام ١٩٧٠.

وقد أدى تدفق الدولار في الاسواق العالمية الى ضغوط تضخمية زادت من المزايا التنافسية للصناعة الاميركية . الا ان الفاجعة الكبرى المتوقع حدوثها ، نتيجة لارتباط النظام النقدي العالمي بالعملة الاميركية، تكمن في انفراد الولايات المتحدة الاميركية في اتخاذ قرارات وحيـدة الجانب ، وذلك ماحدث فعلا منذ شهر آب من عام ١٩٧١ عندما أقرت الحكومة الاميركيـة وقف قابلية تحويل الدولار الى ذهب والسماح بتعويم سعره أسوة بالعملات الاخرى ، وكان هذا القرار يعني القضاء على النظام النقدي العالمي الذي يحوي داخله ، كما يلاحظ ، العوامل التي ادت الى انهياره .

ز ـ ان المساهمات المالية التي تقدمها المؤسسات الدولية والدول المتطورة تعتبر اداة في يد الدول الكبرى تسيرها وفق رغباتها وتؤدي الى وضع الدول النامية تحت رحمتها .

لقد اعتمدت الهيئات الدولية لغاية شهر حزيران من عام ١٩٧٣ مبلغ ـ ٢٤ ـ مليار دولار لعمليات القروض ، وذلك عدا المبالغ التي قدمتها الدول المتطورة بشكل مباشر .

ولكن اذا أخذنا بعين الاعتبار تهجير رؤوس الاموال وتحويل الموارد المالية التي تقوم بها الدول المتطورة من البلاد النامية ، علـى اساس الارباح وفوائد الارباح ، وكذلك اعباء الدين العام ، فاننا نلاحظ بأن قيمة التحويلات الصافية باتجاه البلاد النامية تتعرض للانخفاض بصورة تدريجية فقد ارتفعت اعباء الديون مثلا من ـ ٣٣ر٣ ـ مليار دولار عام ١٩٦٥ الى ٧٨ر٦ مليار عام ١٩٧١ . وعلى العكس فان الارباح التـي

جنتها الدول المتطورة وجرى تحويلها الى الخارج قد ارتفعت تدريجيا عاما بعد عام ، فبعدما كانت ٣٫٤٨ مليار دولار ، وصلت الى ــ ٥٫٢٨ ــ مليار دولار عام ١٩٦٩ .

وفيما يتعلق بمجموع الدين الخارجي والذي يشمل حوالي ــ ٨١ ــ بلدا ناميا فقد بلغ في نهاية عام ١٩٧١ حوالي ــ ٨٠ ــ مليار دولار وستكون الاعباء المترتبة عليه منذ عام ١٩٧٢ ولغاية عام ١٩٨٠ في حدود ــ ٦٣ ــ مليار دولار ، علما بأن مجموع الديون الخارجية للدول النامية قد وصل في عام ١٩٧٦ الى حوالي ــ ٢٠٠ ــ مليار دولار .

وهكذا نلاحظ بأن الدول النامية تتحمل عبئا كبيرا من جراءالديون التي تثقل كاهلها ، مما يدل على ان المعونة لاتحمل مشاكل التنمية فيها ، بل على العكس تعرقل التنمية التي تنشدها . واذا جرت المقارنة بين المعونة وأعباء الدين يتبين بان حوالي نصف المعونة التي يتم الحصول عليها خلال سنة معينة يعاد دفعها مجدد الى الدول المقرضة من اجل تسديد الدين المستحق . ولهذا يجب على البلاد النامية أن تكف عن سياسة الاستقراض الحالية وأن تعمل على الغاء ديونها ، اذا كان ذلك ممكنا ، وتخفيض اعباء الفوائد المترتبة عليها ، والا فانها ستبقى متخلفة ترزح تحت أعباء ديونها دون ان تحقق أغراض تنميتها .

ح ــ اما التراكمات الراسمالية التي نتجت عن الارباح الخيالية التي حققتها معظم الشركات التابعة للدول الراسمالية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية فقد ادت الى قيام شركات دولية احتكارية سميت فيما بعد بالشركات متعددة الجنسية . وقد عمدت هذه الشركات

الى السيطرة لا على انتاج ونقل وتسويق السلع المصنعة فقط ، وانما ايضا على انتاج ونقل وتسويق السلع الاساسية التي تنتجها عادة الدول النامية . وقد توصلت هذه الشركات ، بالاضافة الى ذلك الى التحكم بالتيارات السياسية والاقتصادية العالمية والى فرض سيطرتها على عدد كبير من الدول ، والتأثير بصورة مباشرة في اوضاعها الداخلية .

وعلى سبيل المثال ، يلاحظ ان اغلبية المناجم المبعثرة في انحاء العالم تخضع لسيطرة بعض الشركات الاجنبية وان القائمين على صناعة التعدين في اميركا الشمالية واوربا واليابان يتحكمون عن طريق امتلاكهم لاكثرية الاسهم في شركات الاستثمار بمجموع ركائز الحديد في دول عديدة كسيراليون وليبريا وموريتانيا وفنزويلا والبيرو والبرازيل والشيلي . وكذلك بالنسبة لكارتل الالومنيوم الذي يتحكم مباشرة بمجموع انتاج الدول النامية من البوكسيت . ومن جهة اخرى ، نرى ان الشركات العالمية التي تتحكم عادة في انتاج المعادن هي نفسها التي تتحكم في استهلاكها وبالتالي بتسويقها وخاصة بالنسبة لركائز الحديد والبوكسيت والنحاس والتوتياء . وهكذا تعمل المجموعات العالمية المستهلكة على التحكم في الصفقات التي تجري فيما بينها وبين الشركات التابعة لها والتي تنتج المعادن الخام . ويكون الشركاء في الانتاج، وهم الدول النامية في معظم الحالات ، قد حصلوا على ربح يسير تتركه لهم الشركات المسيطرة ؛ كما كان الحال بالنسبة لشركات النفط والدول المنتجة . وهكذا نلاحظ أن قانون العرض والطلب الذي طالما تحدث

الاقتصاديون الغربيون عنه ، فيما يتعلق بالمبادلات التجارية الدولية ، يبقى على الصعيد النظري البحث ، لانه لاتوجد في الواقع اسواق عالية حيث تسود المنافسة .

اما في مجال النقل فان الشركات الغربية تسيطر على معظم نقل المنتجات الاساسية خاصة وان اجور الشحن تشكل عنصرا مهما من عناصر كلفتها فهي ثقيلة الوزن وكبيرة الحجم وبخسة الثمن ويتم تداولها بكميات كبيرة في الاسواق العالمية . هذا بالاضافة الى ان هذه الشركات، كبقية الاحتكارات العالمية تتحكم في الاسعار ارتفاعا او انخفاضا حسب مصلحتها وتستغل الاحداث السياسية كاغلاق قناة السويس مثلا لفرض الاجور التي تراها مناسبة .



واستنادا الى ماتقدم يمكننا التاكيد على ان التنمية تدور في حلقة مفرغة ، ان لم نقل ان البلاد النامية قد فشلت حتى الان في تحقيق تنميتها وستبقى متخلفة الى الابد ، وذلك لانها كما رأينا تتعرض بصورة متواصلة :

١ ــ الى انخفاض معدل النمو لديها بشكل ملحوظ بسبب تزايد السكان السريع .

٢ ــ الى انخفاض حصتها من التجارة العالمية كميا وقيميا .

٣ ــ الى حالة من عدم الاستقرار والضغط المستمر من قبل الدول المتطورة ، بمافي ذلك حجب التكنولوجيا .

٤ ــ واخيرا الى خسارات كبيرة ناجمة عن سباق التسلح ونزوح الرساميل الوطنية وسياسة الاستقراض واعباء الديون الخارجية

والاحتكارات الاقتصادية والمالية بشكل لايفوق بكثير الزيادة السنوية لمعدل النمو لديها فقط وانما تعرض ثرواتها القومية للنضوب . هذا بالاضافة الى ان التكتلات الاقتصادية والسياسية والانظمة المالية والنقدية والاقتصادية الدولية تجعلها معرضة للاستثمار المتواصل .

وتجدر الملاحظة الى ان عددا من العوامل الداخلية في البلاد النامية قد ساهم في عدم نجاح خطط التنمية لديها ، واهمها :

١ ـ ان خطط التنمية التي تتصف بالطموح الزائد وتتعدى الامكانيات الذاتية ، للدول المادية منها والفنية ، كان يعوزها ، بصورة عامة ، استراتيجية شاملة تتضمن الاهداف القطاعية والمشاريع الملائمة والسياسات المتعلقة بها .

٢ ـ ان الاختيارات الاقتصادية لم تكن بصورة عامة منسجمة وملائمة للواقع المادي للبلد النامي .

٣ ـ ان اختيارات التنمية لم تكن متماسكة ومنسجمة مع التوازنات المطلوبة بين مختلف القطاعات الزراعية والصناعية الخفيفة منها والاساسية .

٤ ـ ان التحولات الهيكلية التي تحققت، لم تكن فعالة وديناميكية بشكل يساعد البلاد النامية على التحرر من التبعية الخارجية ، خاصة وأن التعديلات المطلوبة في بنية التجارة الخارجية وفي سياسات توزيع الدخل والتمويل والاجور والاسعار والادخار لم تكن كافية ومناسبة .

وباختصار ، يمكن القول ان اكثرية الخطط التي اعتمدتها البلاد النامية لم يكتب لها النجاح المطلوب بسبب عدم تطابق الانجازات الفعلية مع الاهداف المعلنة ، وذلك يعرضها ايضا لخسارات اضافية . ان تحقيق الخطط يتطلب بصورة عامة ، سلطة ادارية تتسم بالحزم والمقدرة

العالمية والمعرفة الحقيقية لقوانين الاسواق التي يجب توجيهها واستخدامها وفقا للاهداف القومية ، وكذلك يتطلب الكفاءة اللازمة لتحليل مختلف المشاريع المقترحة والاستثمارات المطلوبة وتقدير احجام الانتاج ومستويات الاجور والارباح بصورة علمية ، هذا بالاضافة الى وجوب الاعتماد على مبادىء المسؤولية وحسن التنظيم والاخلاص في العمل .

ومما لاشك فيه أن وعي الامور على حقيقتها ودراسة مشاكل التنمية دراسة واقعية لاستبعاد العوامل السلبية واعتماد العناصر الايجابية خاصة وان عملية التنمية ، سواء في البلاد الراسمالية والاشتراكية وعلى راسها الصين الشعبية ، قد اعطت ثمارها المرجوة.

صدر حديثا عن :

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

في القطر العربي السوري

المؤسسة العامة للسينما

العدد الاول

من المجلة الفصلية

# الحيـاة السينمائيـة

عدد خاص بمناسبة اليوبيل الذهبي للسينما السورية

# نظرة الغرب الى العرب

كريستوفر ميهيو
ترجمة : هشام الدجاني

**كريستوفر ميهيو عضو بارز في حزب العمال البريطاني وعضو في جمعية اصدقاء الشرق الاوسط داخل الحزب . معروف بمناصرته للقضايا العربية ومجابهة الدعاية الصهيونية داخل حزب العمال وخارجه . وهذه الدراسة التي نقدمها للقارىء العربي هي نص محاضرة القاها ميهيو في الندوة الدبلوماسية التي عقدت في أبو ظبي مؤخرا* .**

★ ★ ★

عبر القرون تغيرت صورة العرب في عيون الغربيين مرارا ، ولكنها ظلت ــ ويغمرني الخجل كغربي ان اقول ذلك ــ صورة غير مشرفةدائما .

وتبدأ القصة منذ القرن السابع الميلادي ، وتستمر طوال احد عشر قرنا من الصراع المسلح . الذي دار بين الاسلام واوروبا المسيحية . وفي هذه الفترة ماالذي كان يشتهر به اجدادكم في الغرب ؟ لقد نسب اليهم الغرب تلك الصفات التي تنسبها كل الشعوب لاعدائها في الحروب كالوحشية والاحتيال والطغيان . وصدق وليد الخالدي ، ذلك البحاثة العربي المتميز ، عندما أشار الى ان اللغة الانكليزية مازالت تحوي عبارات ــ بدات بالاندثار لحسن الحظ ــ مثل « الوحشية الشرقية » و « الخبث الشرقي » وغيرها . ويؤسفني ان اقول أن من يعنيهم هذا الوصف هم بالتاكيد اجدادكم .

---

(*) ندوة دورية سنوية تعقد في الفترة ما بين مطلع العام وحتى نهاية شهر نيسان ( ابريل ) ويدعى للاشتراك فيها عدد من كبار الباحثين والمحاضرين العرب والاجانب .

وفي القرنين الثامن والتاسع عشر جاءت فترة الاستعمار الغربي ، وخاصة الاستعمار البريطاني ، حيث أخذت تتغير صورة العرب . فقد احجم الحكام الاستعماريون عن وصف العرب بالوحشية والمكر ، واخذوا يصورونهم بأنهم متخلفون كسالى لا يواكبون روح العصر . وعندما نمت القومية العربية وبدات مناهضة العرب للاستعمار وقاموا بمجابهة حكامهم استنتج الغربيون بأن العرب عاطفيون تسهل اثارتهم ، وعنيدون لايعرفون الطاعة لاحد ، وانهم شعب يثير المتاعب . وجاءت السينما في اول عهدها، وخاصة في افلام رودلف فالنتينو الصامتة الشهيرة ، بصورة جديدة للعرب اثرت كثيرا في الجماهير الغربية التي كانت تشاهد السينما آنذاك . فقد صورتكم تلك الافلام في صورة عشاق عظماء ، يحملون النساء الاجنبيات الجميلات على خيولهم السريعة . واخيرا وبتأثير « لورنس العرب » وكتاباته راى الغرب العرب في صورة محاربين صحراويين اشداء شجعان يشنون غاراتهم على الاتراك على ظهور الجمال السريعة . ولايفوتنا القول هنا ان الصورة التي رسمتها وسائل الاعلام الغربية عن العرب لم تكن مشرفة دائما .



اما بعد الحرب العالمية الثانية ، التي خدم فيها جنود البلدان الغربية في بلاد العرب ، فقد بدا لهؤلاء ان العرب قد ترجلوا عن خيولهم وابلهم ليصبحوا جيشا من باعة الشوارع الجوالين .

لو كنت مؤرخا لساورتني الرغبة في الغوص في اعماق الماضي ابحث في المعتقدات الغربية عن العرب في شيء من العمق . ولكنني سياسي ؛ ولذا فانني سأركز على صورة العرب في الغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في ضوء صراعهم ضد الصهيونية . وسأركز ايضا على ذلك البلد الغربي الذي كان به للعرب اكثر الاتصالات خلال هذه الفترة ؛ واعني به بريطانيا .

ترى ما هي صورة العرب عند البريطانيين خلال الثلاثين عاما المنصرمة ؟ وما هي الطرق التي اتبعتها وسائل الاعلام لتشويه هذه

الصورة ؟ وكيف تم هذا التشويه ؟ وما مدى التقدم نحو التفاهم المتبادل بين العرب والبريطانيين منذ حرب تشرين ( اكتوبر ) ١٩٧٣ ؟ وكيف نستطيع تأكيد استمرار هذا التقدم ؟

في بدء كلامي ارجو ان تسمحوا لي بملاحظة . سوف ننتقد باستمرار، بالتأكيد ، وسائل الاعلام البريطانية خلال حديثي . ولكن اخفاقها في رسم صورة عادلة عن العرب خلال هذه السنوات كان استثناء للقاعدة . فأنا افخر بتقاليد بلادي في حرية التعبير السياسي سواء في الصحف اوالاذاعة . واعتقد ان هذا التقليد لهو اقدم وارسخ تقليد في العالم . وعلاوة على ذلك فان حرية التعبير عن النزاع العربي ـ الاسرائيلي لا تعني مجـرد حرية انتقاد اخطاء الصهاينة ،بل حرية انتقاد اخطاء العرب ايضا . ومن هذا المنطلق فان وسائل الاعلام البريطانية على الرغم من انحيازها الى طرف واحـد الا انها ليست اقل انحيازا من وسائل اعلام دول كثيرة ، بما فيها الدول العربية ، اذا جاز لي ان اقول ذلك .



خلال السنوات الثلاثين الماضية رسمت وسائل الاعلام عنكم للشعب البريطاني صورة غير عادلة وغير صحيحة بلا شك . ولو ان هذه الصورة اقتصرت على تمثيلكم بالتنافر والتخلف ، وبسيادة الرجال في مجتمعكم ، لكان من الصعب أن تنتقد هذه الصورة ، خاصة اذا رافقتها صورة كرمكم وحرارة عشرتكم وانتمائكم الى تاريخ وحضارة عظيمين . ولكن الحقيقة هي انه قد تم تصوركم على انكم شرسون ومعتدون دون وجه حق في نزاعكم مع الصهيونية .

اني اتساءل كم من النـاس في الغرب لايزالون حتى يومنا هـذا يعتقدون ان عبد الناصر ، هو قبل كل شيء ، الرجل الذي حلف أن «يلقي اليهود في البحر » ؟ ولعل الاغلبية الساحقة في الراي العام الغربي مازالت تؤمن أن ( ناصر ) كان يقصد ذلك بالفعل ، وانه كان يتطلع الى تحطيم الشعب اليهودي ، وانه كان انتقاما عنيفا معاديا للسامية . واذا ما آمن الجمهور البريطاني بهذا فهو معذور لان عامة الصحف والاذاعات فيبلادي

قد ساعدت على نشر هذه الخرافة . ولقد لعبت هذه الخرافة في السنوات الحرجة التي تلت حرب ١٩٦٧ ، دورا رئيسيا في تمكين الاسرائيليين من اقناع الراي العام الغربي بانهم كانوا على حق في تمسكهم بالاراضي التي كسبوها في الحرب لضمان امنهم . ولاشك ان الاسرائيليين انفسهم قد آمنوا بهذه الخرافة . واني لاذكر في اثناء زيارة قمت بها لاسرائيل عقب حرب ١٩٦٧ ، وفي اثناء مؤتمر صحفي عقدته في تل ابيب ، ان عبارة ناصر المزعومة هذه قد استخدمت ضدي مرارا تبريرا لسياسات اسرائيل المتصلبة ورفض الانسحاب من الاراضي المحتلة .

فما هو اصل تلك الخرافة ؟ لن نعرف اصلها بالتأكيد ، ولكن محمد حسنين هيكل ، الذي عمل كثيرا على شرح وجهة نظر العرب للغرب ، اخبرني انه في اوائل الستينات وبينما كان الرئيس عبد الناصر في موكب في شوارع دمشق قام معلق اذاعي سوري فائق الانفعال بالاعلان على سامعيه : « هاهو الرجل الذي سيلقي اليهود في البحر » . وسواء اكان هذا هو مصدر الخرافة ام لم يكن ، فانني لا اعرف اساسا آخر لها .



ومنذ بضع سنوات ، وخلال حوار في التلفزيون طرح متحدث صهيوني هذه الخرافة في معرض تفنيد اقوالي . عندها عرضت على ملايين المشاهدين دفع مبلغ ٥ آلاف جنيه مقابل اي دليل يؤيد صدور هذه الخرافة ، او اي عبارة تشير الى افناء اليهود ، عن اي زعيم عربي مسؤول . وفي وقت لاحق كررت هذا العرض في مجلس العموم البريطاني . وقد تحمس لهذا العرض آنذاك المتحمسون من مؤيدي اسرائيل ، ووصل الي العديد من العبارات المزعومة الرهيبة التي قيل انها صدرت في السابق عن مسؤولين عرب بارزين . وعند تمحيصها ثبت ان جميع هذه العبارات كانت اما عبارات اسيء ترجمتها او اسيء اقتباسها ، او انها صدرت عن عرب لم يكونوا في موقع المسؤولية . وقد اظهر بعض هؤلاء المتحمسين عدم قناعتهم باقوالي فقد احثهم على رفع الامر الى القضاء لينالوا مطلبهم مني . وقد حدث ذلك بالفعل عندما قام طالب حقوق صهيوني برفع دعوى ضدي مطالبا بخمسة آلاف جنيه . وعرضت القضية على المحكمة العليا في

شباط عام ١٩٧٦ . وكانت النتيجة ان اضطر الى سحب دعواه والاعتذار لي والاعتراف علنيا انه بعد بحث طويل لم يتمكن من ايجاد عبارة صدرت عن اي زعيم عربي مسؤول يمكن وصفها بأنها تدعو الى افناء اليهود .

ويؤسفني القول ان هذا الاعتراف لم يجر نشره في اية صحيفة أو اذاعة في بريطانيا . كما لم يعترف اي من الكتاب والمذيعين الذين ساعدوا في البداية على نشر هذه الخرافة بأنهم كانوا مخطئين . ولذا فان الجمهور البريطاني اذا كان لا يزال يعتقد بأن ( ناصر ) قد هدد بالقاء اليهود في البحر فهو معذور .

والآن دعوني اقدم بعض الخرافات الاخرى عن العرب التي نشرتها وسائل الاعلام البريطانية منذ الحرب ، والتي صدقها الكثيرون ، ولم يتم دحضها بشكل مرض حتى الآن . هناك الخرافة القائلة ان الجيوش العربية غزت اسرائيل عام ١٩٤٨ ولم تقتصر على الاجزاء من فلسطين التي خصصها قرار التقسيم للعرب . وهناك خرافة ان اللاجئين الفلسطينيين تركوا ديارهم طواعية عام ١٩٤٨ استجابة لنداءات اذاعية عربية . وهناك خرافة ان اللاجئين الفلسطينيين يرغبون في الاستيطان في العالم العربي لو سمحت لهم الدول العربية بذلك . وهناك خرافة أن حرب ١٩٦٧ جرت بتخطيط مصري ، وان مصر هي التي هاجمت اسرائيل . وهناك خرافة ان المهاجرين اليهود الى فلسطين هم عائدون الى ارض أجدادهم .

وحتى وقت قريب كانت هذه الخرافات مقبولة على نطاق واسع للراي العام في كل العالم الغربي ولا تزال حتى الآن موضع تصديق . ومع أن ايا من هذه الخرافات لم تثبت امام الاختبارات الموضوعية الا انها قد ساهمت مجتمعة في رسم صورة غير عادلة للعرب بأنهم المعتدون في نزاعهم مع الصهيونية وبأنهم ميالون للعنف وغير منطقيين . أما رسامو الكاريكاتير فيصورونكم على انكم شعب شرير متوحش يحمل سكاكين كبيرة .

بينما انتم واصدقاؤكم في الغرب ، بمن فيهم انا ، لاساميون !

عند معرفة هذا كله يجنح كثير من العرب الى الاستنتاج بأن وسائل الاعلام الغربية واقعة في قبضة الصهيونية . ولكن بالنسبة الى بريطانيا — ولعلي لا استطيع قول الشيء نفسه عن الولايات المتحدة — هذا غير صحيح . فعلى الرغم من أن بعض محطات التلفزيون يسيطر عليها جزئيا يهود متعاطفون مع اسرائيل ، فان تفسير تحيز البريطانيين في الفترة التي نحن بصددها هو تفسير مختلف وبسيط . فالسبب الاساسي هو وجود جالية يهودية كبيرة ونشيطة ومؤثرة في بريطانيا ، لا تقابلها جالية عربية مثيلة ، واخلاص معظم افراد هذه الجالية لاسرائيل . ومن الطبيعي أن يستقي البريطانيون غير اليهود معلوماتهم عن الشرق الاوسط من خلال اتصالاتهم الشخصية مع مواطنيهم اليهود . كما أن العاملين في حقل الاعلام او السياسة يحرصون على عدم الاساءة للجالية اليهودية المتنفذة ؛ في موضوع يبدو لهم انه لا يعني الا القليل من افراد الشعب البريطاني . ولقد كان للجالية اليهودية اثرها منذ بداية القضية الصهيونية . فخلال المفاوضات التي سبقت وعد بلفور عام ١٩١٧ والتي تلته مباشرة ، كان التباين واضحا بين اثر الصهيونية واثر العرب في مجلس العموم ومجلس الوزراء . فمؤيدو الصهيونية ، سواء كانوا يهودا ام لم يكونوا ، كانوا اكثر فصاحة وحجة ، واذا لم يكونوا هم انفسهم في مراكز القوة ، فقد كان وصولهم الى من هم في مراكز القوة امرا سهلا . أما العرب فقد كانوا بعيدين جدا عن مسرح اتخاذ القرارات ، وكان يعيق حركتهم تلك الهوة الكبيرة بين ثقافتهم وتقاليدهم السياسية وبين ثقافة وتقاليد اعضاء مجلس العموم والحكومة . وفي الوقت الذي كانت تتخذ فيه قرارات حرجة تؤثر في كل مستقبل سكان فلسطين ، لم يكن للفلسطينيين من يمثلهم في لندن ؛ بينما كان الممثلون الصهيونيون يسألون الساح

ويستخدمون نفوذهم بكل طاقته . والمسودة الاولى لوعد بلفور قام الصهاينة في الواقع بكتابتها بدعوة من بلفور الذي كتب في حينه : « لقد طلبت من اللورد روتشيلد والبروفيسور وايزمان تقديم صيغة » .

وقد كان تأثير الجالية اليهودية في مجلس الوزراء كبيراً الى درجة ان الوزارة كانت أكثر انتباها الى عبارات معارضة الصهيونية الصادرة عن اليهود انفسهم ، عن تلك الصادرة عن العرب . وقد ورد احد قرارات وزارة الحرب بالنص التالي : « قبل التوصل الى قرار ينبغي ان يستمعوا الى وجهة نظر ممثلي الصهيونية ، ووجهة نظر المعارضة .. » . ولم يقترح احد ضرورة استشارة العرب بأي شكل ، مع العلم بان النقطة التي كان مستقبلها مطروحا للنقاش كان اكثر من ٩٠٪ من سكانها من العرب .

* * *

بعد حوادث الاضطرابات الخطيرة في القدس عام ١٩٢٩ كتبت زوجة وزير المستعمرات البريطاني في مذكراتها تقول : « بسبب الاحداث المحزنة في فلسطين تكتل اليهود ومؤيدوهم حول زوجي ، صغيرهم وكبيرهم ، في حالة من الحزن العنيف والغليان يطلبون الانتقام والتعويض . ومن الجدير بالملاحظة انه لم يظهر على المسرح اي ممثل عن العرب ، او اي مؤيد لهم » . وعندما وقف وزير المستعمرات ضد هؤلاء شن الصهاينة هجوما بالغا ضده ، كما انطلقت ضده حملة صحفية واسعة ، وقامت المظاهرات خارج القنصليات البريطانية في اماكن متفرقة من العالم كوارسو وواشنطن . لذلك قام رئيس الوزراء رامزي ماكدونالد بالتراجع السريع ، وسحب سلطة شؤون فلسطين من وزير المستعمرات وعهد بها الى لجنة وزارية . وكانت النتيجة ان ازدادت تصاريح هجرة اليهود الى فلسطين زيادة عظيمة ، وهو ما أرضى الوكالة اليهودية .

ان النقطة التي اريد ان ابينها هي أن وجود جالية يهودية نشيطة متنفذة ومتعاطفة مع الصهيونية كانت مسؤولة الى حد كبير عن الصورة

الخاطئة عن العرب المرسومة عند البريطانيين ، وليس تحكم الصهيونية في وسائل الاعلام . فليس هناك اية صحيفة بريطانية وطنية تتحكم فيها المصالح الصهيونية . ولكن من السخف القول انه حتى حرب ١٩٧٣ لم يكن هناك نفوذ صهيوني متغلغل في اية صحيفة بريطانية . والحقيقة ان القليل من الصحف البريطانية هي التي لم يكن في مراكزها القيادية ، في التحرير أو الادارة ، اناس مؤيدون لاسرائيل يتمتعون بالحماسة والفصاحة . وفي الفترة الحرجة ١٩٦٧ — ١٩٧٣ كان الرأي العام متأثراً بدافيد سبائيل من اسرة « التايمز » ، وجون كيمشيه من « الايفننغ ستاندارد » ، وايريك سيلفر من « الفاردبان » . وفي فترة ما بعد ١٩٦٧ تلك كانت التقارير تأتي الى الصحافة البريطانية عن التطورات في اسرائيل والمناطق المحتلة عن طريق مراسلين مثل بريانت من « التايمز » ، ووالترغروس من « الفاردبان » ، ومايكل اليكنز من هيئة الاذاعة البريطانية ، وفرانسيس اوفنر من « الاوبزرفر » وغيرهم . وهؤلاء لم يكونوا مراسلين خارجيين بالمعنى المعهود لانهم في الحقيقة كانوا بين أهلهم في اسرائيل . ولانهم يهود وفي معظم الحالات مواطنون اسرائيليون فهم خاضعون في الحالتين لضغوط رهيبة من مجتمع لا يتوقع سوى الولاء المطلق من اي يهودي ولا يخجل في ذلك . وقد كان لهؤلاء المراسلين الرغائب والآمال والتحيزات ذاتها التي يتمتع بها المجتمع الذي يفترض أن يقدموا تقارير ناقدة عنه ، ولذا فقد كانوا في الواقع جزءاً منه . ولا شك ان موضوعيتهم في نقل الاخبار كانت موضع شك على الرغم من اية امتيازات صحفية يمتلكونها .



ومن الغريب الا يرى رؤساء التحرير البريطانيون غضاضة في استبقاء يهود صهاينة يؤدي تعاطفهم مع الصهيونية الى جعل موضوعيتهم الصحفية موضع شك ، مع العلم ان هؤلاء لا يمكن ان يوظفوا في جنوب أفريقيا مثلا شخصا يؤيد التفرقة العنصرية ، او في موسكو شخصا شيوعيا ملتزما ، وليس من المألوف بالنسبة الى اية صحيفة بريطانية ان تستأجر فرنسيا ليعمل مراسلا لها في باريس ، او المانيا في بون ، او

حتى امريكا في واشنطن ، لاعتقادها أن ثمة اوقاتا قد يجد المراسل نفسه مضطرا الى الخيار بين ولائه لوطنه وولائه للحقيقة ، حتى في جو الهدوء النسبي السائد في أوروبا وامريكا .

ولعل هناك بعض العذر للمسؤولين عن الصحف ، فشهرتهم ووظائفهم تعتمد الى حد كبير على ارتفاع او انخفاض توزيع جرائدهم . وعندما يكون مناخ الرأي العام مؤيدا لاسرائيل فان نشر مواد لصالح العرب قد يكون ذا اثر سلبي في التوزيع . من مآثر صحيفة « الغارديان » مثلا معارضتها الشديدة لعدوان الحكومة البريطانية على السويس عام ١٩٥٦ ، ولكنها دفعت جزاء ذلك من انخفاض مبيعاتها ، سيما وأن مقرها حينذاك كان في مانشستر ، حيث توجد جالية يهودية قوية تمثل قطاعا كبيرا من القراء . وحينما نشرت « التايمز » في تشرين الاول ١٩٦٩ تقريرا مشهورا بقلم محررها للشؤون الخارجية هود جكنز تعرضت لهجوم شديد . والسيد جكنز متخصص في الشؤون الفلسطينية ، وشؤون الشرق الاوسط وله خبرة طويلة . وكان تقريره يبحث في الحالة والاتجاهات الفكرية للفلسطينيين القاطنين في المناطق المحتلة ، ويخلص في النتيجة الى ان الاحتلال مكروه من جميع سكان الضفة الغربية ، وأن دوام الاحتلال يتم بفرض سياسات اسرائيلية ردعية متشددة . ووصف التقرير نظام العقوبات الجماعية بأنه يذكي نار المقاومة ولا يخمدها . ولعل سبب العاصفة التي اثارها هذا التقرير يعود الى انه نقض صورة الحياة تحت الاحتلال التي كان مراسل التايمز المقيم يزود الصحيفة بها . وعلى الرغم من أن السيد هود جكنز كان خبيرا ذا شهرة واسعة ومسؤولا في الوقت نفسه عن قسم الشؤون الخارجية في الصحيفة فقد كان الهجوم الذي شنته الجماعة المؤيدة لاسرائيل على « التايمز » فظيعا. واعلن احد اعضاء مجلس العموم « انني شخصيا لا استغرب أن تقوم تلك الصحيفة التي كانت صديقة للحكومة النازية والمشهورة بلاساميتها الشريرة الرهيبة بنشر مقالة مثل تلك » .

وأجاب رئيس تحرير « التايمز » على ناقديه بمقالة افتتاحية استهلها بقوله : « في الحرب الكبيرة الدائرة بين اسرائيل والعرب كانت « التايمز » اساسا متعاطفة مع اسرائيل » . وقال : « ثمة نقاط عديدة ينبغي ذكرها حول رد الفعل المؤيد لاسرائيل الذي اول ما يقال عنه انه ردة فعل هيستيرية . فاذا وصل الامر الى مساواة تقرير هادىء عن ظروف العرب في الارض المحتلة باللاسامية النازية فمعنى ذلك انه لا يحق لغير ارباب الدعاية الاسرائيليين بحث دولة اسرائيل مطلقا . وقد عهدنا من السيد شينويل ( احد نائبين هاجما الصحيفة في مجلس العموم ) دائما استعمال الكلمات السخيفة المبالغ فيها وغير العادلة ، ولم تتغير طريقة التشهير التي تتصف بها لغته الآن وهو كهل عما كانت عليها وهو شاب . ولكن لسوء الحظ فان السيدين شينويل وسنو يمثلان ردة الفعل التي ينبغي أن يجابهها كل من ينشر نقدا قيما مدعوما بالادلة عن اي شيء يتعلق باسرائيل » .

لقد كانت هذه كلمات شجاعة ولكن من المؤكد أن ردة الفعل العنيفة ضد تقرير السيد هود جكنز قد ساعدت على تأجيل نشر مواد في صالح العرب كالتي تناولها الى فترة طويلة . وقد عانى رئيس التحرير من جراء ذلك . ومن جهة اخرى رقي عضوا مجلس العموم اللذان هاجماه الى مجلس اللوردات بعد ذلك ، بناء على توصية من هارولد ويلسون ، كما لحق بهما كثيرون غيرهم .

على ان هذا الموقف الشجاع الذي وقفته « التايمز » ينبغي ان نقارنه بسجلها الطويل الحافل بالجبن والمتمثل باحد مواقفها ، منذ حرب تشرين على الاقل ، وهو معالجتها لمسالة مساواة الصهيونية بالعنصرية التي بدأت في الجمعية العامة للامم المتحدة في العام ١٩٧٥ . فقد التزمت « التايمز » بموقف اعلنته رسميا في احدى افتتاحياتها ، حيث قالت انها ليست مستعدة لاعطاء حرية التعبير الكاملة على صفحاتها لمن يؤمنون بأن الصهيونية عنصرية . ونشرت بشكل ملفت للنظر ثلاثة مقالات لكتاب صهيونيين ، من بينهم ابا ايبان ، يسفهون قرار الامم المتحدة الشهير

بهذا الشأن . ولم توافق الصحيفة الا بعد ضغوط كبيرة على نشر مقالة معتدلة واحدة تؤيد القرار .

كان الضغط على رؤساء تحرير الصحف قبل حرب تشرين يوازي الضغط على اصحاب دور النشر . على أن الامثلة الواضحة عن الضغط على الناشرين ليست سهلة الاثبات . فالضغط غير ملموس ، ويسري على هامش اتخاذ القرارات . ويندر أن يكون مكتوبا ، ولكنه مع ذلك قد يكون قويا ومهما .

ولا شك انه في الفترة الواقعة ما بين ١٩١٧ ـ ١٩٧٣ كان للضغط على محرري ومراسلي الصحف وعلى الصحف اثر ساهم في رسم صورة غير محببة عن العرب عامة والفلسطينيين خاصة . وفيما عدا استثناء واحد او اكثر قليلا لم يكن سبب ذلك تحكم الصهاينة في دور النشر والصحف ، بل لتعرض العاملين فيها للاستماع الى وجهة نظر واحدة او لخوفهم من الاساءة الى اصحاب وجهة النظر هذه .



وهناك عوامل مشابهة ادت الى التقديم غير العادل للقضية العربية في الاذاعات البريطانية . خلال تلك الفترة . اذ لم تكن المؤسسات الاذاعية خاضعة للصهاينة ، بل جاء التحيز بسبب نفوذ المتعاطفين مع اسرائيل داخل وخارج هذه المؤسسات . وقد كان هذا التحيز في الغالب دون مؤثر خارجي ودون وعي به . انه انعكاس للانحيازات التي قامت على انطباعات غير دقيقة ، مستمدة من العهد القديم والحروب الصليبية ، وعهود الاستعمار البريطاني ، ومستمدة بشكل خاص من شعورنا بالذنب تجاه الطريقة التي عامل الاوروبيون بها اليهود في الماضي .

ولعل اكثر مايخافه من يؤيد العرب هو اتهامه باللاسامية . اذ لايزال في الغرب ثمة خلط كبير بين اللاسامية ومناهضة الصهيونية . وحتى عهد قريب كان الناس يخلطون بين اليهودية والصهيونية . فكان انتقاد الصهيونية يبدو كانتقاد للدين اليهودي . كما ان هناك ايضا خلط بين الصهيونية والشعب اليهودي نفسه ، اذ يميل الناس للاعتقاد ان معاداة الصهاينة تعني معاداة اليهود ايضا . وهذا الخلط الاخير قد

نماه ، للاسف ، وعن غلاة الصهاينة الذين يثبطون معارضيهم المحتملين بتخويفهم من اظهارهم بمظهر العنصريين .

لقد سبق ورأينا كيف الصقت تهمة اللاسامية بالتايمز . ومن بين ضحايا هذا الاتهام يهود معادون للصهاينة . وهذا اتهام مألوف كثيرا مايوجه الى منتقدي الصهيونية الذين هم من اصل غير يهودي مثلي . وبالنسبة الي فقد استطعت قبل عدة سنوات ، عن طريق اقامة دعوى ، ان اجعل الجريدة اليهودية الرائدة في بريطانيا ( جويش كرونيكل ) تنشر نصا تعترف فيه ضمن ماتعترف بان « السيد ماهيو ليس لاساميا ، ولم يسبق ان كان كذلك بأي شكل من الاشكال . وعلى العكس من ذلك فان له سجلا طويلا وحافلا بمناهضة اللاسامية وبدعمه وصداقته للشعب اليهودي » .

وفي الفترة التي نحن بصددها نجح الصهاينة الى حد ما في اضفاء صبغة لاسامية شديدة وعدوانية على العرب . وقد حققوا ذلك لا عن طريق تقديم الاثباتات ، بل بالاشارات المبهمة والتلميحات الغامضة . وقد ساعدهم في ذلك ولاشك بعض العرب ، وفي حالة خاصة حكومة عربية معينة طبقت المقاطعة العربية على اساس مناهضة اليهودية لا الصهيونية فحسب . ومع هذا فان من الصعوبة بمكان الاستمرار في تصوير العرب بأنهم لاساميون ، فالرأي العام اصبح يعي ان العرب انفسهم ساميون، وان سجلهم في التسامح مع اليهود افضل بكثير من سجل المسيحيين . والامر الذي يطرح نفسه الآن هو الى اي مدى يصح اعتبار اليهود انفسهم ساميين . فالذين قرأوا الكتاب الجديد للكاتب والمفكر اليهودي الشهير ارثر كوستلر بعنوان « القبيلة الثالثة عشرة » سيسهل اقتناعهم بان غالبية الشعب اليهودي الحالي تنحدر من بلاد الخزر من آسيا الوسطى اكثر من اقتناعهم بأنهم ينحدرون من الساميين .

لقد تحدثت حتى الآن وكان السبب الوحيد لصورة العرب غير العادلة في الغرب قبل حرب تشرين هو ضغط الصهاينة ودعاتها . ولكن اذاتوخيت الصدق فانني اضع جزءا من اللوم على العرب انفسهم . فحتى وقت

قريب كان اعلامهم ودبلوماسيتهم ضعيفين جدا . والتسهيلات المقدمة للمراسلين الغربيين كانت ومازالت ادنى مما تقدمه لهم اسرائيل . وقضية العرب كانت تطرح غالبا بشكل مبالغ فيه ودون وثائق كافية . وعلاوة على ذلك ، وهو الاهم ، أن صورة العرب التي رسمها الصهاينة على أنهم شعب عنيف شرس قد عززها العنف الوحشي في الاقتتال العربي في لبنان. والانطباع الجيد الذي تتركه مقابلة تليفزيونية مع زعيم عربي ذكي سرعان ماتمحوه الافلام التي تتحدث عن سلوك العصابات المسلحة في شوارع بيروت .

لقد عالجت حتى الآن الفترة التي سبقت تشرين ١٩٧٣ . ومن الصعب ان نغالي في الاثر الذي تركه عبور القناة في النظرة الغربية الى العرب . فبالنسبة الى الملايين الذين كانوا قد قبلوا دون تمحيص بالفكرة التي اعطتهم اياها وسائل الاعلام عن العرب لم يكن هذا الانجاز قابلا للتصديق. وبالفعل دعوني أعترف أن كثيرا من اصدقائكم في الغرب الذين يعرفونكم جيدا ، وجدوا هذا امرا مستحيل التصديق . فقد كان من الصعوبة بمكان أن ننسب الى اصدقائنا العرب امكانية تحقيق هذا الاعجاز التقني. وكان الاصعب من ذلك الاعتقاد ان بلدين عربيين يستطيعان التعاون والتخطيط معا عن كثب لمثل هذه المدة الطويلة ، ولم يكن من السهل التصديق أن عملا كهذا يمكن أن يقوما به في سرية تامة . لقد ظهر فجأة أنه لم تكن هناك الا فروقات طفيفة ان لم تكن معدومة بين جنود الجانبين من حيث المعنويات والحوافز . كما اتضح ان العرب الذين لم يسمحوا للفجوة التكنولوجية بينهم وبين اسرائيل أن تتسع قد احرزوا تقدما عظيما في اكتساب الخبرة في استعمال الاسلحة المعقدة . وبالاضافة الى ذلك فان نوعية القيادة العربية على جميع المستويات كانت اسمى مما كان متوقعا منها .

الى هذا الوقت دخل الى صورة العرب عند الغربيين عنصر جديد . فقد بدا فجأة أن العرب لم يكونوا فقراء ضعفاء بل أثرياء اقوياء ؛ ومن

الصعب تقدير الاثر الذي احدثه بعض القادة العرب على شاشات التليفزيون الغربية تلك الايام . فهاهم العرب الذين يتمتعون بثروات طائلة وذكاء ومدنية وسحر وجاذبية ، والذين يتمتعون بهيمنة واسعة على اقتصاد جميع الدول الغربية . وكان من الصعب بالطبع ان يتخيل احد ان نجوم التلفزيون هؤلاء يمكن أن يكونوا من راكبي الجمال وقاطعي الرقاب .

وفي الوقت نفسه تحسنت نوعية الدبلوماسية والدعاية العربية تحسنا ملحوظا . وقد كانت هذه النوعية ، بصراحة ، سيئة جدا في الماضي. ومن الممكن حتى يومنا هذا أن تتحسن الدعاية العربية كثيرا . كما تعلم العرب دروسا مهمة ، منها مثلا ان مهمة الاقناع السياسي تكون افضل اداء عندما لايقوم بها العرب انفسهم ، بل عندما يقوم بها مواطنون غربيون يدعمون السياسات نفسها او مشابهة لها من خلال توافقها مع مصالح بلادهم . وعلى سبيل المثال يهتم العرب اليوم ، وهم على حق في ذلك ، بتخفيف نفوذ الصهيونية في دول السوق الاوروبية المشتركة ، وبتقوية الحوار العربي ــ الاوروبي ، لاسيما في المجال السياسي . ويمكنهم تحقيق ذلك بصورة فعالة عن طريق تشجيع ودعم العدد المتزايد من مواطني دول السوق ، بما فيهم اعضاء البرلمانات الذين يرون ان هذا في صالح اوروبا. وكما راينا فان جانبا من سر نجاح الدعاية الاسرائيلية في الماضي كان سببه ان اصدقاء اسرائيل ، لا الاسرائيليون انفسهم ، قاموا بها .

وهناك بالطبع طرق صحيحة واخرى خاطئة للتعاون بين الاصدقاء. والطريقة الخاطئة هي ان تقوم بمحاولة شراء اصدقائك او رشوتهم عندها لاتخسر صداقتهم فحسب ، بل انك تهدم شهرتهم وبالتالي فعاليتهم . واذا ماراعينا شرطا واحدا بدقة فان من الصواب والمناسب ان تساعد الاموال العربية على تحسين مجرى الصداقة العربية ــ الغربية . وهذا الشرط هو الا يكون العون المالي مدخلا لاغداق النعم او فرض الالتزامات على حلفائكم في الغرب .

وفيما يتعلق بالصحافة ، وعدا بعض الاستثناءات التي من ابرزها جريدتا « الديلي ميرور » و« الديلي تلغراف » فقد طرا عموما تحسن ملموس. ومازال هناك ميل الى تفضيل وجهة نظر الاسرائيليين ، ولكن بدات في كل مكان تقريبا محاولة فحص وجهة النظر العربية ، وخاصة القضية الفلسطينية ، ومحاولة اعطاء صورة عادلة عن العرب . والصحافيون الغربيون ، مثلهم في ذلك كمثل السياسيين ، بدأوا يتذمرون من التوبيخ الذي يوجهه اليهم الاسرائيليون كلما اتخذوا موقفا لايتصف بالتاييد المطلق لاسرائيل . وفي مثل هذا الجو تم افتتاح مهرجان العالم الاسلامي (نيسان ١٩٧٦ ) ، وكان مهرجانا غير سياسي غطى بشمول وفعالية دين الشعب العربي وتاريخه وفنونه وحضارته . وقد تضمن هذا المهرجان تقديم ستة افلام رائعة عن الشعب العربي في هيئة التلفزيون البريطانية في ساعات ذروة المشاهدة . وعندما تقدمت ملكة بريطانيا امام جمع غفير من ذوي الشأن لافتتاح هذا المهرجان بدا أن فصلا جديدا من التاريخ قد بدا.



انني ادرك انه يبقى هناك الكثير من العمل . ولقد اقتبست مرارا فقرات من الاخطاء التي وقعت فيها وسائل الاعلام منذ حرب تشرين ١٩٧٣ . ومع ذلك فان أسوأ مرحلة من الكابوس تبدو انها انقضت . وبدات الحقيقة تتضح لشعوب الغرب .. حقيقة ان العرب لهم انجازاتهم واخفاقاتهم ، لهم نقاط ضعفهم وقوتهم ، ولديهم رجال سلم ورجال عنف ، تماما كالاوروبيين والامريكيين والاسيويين .

ان بين الناس في مختلف القارات والحضارات والعهود التاريخية اشياء مشتركة اكثر مما يظنون . وينبغي عليهم ان يتعلموا فهم واحترام بعضهم بعضا . تلك هي الحقيقة . والحقيقة تظهر في النهاية مهما وضعت في طريقها العراقيل العجيبة الرهيبة .

# ماوراء الذاتية والموضوعية

تيسير شيخ الأرض

## مقدمة ـ الحقيقة والذاتية والموضوعية

كثيرا ما نصف اقوال محدثينا بالذاتية حينا ، وبالموضوعية حينا آخر ؛ ونحن نقصد من وراء ذلك ، الى خلع قيمة على هذه الاقوال : فما نصفه بالموضوعية نعده حقيقة لا يتطرق اليها الشك ؛ وما نصفه بالذاتية نعده انطباعا فرديا لا قيمة له في مملكة الحقائق. بيد ان انعام النظر الفلسفي لابد له من ان ينتهي بنا الى ان الذاتية والموضوعية مرتبطتان معا ، وتفترض احداهما الاخرى . بل ان الامر ابعد من ذلك ايضا ؛ اذ ان الموضوعية والذاتية لا معنى لهما ، من دون اساس يقوم وراءهما ، ولا يمكن لهما ان تكونامن دونه .



ويبدو هذا واضحا ، اذا هبطنا من سماء التجريد ، الى أرض التشخيص ؛ ورجعنا الى الموقف البدىء للذات والموضوع بما هما أصل الذاتية والموضوعية ؛ ولاحظنا ان الذات والموضوع لا يمكن لهما أن يكونا ، وان يقوم احدهما في مقابل الاخر ، من دون الوجود المشخص الذي هو في أصل الوجودية ، لا وجودية الذات ، بل وجودية الكل . وذلك ، لان الذات هي الصورة الواعية لحقيقة أكثر أصالة منها في سلم الوجود ، هي الوجدان ، الذي هو ذات وجسد في وقت واحد معا ؛ ولان الموضوع هو موجود جزئي من الموجودات الجزئية التي تشارك الوجدان في الوجود ؛ فيتأثر بها نظرا ، ويؤثر عليها عملا . واذا كان الامر كذلك ، كفت الموضوعية عن ان تكون صفة مدح ؛ وكفت الذاتية عن ان تصبح صفة قدح ؛ وكانتا كلتاهما غير مكتفيتين بذواتهما ، وتحتاجان الى آساس وجودي تعتمدانعليه!

ولكن مثل هذا المذهب يحتاج الى بيان . وفي سبيل ذلك ، لابد لنا من البدءبالتجربة الوجودية الاولى ؛ في سبيلتحديد علاقة الوجدان بالوجود المشخص ، والانتقال الىالكيفية التي تتجرد بها هذه العلاقة ، فتصبح علاقة الذات بالمطلق ، حيث يؤدي موقف الذات من الموضوعات ، الى فكرتي الذاتية والموضوعية ، منتقلة من العلاقة الوجودية الى العلاقة المجردة ، التي تعني ربط التجربة الوجودية بالتجربة اللغوية ؛ مما يجعل الموضوعية والذاتية المنفصلتين تجريدا ، مرتبطتين فيما بينهما وجودا .

## ١ ــ التجربة الوجودية الاولى

اذا شئت ان اضرب صفحا عن كل ما اتى به الفلاسفة ، وان ابدأ من التجربة الاولى التي امر بها ، والتي تعتمد عليها كل تجربة اخرى ، كان لابد لي من ان اجد انني موجود في قلب الوجود المشخص . وهذه التجربة ليست تجربتي وحدي ، بل هـي تجربة كل انسان ، وان كانت الفتها قد قذفتها الى خلفيته الذهنية ، فكف عن ان يعيرها انتباهه ، الا في حالات قليلة نادرة .



والحقيقة ، فالمرء تتناوبه تجربتان : تجربة وجوده في العالم ، وتجربة وجوده مع الاشياء والاخرين . وكلتا هما تكونان بالوجد ، الذي يصبح في حالة المعرفة ذهنا . في هاتين التجربتين اجد ذاتي قطبا : ففي تجربة وجودي في العالم ، هناك ذاتي التي تمر بهذه التجربة ، من ناحية ، وهناك العالم الذي يتجاوزني من ناحية اخرى . وفي تجربة وجودي مع الاشياء والاخرين ، هناك ذاتي التي تمر بهذه التجربة من ناحية ، وهناك الاشياء والآخرين الذين يشاركونني الوجود في العالم ، من ناحية أخرى . وهذا يعني ، اننا نجد في هاتين التجربتين الذات من ناحية ، والعالم من الاخرى ، سواء نظرنا اليـه في وحدته ، ام بما هو جملة اشياء متفرقة .

ويمكننا ان نعد الذات هي القطب ، والعالم هو المحيط . بيد أن موقف الذات من العالم ليس واحدا في كل الاحوال . فالذات تكون متحركة في التجربة العملية ، ويكون العالم مسرحا لاعمالها ، وتكون ثابتة في التجربة النظرية ، وتصبح مرآة العالم وحوادثه . وهذا يعني ، ان الذات ترى نفسها ــ في التجربة الوضوعية ــ حقيقة مستقلة في مقابل حقيقة مستقلة اخرى ، هي العالم الذي تحول الى مطلق . ولكن الذات بماهي صورة

مجردة من الوجدان ـ موجودة في العالم ، بل في صورته المجردة ، واي تصور يتصورها خارجه ، هو تصور خاطىء ، ويؤدي الى محاولات شبيهة بتلك التي اتحفنا بهـا تاريخ « الفلسفة » .

وهذا ينتهي الى القول : ان في كل من التجربتين ، العملية والنظرية ، قطبا ومحيطا . ففي التجربة النظرية ، تكون الذات هي القطب ، ويكون العالم هو المحيط . وفي التجربة العملية ، تصبح الذات هي القطب ، ويصبح العالم ـ وقد تحول الى مطلق ـ هو المحيط. بيد ان وجود الاشياء والاخرين ينسحب في التجربة العملية الى الخلفية الوجدانية ، ويصبح قريبا من التجربة الوجودية ، لانه الذات في العمل لايمكنها ان تعمل من دون جسدها ، وان كان التجريد يظل قائما على نحو من الانحاء ، بالتمييز بين الذات والموضوع، في حين ان وجود العالم ينسحب في التجربة العلمية ، الى الخلفية الذاتية ، ويستحيل كل مافيه الى تصورات ومفهومات .

في الحالة التي يصبح فيها وجداني ذاتا مجردة ، للصمر انيتي ، وينصرف انتباهي الى العالم الخارجي واشيائه واشخاصه ، فانظر اليه ـ بحسب مقصد الذات ـ بما هو حق او خير او جمال . وعندئذ ، اشاهد حوادث العالم خاضعة للحتمية . صحيح ان الشعور بالحتمية في الموقف التاملي تبطنه حرية عميقة ، ولولاها لما امكن ادراك الحتمية وربط عناصرها فيما بينها . ولكن هذه الحرية تظل خافية عن ادراك الفرد ، ويعتقد انها مرآة صادقة لما يجري في الطبيعة في تفاعلها مع الذات . وبذلك يفصل الحتمية عن الحرية ؛ ويعتقد انها قائمة بذاتها ، في حين ان الحرية والحتمية تشكلان وحدة وجدانية عميقة ، تبدو في الوجد الذي يتحول في التجريد الى نظر وعمل .



ومن ناحية اخرى ، فالذات حينما تنصرف الى الفعل ـ سواء اكان اخلاقيا ام فنيا ـ ترجع الى جذورها الوجدانية ، وتلتفت الى الفعل الذي تقوم به ، وتؤثر به على اشياء العالم الخارجي . عندئذ ، فهي لاتبقى متفرجة ، بل تصبح فاعلة ، وتظهر لذاتها حرية خالصة . ولكنها حينما تحاول التفكير في هذا الموقف ، تنقله من المجال الوجودي ، وتتصور حريتها بمعزل عن كل حتمية . وليس هكذا فعل المعرفة . ولكن الذات تنظر في كلتا الحالتين ، الى جانب من الفعـل ، وتغفل عن جانبه الآخر ؛ فتتبدى لها الحرية تارة ، والحتمية تارة اخرى ، حقيقة قائمة بذاتها . وعندئذ ، تعتقد ان كلا من الحرية والحتمية

مستقلة عن الاخرى(١) . ولكن هذا غير صحيح ؛ ولا بد لنا ، لتبيان ذلك ، من النظر الى الموقف النظري من جهة ، والى الموقف العملي من جهة أخرى .

## ٢ ـ الوجدان والوجود

بيد أن تجربة وجودي في العالم ومع الاشياء والآخرين ، هي تجربة واحدة ذات وجهين ؛ اذ بدا أحدهما محجب الآخر ؛ ولكن من دون أن يلاشيه تماما ؛ لان هذا وذاك وجها حقيقة واحدة . ومن هنا كان لابد لتجربة وجودي من أن تكون تجربة لوجودي في العالم ومع الاشياء والآخرين في وقت واحد معا .

وهذا يعني انني مهما حاولت ، لن اتمكن من الخروج من هذه التجربة المزدوجة : اذ ان كل ما استنتجه وما استقرئه متضمن في هذه التجربة أصلا ؛ وهو يجد أساسه ومرتكزه فيها ؛ لان كل استقراء واستنتاج يفترض التجريد ؛ والتجريد يفترض التشخيص الوجودي ، كما ذكرنا . بيد انها ـ فضلا عن ذلك ـ نهاية المطاف لكل ما أصل اليه ، ولكل فعل من افعالي ، سواء أكان نظرا أم عملا . والحقيقة ، ان افعالي على اختلافها ، لا يمكن أن تكتفي بذاتها ؛ فهي تبقى عديمة القيمة ، ما لم تتمكن من القبض على الوجود المشخص ؛ فتشعر انها وجدت اساسها فيه ، واوجدت للذات التي قامت بها ، مرتكزا ثابتا فيه .



بيد انه لا بد لي من الاعتراف ، بان كل فعل من افعالي ، لا يمكنه أن يقبض على الوجود المشخص ، سواء في ذلك النظر والعمل . انه الكل وانا جزء من اجزائه ؛ ولا يمكن للجزء أن يقبض على الكل بحال من الاحوال . ومن هنا كان كل فعل من افعالي ، يرافقه شعور بالتجاوز ؛ شعور بأن الكل يتجاوزني ؛ وانني مهما حاولت لن أتمكن من ادراكه بما هو كل . انني جسد ؛ واحتل ـ بما انا جسد ـ جزءا صغيرا جدا منه . وانني فكر ايضا ؛ وادرك ـ بما انا فكر ـ جانبا ضئيلا من صيرورته . ولكن ما احتله بجسدي ، وما ادركه بفكري ، يظل بقينا بالنسبة الي : فالارض صلدة تحت قدمي ؛ والهواء ينفذ من منخري ويلمس جلدي ؛ والحرارة والبرودة تفعل فعليهما في ؛ الخ ... والصورة التي تبدو لي ،

(١) دراستنا : الحرية والحتمية ؛ في كتابنا : دراسات فلسفية ، محاولة ثورة في الفلسفة ، دار الانوار ، بيروت ١٩٧٣ .

والاحساسات التي تعاودني بين حين وحين ؛ والحوادث التي تجري أمامي ، وتؤثر علي ، ليست اوهاما كما يطيب لبعضهم أن يقول ؛ ولا يمكن وضعها موضع الشك ، بما هي كذلك . وهذا يختلف تماما ، عن حقيقة الاشياء في ذاتها ، وما ندركه منها ؛ هذه «الحقيقة» التي داب « الفلاسفة » على السعي وراءها ، دون أن يصلوا اليها .

ولعل فكرتي الزمان والمكان الفارغين هما في أصل هذه الاخطاء الفكرية جميعا . انهما يعزلانني عن الاشياء ؛ فتصبح دون متناولي ؛ وتتبدى لي ظواهر لا يمكن التحقق منها . ولكن ، أين ترى يمكننا أن نجد المكان والزمان الفارغين ، في عقولنا ؟ الحقيقة ، لست في التجربة التي أمر بها ، في الزمان والمكان ، بل في الصيرورة والوجود : فالهواء يكتنفني من كل جانب ؛ والانسام والرياح تشعرني بفعل الوجود المشخص في . فما تحمله الانسام من روائح منعشة ؛ وما تلسمني به الرياح من سخونة او برودة ، كل ذلك يشعرني بانني لست منفصلا عن الوجود وصيرورته ؛ وانني لست في مكان وزمان فارغين . كذلك فتوالي الرياح ، وتغير ما تحمله الي بين الحين والحين ، يشعراني بانني لست منفصلا عن الصيرورة ؛ وانني لست في مكان وزمان فارغين . وهذا يعني ، أن الزمان والمكان ـ بما هما اطاران فارغان ـ لا « وجود » لهما الا في العقل ؛ اذا صح أن ننعت ما في العقل بانه موجود ! ولعلنا نتكلم في مكان مناسب ، على الداعي الذي يدعو العقل الى ابداع فكرتي الزمان والمكان ؛ أي الزمان والمكان الفارغين .

وعلى هذا النحو ، يبدو لنا كيف يشارك الوجدان ـ بما هو فكر وعقل ـ في فعل الوجود المشخص . ولكنه يدرك أن هذه المشاركة تغنيه وتستنفده في وقت واحد معا : تغنيه ، لان الكل يحضر في الجزء ؛ وتستنفده ، لان قوى الجزء تعجز عن مسايرة قوى الكل . وفي هذا يبدو عناق اللحظة العابرة للابدية القائمة ؛ وهو عناق لا يدوم لحظة الا لكي ينتهي بعد لحظة . وتلكم هي مأساة الوجدان المروعة ، حينما يجد أنه لا بد مفارق الوجود في لحظة آتية لا ريب فيها . ولكن الوجدان يشعر مع ذلك ، انه يعمل في هذه اللحظة ؛ وان عليه أن يستمر في عمله ؛ لانه يقبض فيها على الوجود المشخص وهو بقلت منه فيها : أنه جسد ؛ والجسد فان . وفي لحظته هذه ، يعانق الابدية . ولكن ، لكي يتركها من بعد ، ويستحيل الى لحظة رسمته نقطة نهايتها . ان الجسد هو الحتمية التي تعمل فيها الحرية ؛ وبفنائه يرجع الى الحتمية ، هذه الحتمية التي ليست حرية ؛ والتي

تتفتت في حتمية الوجود الكبرى ، وتصبح جزءا منها تتقاذفها الصيرورة ؛ ولكن من دون ان تتمكن من استحالتها ، او وعيها ، او التأثير عليها ، كما كانت من قبل . لهذا لم يكن الموت حرية ؛ بل مجرد حتمية تحيل كل ما تلمسه الى حتمية . وحتى الانتحار نفسه ، فهو سيادة الحتمية ؛ لانه وان كان فعلا ينطوي على الحرية عند القيام به ، فهو حرية تتجسد في حتمية نهائية ؛ لان الصورة التي اختارها هي صورة الحتمية الخالصة ، التي تستبعد كل حرية .

## ٣ ـ الذات والمطلق

وهذا يمهد السبيل الى مفارقة الوجدان للوجود المشخص ، وتحوله الى ذات في قلب المطلق . في هذا العالم المجرد تشرع الذات بتحويل كل شيء الى فكرة ، وتربطه بنزعاتها فتحوله الى قيمة ؛ ثم تعمم هذه الفكر والقيم ، وتجعل بعضها متضمنا في بعض ، وتلحق بعضها ببعض في نطاق الفكر المجرد . وهكذا تتضح معالم الذات ، ويتضح معها العالم الذي تسكنه ؛ ومن هذا وذاك تنشيء تاريخها وتاريخ « عالمها » .



ومن هنا كان خطأ « الفلاسفة » تصورهم العلاقة علاقة معرفة بين الذات والموضوع . انها وان بدت كذلك في نهاية الامر تجريدا ؛ فهي لم تكن كذلك في بداية الامر تشخيصا . والحقيقة ، فالمعرفة تجريد ؛ والعلاقة الحقيقية بين الذات والموضوع علاقة مشخصة ؛ تستند الى الشخص بما هو ذو حاجات حيوية ، والى موضوعات العالم الذي يحيط به ، بما هي موضوعات تلبي أو لا تلبي هذه الحاجات . لهذا كانت العلاقة العميقة بين الذات والموضوع علاقة بالخير من مستوياته الدنيا التي هي المنفعة الحيوية ، حتى مستوياته العليا التي هي الخير قيمة . بيد أن العلاقة بالخير لا تلبث أن تصبح علاقة بمعرفته من ناحية ، وعلاقة انبهار به من ناحية اخرى . انها تصبح علاقة بمعرفته في سبيل التصرف به ، وتحويله الى حتمية تنتفع بها الذات مباشرة أو دون مباشرة ؛ وتصبح علاقة انبهار به ، في سبيل التعبير عنه بما هو آية الجمال ، بمختلف وسائل التعبير . ولكن التجريد هو الذي يجعل الخير مخالفا للحق من جهة ، وللجمال من جهة اخرى .

ومن هنا لم يكن موقف الذات من الموضوع مجرد موقف استقلال ، بل كان موقف علاقة مستقلة ؛ أي أن الذات تستطيع أن تبتعد حينا عن الموضوع ؛ ولكن من دون الاستغناء

عنه ؛ اذ انها مضطرة اليه ، ان عاجلا او آجلا . وهذا موقف الحرية المحتومة او الحتمية الحرة . بيد ان الحتمية هنا هي حتمية القيمة ، من حيث ان الموضوع ليس مجرد موضوع معرفة ، بل موضوع منفعة وتقدير . وهذا يعني ، ان المعرفة في بحثها عن الحقيقة ، هي سلوك يبحث عن الخير ، وتعبير يبحث عن الجمال . انها حرية الابتعاد عن الخير في سبيل تامله ، والتشبث بحتمياته النظرية والجمالية ، بغية اختيار حتمياته التي تمكن عمليا من تملكه خيرا ، ومغازلته جمالا .

وهذا يعني ، ان معرفتنا للموضوع هي معرفة قيمة ؛ لان علاقتنا به لا يمكن الا ان تكون علاقة تقويم . وهذا ينطبق على العلم في أعلى مراحل تجريده ، حتى ليمكننا أن نقول : ان مجموع حقائقه هي مجموعة من القيم التي ترتد الى الحقيقة قيمة في نهاية الامر ؛ أي الحقيقة بما هي صورة من الخير . ولكن ، كيف يحدث هذا الادراك وهذا التقويم ؟ ان هذا يدعونا الى وضع حقيقة الوجدان في تفكيره ونزوعه وانفعاله ، بازاء حقيقة الوجود المشخص ، على صعيد التجربة ؛ لكي نتمكن من وصف عمليتي الادراك والتقويم وتحليلهما . فبالتجربة وحده ، يمكن فصل ما هو حال في الوجدان ، عما هو مفارق له . اما في التشخيص فهذا مستحيل . والحقيقة ، انه لا يمكن فصل ما هو حال في الوجدان عما هو مفارق له ؛ اذ ان الشعور بشيء من الاشياء ، أي المرور بتجربة من التجارب ، شرط لا بد منه ، لشعور الوجدان بذاته . فهناك علاقة جدلية بين الوجدان وما يشعر به ، بينه وبين تجاربه ، تؤدي الى تحويل العلاقات الوجودية الى علاقات مجردة ؛ وهي علاقة بين الوجدان والذات : الوجدان بما هو الاصل الوجودي للذات ، ذو التجارب الحية المتصلة النابعة من الوجود المشخص ؛ والذات بما هي مشتقه المجرد ، ذو الافكار والقيم ، التي تصدر من خلالها ، تارة احكام واقع ، واخرى احكام قيمة ، على الموجودات الجزئية مرة ، وعلى ذاتها مرة اخرى .

## ٤ ـ الذاتية والموضوعية والوجودية

والحقيقة ، اننا نتصور اشياء العالم ذات وجود موضوعي . وهذه حقيقة لا شك فيها . بيد أننا نسحب هذه الموضوعية على العالم ذاته ؛ فنتصوره ذا وجود موضوعي أيضا . وهذه مسالة فيها نظر . والواقع ، اننا اذا تاملنا الامر مليا ، وجدنا ان تصور العالم ذا وجود موضوعي ، يرجع الى اننا نتشيء بالذات المطلق ، ابتداء من الوجود

الشخص ، وبالاستعانة بصيرورته ؛ ثم نتصور الذات والعالم في هذا المطلق ، والذات واقفة تجاه العالم ، كما تقف تجاه موضوع جزئي .

لا شك أن هذا تشويها للحقيقة ؛ اذ ان ما نحن فيه ، استحال الى شيء ماثل أمامنا . ولكن ، ما يهمنا هنا ، هو ان نلح على أن الموضوعية تحيلنا دائما الى الذاتية بمعنيي المدح والقدح . وهذا يعني ، ان الذاتية ضرورية لقيام الموضوعية ؛ وان حذف تلك يؤدي الى حذف هذه ، في كل الاحوال .

هذا من حيث الضرورة الوجودية . ولكن ، هل يعني هذا ، ان للذات اهمية في المسألة ؟ الا ينتهي اعترافنا بوجود الذات ، الى التوقف عند هذا الحد ؛ ثم يصبح بامكاننا بعد ذلك ، ان نغفلها كان لم تكن ؛ فنتابع طريقنا في انشاء الحقائق العلمية من دونها ؟ لا بد لنا من الاعتراف بان هذا ممكن ، اذا كنا بصدد العلم . ولكنه مستحيل اذا كنا بصدد الفلسفة . فما دامت الفلسفة هي العلم الكلي ؛ اي علم الكل ؛ فهي لا تستطيع أن تغفل عن الذات ، أو ان تنساها ، او ان تحذفها ، دون أن تشوه « موضوعها » ، وتستحيل هي ذاتها الى علم .



واذن ، فالذات موجودة ؛ وهي موجودة في مقابل موضوع ما ؛ ووجودها في مقابل هذا الموضوع ، يعني انها هي والموضوع موجودان في حقيقة تشملهما معا ، هي الوجود الشخص . لهذا كانت الوجودية اشمل من الموضوعية والذاتية ، واعمق منهما . انها الشرط الضروري لقيامهما معا ؛ لانه يستحيل قيام احداهما من دون الاخرى من ناحية ، ويستحيل قيامهما معا من دون الوجودية ، من ناحية اخرى .

وهذا يعني ، ان الموضوعية حقيقة لا شك فيها . ولكنه لا يعني انها حقيقة نبدأ منها ؛ بل حقيقة ننتهي اليها : انها نتيجة لا بداية ، نهاية الشوط لا منطلقه . ولهذا ، كانت دراسة العملية التي تتم بها ، من الضرورة بمكان عظيم . فكيف وصلنا الى هذه النتيجة ؟ وما المبدأ الذي انطلقنا منه ؟ ان الاجابة عن هذين السؤالين ، تضعنا وجها لوجه ، امام نقطة البدء التي طالما تحدثنا عنها ؛ أعني وحدة الوجدان والوجود الشخص .

واذا كان الامر كذلك ، اصبحنا عاجزين عن تصور الذات من دون العالم . وحتى

في التجريد ، لا بد من ابداع عالم جديد ، نجعلها تسكن فيه ؛ لان تصور الذات من دون عالم ، يخرج عن امكان التصور ؛ كائنا ما يكون هذا العالم .

وهذا ينتهي الى أن الذات مسكنها العالم ، الفته وألفت موضوعاته ؛ وان معرفة موضوعاته مباشرة لا تحتاج الى وسائط مختلفة مهما كانت . انها بما هي وجدان تعرف الموضوعات ظاهرات ووجودا ؛ وهي لا تفصل الا حينما تفصل الظاهرة عن الوجود ، وتعدها المرجع الاخير لكل معرفة . ولكنها حينما تتوقى ذلك ، تصل الى المعرفة اليقينية ، التي ليست عقلية فقط ، بل وجدانية ايضا ، نقيض على الوجود ذاته . ولكن معرفة الوجود ذاته ، تظل معرفة وجود ؛ ولا يمكن لها أن تصبح معرفة ظاهرة ، مثل معرفة الموضوعات .

لقد قدمنا كل هذا ، لكي نتكلم على الذاتية والشك الذي أثير حولها ، في سبيل تتويج الموضوعية والمناداة بها حاكمة في عالم الحقيقة . وبهذا الصدد نقول : ان الموضوعية لا « وجود » لها من دون الذاتية ؛ فكل موضوعية هي موضوعية ذاتية في نهاية التحليل ، سواء أكانت موضوعية الفرد أم موضوعية الجماعة أم موضوعية الانسانية كلها . وفضلا عن ذلك ، ان موضوعية الاجهزة والآلات هي موضوعية ذاتية بمعنى من المعاني ؛ لان الاجهزة والآلات العلميــة هي في آخر المطاف ، تجسيدات مختلفة لمعان مختلفة ، مرت في خاطر الذات . صحيح ان الغاية العلميــة من استعمالات الآلات والاجهزة ، هي قياس الشيء ( الموضوع ) بالشيء ( الآلة ) . ولكن هذا لا ينفي عمل الذات التي توقفت عند هذا الشيء ( الموضوع ) ، وصممت هــذا الشيء ( الآلة ) لدراسته . فالتوقف هو توقف الذات ، والتصميم هو تصميم الذات ، في نهاية الامر . فالتوقف كان لفكرة مرت في خاطر الذات ؛ والآلة كانت فكرة مرت في خاطر الذات . وهذا كله ينتهي الى أننا لا نستطيع أن نتخلص من الذاتية الا اذا تخلصنا من الموضوعية ؛ في الوقت ذاته . انهما وجها حقيقة واحدة .

وهذا يعني ، أن للوجدان – بما هو شعور – حقيقة ذات وجهين : الذاتية (الشعور) والموضوعية ( الاشياء ) . لهذا كان العلم – بل كل علم – نتيجة التقاء الذات بالموضوع . وهذا يذكرنا بالظهرياليين(١) وشعارهم الشهير : كل شعور هو شعور بشيء من الاشياء . وهذا معنى قولهم : ان المعرفة قصدية .

(١) علماء الظواهر ( الفنومنولوجيون ) . قالوا كيمياء وفيزياء تعريبا ؛ وقلنا ظهرياء اشتقاقا ، وعنينا بها علم الظواهر .

ولكن لنحلل ذلك ؛ ولنقف على ما يعنونه بكلمة « شيء » وكلمة « قصدية » .

يعني الظهرياليون بالقصدية ، اتجاه الذات العارفة الى الموضوع المعروف ، الذي يتميز من هذه الذات . ومع ذلك ، فالذات العارفة تكون في الموضوع المعروف قصديا ؛ والموضوع المعروف يكون في الذات قصديا . وهنا لابد لنا من التوقف قليلا ، لنفهم معنى « في » في هاتين العبارتين ، في سبيل ان نتمكن من فهم هذا التناوب — اذا صح ان هناك تناوبا — بين ان تكون الذات العارفة في الموضوع المعروف قصديا ، وان يكون الموضوع المعروف في الذات العارفة قصديا . فهل تعني « في » تضمن شيء في شيء ؟ اننا لا نعتقد ذلك ؛ فالذات العارفة لا يمكن ان تكون في الموضوع المعروف ، ولا الموضوع المعروف يمكن أن يكون في الذات العارفة ، بمعنى التضمن . واذا لم تكن كذلك ، فماذا تعني اذن ؟ نعتقد أنها تشير الى معنى العلاقة ، بل العلاقة غير المحدودة بين الذات العارفة من ناحية ، والموضوع المعروف من ناحية أخرى . انها تريد أن تقول : ان هناك علاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف . ودليلنا على ذلك ، معنى كلمة « تكون » او « يكون » في اللغات الاوربية ، التي يتعلق بها حرف الجر « في » . انها لا تعني الوجود هنا ، بل مجرد الربط بين الفاعل ومتممه . وبما ان العلاقة غير محددة هنا ، فقد وقعت الظهريالية في اللبس ، وهي تريد الايضاح . ومما ساعد على ذلك ، مفهوم الشيء . والحقيقة ، فهي تفهم الشيء فهما عاما لا يصدق على الموجودات فقط ، بل يصدق على المجردات ايضا . ولهذا ، كان معنى الشيء بالاضافة اليها ، هو الظاهرة او الماهية . وهنا نجد انفسنا امام خطأ الخلط بين الوجود في الاذهان والوجود في الاعيان .

ولكن ، ما المخرج من ذلك ؟ انه يكون بفهم الشيء بمعناه الوجودي من ناحية ، وبتحديد العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف من ناحية اخرى . وعندئذ ، تصبح العلاقة بين موجودين يتمتع أحدهما بالوعي ، في قلب وجود يتجاوزهما معا . ان هذه العلاقة علاقة وجودية اصلا ؛ ثم يحيلها الوعي الى علاقة معرفية ، من دون ان يلغي العلاقة الوجودية ؛ بل يظل يفترضها ابدا .

وهكذا يرد الظهرياليون الشيء الى ظواهره ، ثم الى ماهيته ، في حين اننا نرده الى الوجود المشخص الذي هو في اصل الظواهر والماهية ، واكثر من الظواهر والماهية . وفي هذا الاختلاف بيننا وبينهم ، كل الاختلاف ؛ انهم مازالوا معلقين في فضاء الفكر بما هو

ظواهر وماهيات ؛ في حين اننا مازلنا مرتبطين بالوجود المشخص ، الاصل للموجودات الجزئية التي تصدر عنها والماهيات ؛ وان كنا سمونا بعض السمو الى فضاء الفكر أيضاً ، من دون ان نفصم عالم الفكر عن الوجود المشخص . وتفصيل ذلك شرحناه في امكنة مختلفة ، ولا حاجة بنا الى تكراره .

ولكننا نستطيع أن نضيف اموراً اخرى تفصل بيننا وبينهم . فمفهوم الشيء لديهم يعني — كما كان يعني في تاريخ « الفلسفة » ومايزال — منظومة الصفات المادية او المثالية الثابتة نسبيا . وهذا معناه ، أنهم لا يميزون بين الشيء وفكرته ؛ فالصفات الماديةوالمثالية معا هي الشيء ؛ وما الفصل بين صفات مادية وأخرى مثالية ، الا عملية تجريد . ولكن الظهريائيين يعنون بالشيء الظواهر التي يتبدى عليها ، وماهيتها التي تلخصها . أما الوجود فيبقى لديهم على الهامش اولا وآخرا ، عند التعليق ، وفي اثناء حدس الماهيات ، وعند فك الهلالين عنه .

وفضلا عن ذلك ، فالظهريائيون يفصلون بين الاشياء التي هي موضوع الشعور ، والظواهر بما هي مضمون هذا الشعور . ولكن الفصل بين الناحيتين وليد خدعةفكرية، آن الاوان لكي نكشف النقاب عنها . واذا تساءلنا عن سببها ، وجدناها ترجع الى الاعتقاد ان بنية الشيء الذي هو موضوع الشعور تختلف في حال حضوره عنها في حال غيابه . وهذا يعني ، أن الحرية تتدخل هنا للتغيير في طبيعة الشيء في حال غيابه ، تغييرا يبلغ حد التشويه — الابداع اذا شئت — كما يظهر ذلك واضحا في الخيال المبدع . ولكن الحرية من دون حتمية لا « وجود » لها ؛ ولا يمكن ان تحقق شيئا ؛ واذا شئت ، ان تبدعه .

ولكي نوضح ما نعنيه ، لابد لنا من الكلام على الشيء في حال حضوره ، وفي حال غيابه ؛ وان نقرببين الحالين ، في سبيلالموازنة بينهما ، والكشف عن الاخطاء«الفلسفية» التي تراكمت في خلال تاريخ « الفلسفة » ، والتي تقوم على اساس من عدم التفريق بين الحالين . والحقيقة ، ان بنية الشيء الذي ندركه ( في حال حضوره ) ، تلاحقنا حينما نتذكره او نتخيله او نفكر فيه ( في حال غيابه ) : انها الحتمية المرتبطة بالحرية في افعال التذكر والتخيل والتفكير . ولكنها في حال الحضور ، كثافة وجودية تفرض نفسها علينا ؛ في حين أنها في حال الغياب ، شفوف نظري نستطيع التصرف به .

ولهذا ، ليس في مقدورنا ان نقول : ان بنى الشعور تختلف دائما عن بنى الاشياء التي هي شعور بها . ان بنى الاشياء تفرض نفسها على بنى الشعور في حالي الحضور والغياب ؛ وان كان الوجدان يستطيع أن يتصرف بها ، في حال الغياب ، الى حد كبير . ولعلنا نحسن صنعا ، اذا توقفنا عند الخيال ، وبدأنا بتحليله ؛ نظرا لان تصرفنا فيه ببنى الاشياء ، يبلغ حد التشويه ، الى حد نعتقد معه ، ان المتخيل هو من ابداعنا . والحقيقة ، ان الحصان الطائر ، كما تصوره الخيال الاسطوري ، ليس في نهاية التحليل، غير اضافة صورة جناحي طائر ، الى صورة حصان . ان بنية الحصان مازالت تفرض صورتها علينا وقد انضافت اليها صورة الجناحين ؛ وهما يفرضان أنفسهما علينا أيضا .

وهذا يعني ، ان بنى الشعور ليست مستقلة ، بل هي امتداد لبنى الاشياء ، مهما كان التعديل الذي تجريه فيها . واذا بدت لنا بنى الشعور حركانية ( ديناميكية ) في مقابل اشياء ساكنة ، كان لابد لنا ، من ان نرى اصل هذه الحركانية في الصيرورة المجردة من الوجود المشخص . لاشك أن كل شيء يخضع للصيرورة ؛ ولكن بعض الاشياء تكون صيرورتها بطيئة الى حد بعيد ، بحيث لا نستطيع ملاحظتها . ولكننا في هذه الحال ، نستنجد بالصيرورة العامة التي طبعت وجداننا بطابعها ؛ أعني الصيرورة المجردة من الوجود المشخص .

## ٥ ــ التجربة الوجودية والتجربة اللغوية

لقد وصفنا المظاهر العامة التي يبدو عليها الوجدان ، وهو يتفتح على العـالم ، بما هو المسرح الوجودي الذي يظهر عليه هو والموضوعات التي يتأملها ، أو يعمل فيها . والحقيقة ، ان الوجدان قائم في قلب العالم ، سواء في احساسه وتذكره ، في ادراكه وانتباهه ، في تخيله وتفكيره ، ثم في تعبيره اللغوي عن كل ذلك ؛ اذ ان انصرافنا في التحليل الى الاحساس بما هو احساس ، لايعني اغفال العالم ، الذي يلتقي على مسرحه كل من الحاس والمحسوس . وهكذا قل في الادراك والذاكرة ، في الانتباه والتخيل ، في التفكير والتعبير اللغوي .

ولكن الوجدان جسد كما نعلم ؛ وفي الجسد ينحل الاحساس الذي هو في اصل كل من الادراك والذاكرة ، والانتباه والتخيل ، والتفكير والتعبير اللغوي . وكل هذا يشير

الى اهمية الجسد في حياة الوجدان ؛ فهو يظل بالاستناد اليه ، ملتقى الموضوعية والذاتية : ذاتية احساساتي وانطباعاتي ، وموضوعية الاشياء التي ادركها ، والتي تتحول الى موضوعات ممتلئة الوجود ، حينما تلامس جسدي .

وليس هذا فحسب ؛ بل ان جسدي هو اصل كل وجودية ؛ لانني اعيش به الوجود المشخص وراء وجود الموضوع الجزئي الذي أحسه : انني احس بوجود العالم الذي يضمني انا والموضوع الجزئي في عناق ابدي لا يمكنني الانفكاك منه ما حييت . واذا ما انفككت فيه من الموضوع الذي ادركه في هذه اللحظة ؛ فلكي انتقل الى موضوع آخر ادركه بعد لحظة ؛ ولكن من دون ان افقد الوجود المشخص ؛ او اكف انا والوجودالمشخص عن الاستمرار في عناقنا الابدي . ولهذا لم يكن الادراك استثناء ، كما ذهب الى ذلك هسرل ؛ وانما القاعدة التي لا تقبل الاستثناء .

وهذا يعني ، ان الادراك يحيلنا الى فكر متجسـد ، الى وجدان يهبنا الوجود المشخص ؛ ويجعلنا نقبض عليه ، وعلى موجوداته الجزئية ، التي جردناها بالذهن منه ، والتي نستطيع ان تصورها من دون ان نتمكن من تصوره هو ذاته ؛ الا اذا شوهنا حقيقته ، وحولناه الى مطلق .



ويبلغ الادراك قمته في الانتباه ، لابما هو قبض على الوجود المشخص ، بل مما هو تامل له . فالانتباه ادراك تحليلي لصفات الموجود الجزئي من خلال حضوره . انه ادراك نحلل به مضمون الشيء المدرك الى تصورات متمايزة ، لكي نعود فنربطها فيما بعد ، في قضايا واستدلالات ، متخذين من الشيء المدرك في وحدته ، اصلا وجوديا لربط التصورات التي استخرجها الانتباه التحليلي ، في قضايا ، والقضايا في استدلالات . وهذا هو المحك الذي يجب ان يتبعه الذهن في تحققه من صدق القضايا والاستدلالات . فالصحة المنطقية ليست شيئا ، اذا لم تعتمد على الصدق الوجودي .

ولكن هذا كله لن يكون من دون اللغة . فاللغة هي التي تساعد الفكر في تثبيت هـذه التصورات ، وربطها في قضايا واستدلالات ، بل انها بمجرد قيامها ، تصبح «موضوعا» لانتباه من نوع آخر ، انتباه للمجردات من خلال اثوابها اللفظية . وهذا النوع منالانتباه هو في أصل كل تفكير ، أعني في اصل انشاء القضايا والاستدلالات . والحقيقة ، ان اللغة

في اصل توضيح التفكير توضيحا يساعد على تحليله والربط بين عناصره ، بمعزل عن الاشياء ، التي هي في اصل كل تفكير . فباللغة تصبح افكارنا وكانها ليست منا ، بل كانها شيء ماثل امامنا ، نشرحه ونتامله ، لكي نكشف بالذهن ذاته ، عن حقيقته وقيمته. انه الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الوجدان ، ان يحول تجاربه المختلفة ، الى كلمات تمكنه من روزها وتقديرها ، عدا ادراكها ادراكا واضحا . ان اللغة هي تجربة الوجدان ذهنا ، وقد تحولت الى كلمات وجمل ونصوص .

وهذا يعني ، ان هناك علاقة بين الوجدان بما هو معبر عن ذاته بكلمات ، والوجدان بما هو موجود مشخص . ولهذا قلنا وكررنا القول : ان هناك صلة وثيقة بين تجربةالوجدان الوجودية وتجربته اللغوية . وبما ان اللغة ترفع هذه التجربة الى مستوى عال من التجريد كان لابد من العودة بالمجردات الى الوجدان ، لتلامس اصلها الوجودي ، ولاتكون سبيلا الى الخطا . بهذه العودة الى الوجدان الملتحم بالوجود المشخص ، يمكننا ان نحل الفكرة المجردة في الوجود المشخص ، ونردها الى طابعها المشخص الاصيل ، الذي كانت عليه قبل التجريد ، ولكن بعد الكشف والفتح . فاللغة هي العالم البديل الذي استبدلناه بالوجود المشخص . ولكن حذار من ان نجعله مرجعنا الاخير ، فلا نعود الى المبدل الذي هو ينبوع كل حقيقة . ان اللغة هي الوجدان والوجود المشخص في حال تجريدهما ، اي بما هما ذات ومطلق وموجودات جزئية . وهذا التجريد ليس مجرد تجريدهما من الاجدوان (١) ، بما هما حقيقتان منفصلتان ، بل تجريدهما هما ذواتهما من العناصر التي يتضمنها كل منهما .

ومن هذا يتضح لنا ، ان اللغة هي انعكاس الوجدان امام ذاته تجريدا ، لابما هو ذهن ( قوة وجدانية ) ، بل بما هو مضمون ( تجربة فكرية وعقل ) . انه انعكاس يصبح العالم حاضرا فيه ، امام الذات ، في مكان تصوري جرده الفكر من الوجود المشخص ، وملاه بالتصورات والافكار ، التي جردها من الموجودات الجزئية . وذاكم هو الشرط الضروري لقيام الموضوعية والعلم ، بل لقيام العلم على اساس من الموضوعية ، وهو يمثل انعطافا من الوجود المشخص الى المعرفة ، يقوم به الوجدان ، فيعكس الموجودات الجزئية

---

(١) اشتققنا كلمة اجدوان للدلالة على حالة الوجود المشخص ، قبل انفصال الوجدان عنه . وهو يعني لغة ، مايسبق الوجود والوجدان .

ظواهر وماهيات ، في عالم مجرد من صنع الذهن ؛ ويخلع عليها الموضوعية ، ثم يربط بينها في حقائق وقوانين ، هي جملة العلوم الجزئية على اختلافها .

وهذا يعني ، ان اللغة تربط المعرفة بالوجود وموجوداته ؛ فهي تبدأ باطلاق التسميات على الاشياء ، بعد أن يكون الذهن فصل الموجودات الجزئية وصفاتها عن الوجودالمشخص وصيرورته الكلية ، تجريدا ؛ وهي لاتنفصل عنه وجودا . وهذا يجعلنا نرى ، ان منظومة الاشياء في العالم ، تنعكس في المنظومة اللغوية عقلا ؛ مما من شانه ان يجعل العقل ذا وجود موضوعي من ناحية ، وارثا مشتركا قابلا لنقله بين الافراد والجماعات ، من ناحية اخرى. وهذا يسمح بالانتقال من الواقع الى الفكرة ، ومن الوجود الى المنطق .

## ٦ ـ الوجدان والتجريد والحرية

بيد اننا لانكاد نستخدم اللغة ، حتى تحل الرموز اللغوية محل الوجـود المشخص والوجودات الجزئية . وعندئذ ، يلازمنا المفهوم ؛ فيتحول كل شيء الى مفهوم ؛وربما كان هذا مصير الوجود المشخص ايضا . ولكن الوجدان ليس مفهوما بالمعنى الدقيق للكلمة ، الا اذا افرغناه من مضمونه ، وجعلناه مرادفا للمطلق . هنا ننتقل من عالم التجربة الوجودية الى عالم التجريد . في هذا العالم تبدو الحرية باجلى مظاهرها ؛ اذ انها ابتداء من حتمية الوجود المشخص وموجوداته الجزئية تبني لها حتميات مجردة ؛ هي رموز تحل محلالوجود المشخص وموجوداته الجزئية ؛ ويمكن للذات ان تتصرف بها ، في عالمها المجرد . وهنا يتمكن الوجدان من التخلص من حتميات الموجودات الكثيفة ؛ لكي يتعامل مع حتميات الذهـن الشفافة ، التي هي أسهل تناولا وتحريكا . وعندئذ ، تظهر صلة النظر بالعمل فيالوجدان باجلى مظاهرها : فالوجدان يجرد الاشياء حتى يتمكن من التصرف بها نظريا ، تمهيـدا للتصرف بها عمليا . فكان الوجدان امام حمل ثقيل يجد صعوبة في تحريكه ونقله فيالوهلة الاولى ؛ فيلجأ الى تصوره ذهنيا ؛ اي نقله الى الذهن بالتجريد ، في سبيل دراسته ومعرفة خصائصه ؛ ليكون ذلك تمهيدا للتصرف به والعيا بالعمل ؛ مثل زحزحته من مكانه ، او تفكيكه الى اجزاء ، أو نقل احد اجزائه لاستخدامه في وظيفة غير وظيفته . وهذا يتضمن ان التفكير عمل على مستوى الوجدان ، والعمل تفكير على مستوى الواقع ؛ ولكن بالوجدان ذاته .

والحقيقة ، اننا لانفكر الا لكي نعمل ؛ ولانجري حساباتنا الا لكي نتعامل مع الاشياء والاخرين ؛ ولانقوم باستدلالاتنا الا لكي نعرف كيف نتوجه في اعمالنا ومعاملاتنا . ولايتوقف الامر عند هذا الحد ؛ بل اننا حينما ننشىء العلم ، لانتشئه الا لكي نعمل به ، سواء أكان العمل به على نحو مباشر ، أم على نحو غير مباشر . ويكفينا ان نفكر في الكيمياء والفيزياء وعلم الحياة وعلم الفلك ، حتى نتأكد من ذلك كل التأكد . ولانعتقد ان الفلسفة بدع في ذلك ؛ اذ اننا نتفلسف في سبيل فهم الوجود المشخص ومافيه ؛ لكي نتعامل معه ومع مافيه، على كل المستويات الحيوية والاجتماعية والعلمية ، الخ ... ولهذا لايمكن لنا – ونعني بذلك الانسانية كلها في كل زمان ومكان – أن نستغني عن الفلسفة من دون الاستغناء عن الاستمرار في الوجود انسانيا . فهل بامكاننا ان ننشىء العلم من دون الفلسفة ؟ وهل بامكاننا ان نتعامل فيما بيننا ، من دون الفلسفة ؟

ولكن ، لابد لنا ان نتوقف هنا قليلا ؛ وان ننبه على حقيقة قد تفوتنا ، اذا لم نتوقف بعض التوقف عندها ؛ وهي اننا في مجال المفهومات ، فارقنا العالم الوجودي ، واستعضنا به عالما ذهنيا ؛ بحيث كففنا عن ان نكون في قلب الوجود المشخص ؛ واصبحنا في قلب المطلق. ولكن المطلق من انشاء الفكر ابتداء من الوجود المشخص ؛ والفكر هو حركة الذهن المعبر عن الوجدان . وهذا يعني ، أن حركة الفكر هي في الوجدان القائم في الوجود المشخص ؛ وانه الفكرة الرامزة الى الموجودات الجزئية ، هي في الوجدان القائم في الوجود المشخص ؛ وانه بالوجدان تتوحد الموجودات الجزئية مع الفكر التي هي رموز لها ؛ اي تتوحد الموضوعات مع مجرداتها من خلال الذات .

وهذا يعني ، ان الفكر ابتعاد عن الوجود المشخص ؛ وأنه بما هو ابتعاد عنه ، قد يسلك مسالك الضلال ؛ وماله لكي يتجنب هذه المسالك ، الا ان يقوم بمراجعات مستمرة، يتفحص بها فكره ، ويقرنها باصولها الوجودية . وليس يكفيه هذا ؛ بل لابد له ، حينما يستخدم هذه التصورات ، من ان يعود الى واقع الموجودات الجزئية وحوادثها ، ليشهدها على صحة تفكيره .

وهنا لابد لنا أن نلاحظ ، ان الوجدان يصبح في مجال التفكير المجرد اكثر حرية ؛لانه يتخلص من حتميات الوجود المشخص وموجوداته الجزئية ؛ ولان حتمياته تكف عن ان تكون حتميات وجودية ، لكي تتحول الى حتميات ذهنية ؛ اي حتميات من صنعه هو ذاته .ولاشك

ان حتمياته ، لانها من صنعه ، أسهل في التصرف بها ، من حتميات الوجـود المشخص وموجوداته الجزئية ؛ وهي حتميات مفروضة عليه . ولكن الحتميات الذهنية ، بما هـي حتميات منطقية وعلمية ، تظل اصعب مراسا من الحتميات الذهنية في الحلم ؛ لاننا هناك نظل على صلة بالاصول الوجودية للفكر ؛ على حين اننا لانكون على صلة بها في الحلم ؛ فهي مجرد صور شفافة . ومن هنا كانت اللغة العربية تدل على اصالة في التمييز بين الناحيتين؛ حينما جعلت الوجدان ادراكا للوجود ، وجعلت الوعي استيعابا . والحقيقة ، ان الموجودات الجزئية ليست في الوجدان ؛ ولكنها في الوجود المشخص الذي يستوعب الوجدان ايضا اما الفكر فهي في الوعي ؛ اي مستوعبة بالوجدان ذاته ، من حيث هو ذهن .

وهذا يرتد بنا الى مسألة قديمة في تاريخ « الفلسفة » ، طالما اشرنا اليها في غضون هذا البحث ؛ وهي تفريق « الفلاسفة » بين وجود في الاذهان ووجود في الاعيان . فقـد رأوا ان الاشياء توجد في ذاتها اولا ؛ وانها توجد في ذهن من يعرفها ثانيا ؛ وان الوجود الثاني يختلف عن الوجود الاول . وقد صحح الظهرياتيون ذلك قائلين : ان المعرفة قصدية دائما ، بمعنى ان الذهن يقصد بها الى موضوع متميز منه ؛ بحيث يكون العارف فـي الموضوع الذي يفكر به قصديا ، ويكون موضوع تفكير العارف في العارف ذاته قصديا .

ولكننا رأينا انه ما من وجود في الاذهان ؛ فالوجود هو دائما وجود في الاعيان . اماما يدعونه وجودا في الاذهان ، فليس شيئا اخر سوى المعرفة . قد يبدو ان الاختلاف بيننا وبينهم هو اختلاف في التسمية فقط : فما يدعونه وجودا في الاذهان ، ندعوه معرفة . بيد ان الامر ليس كذلك ؛ لان المعرفة وان كانت تشير الى موجود اصبح موضوعا لها ؛ فهـي معرفة هذا الموضوع ، من حيث هو موجود في الاعيان ، لافي الاذهان . والحقيقة ، ان الكتاب الملقى على مكتبي والذي ادركه من حيث هو كذلك ، موجود على مكتبي وليس في ذهني . ولايقف الامر عند حدود الادراك ، بل يتعداها الى الذاكرة والخيال والفكرة . ويبدو ذلك لنا واضحا ، اذا تاملنا بنية الذكرى : فما اتذكره لا اتذكره قائما في ذهني ؛ بل اتذكره واتذكر نفسي معه ، في مكان وزمان معينين . وبالاختصار ، ان الذكرى هي ذكرى في العالم، لا من حيث انها تحدث لي وانا في العالم فقط ، بل من حيث ان مضمونها حدث في العالم ايضا . وكذلك قل في الخيال : فما اتخيله لا اتخيله في ذهني ، بل اتخيله في العالم ، وعبثا احاول ان اتخيل شيئا خارج العالم ؛ وحتى اذا فعلت ، فانني انما اتخيله في عالم

آخر نسجته على منوال هذا العالم . وهذا ما نلمسه في القصص ، حتى في أكثرها ايغالا في الخيال ؛ والا عجز القصاص عن الامساك بموضوع قصته ، وعن ايصال مايريده الى قرائه ومستمعيه . وليس امر الفكرة مخالفا لذلك : فاكثر الفكر تجريدا لايمكنني ان ادركها ، مالم اربطها بالمشخص ؛ اعني مالم اربطها بموجودات قائمة في الاعيان . والحقيقة ، ان فكرة الفضيلة تظل عصية على ادراكي ، مالم اتصور موجودات عاقلة يتصرف بعضها بازاء بعض ، على نحو معين ادعوه فاضلا ؛ واكثر من ذلك ، لابد من تصور هذه الموجودات العاقلة في مكان معين وزمان معين ، وهي تقوم باعمالها في ظروف معينة . واذا صرفت نظري ، وانا افكر في الفضيلة ، عن كل ذلك ، فلانه اصبح مالوفا لدي ، بحيث لايستوقفني الا نادرا ، ولامر من الامور .

## ٧ ــ سند الذاتية والموضوعية

ولكن ، اذا كانت تلك اهمية الوجدان ، كان لابد لنا من النظر الى الكيفية التي يقوم فيها سندا للذاتية والموضوعية . لقد رأينا ان له ــ بما هو فكر ــ انماطا مختلفة يظهر بها الظواهر المختلفة ، ابتداء من الاحساسات حتى الماهيات . ولكن الظواهر لا تتبدى على هذا النحو ، الا في عالم تتشابك فيه حياة الجسد بالبيئة التي يعيش فيها ؛ فيشكلان معا وحدة لا تنفصم عراها .

هذا الجسد وهذه البيئة يظلان في علاقة وثيقة ، وان تكون متطورة ؛ ولا يمكن لاحدهما ان يكون من دون الآخر ؛ بحيث نستطيع أن نقول : ان البيئة أشبه ما تكون بمحيط الدائرة ، والوجدان أشبه ما يكون بمركزها . ولكن تشبيه البيئة بمحيط الدائرة تشبيه قاصر ؛ لان هناك في الحقيقة ، دوائر كثيرة متداخلة ومتقاطعة فيما بينها ، تكون بيئات مختلفة ، ينتقل الوجدان ما بينها . لهذا لم يكن تشبيه الوجدان بانه مركز الدائرة تشبيها موفقا ايضا ؛ لانه في حركة دائمة تنفي مركزيته بها ؛ فتتغير البيئات المختلفة التي يصبح مركزا لها ، في هذه اللحظة او تلك .

وهذا يعني ، ان الوجدان ــ بما هو فكر ــ حركة مستمرة ؛ وان البيئة ، بما هي متطورة ، تغير لا ينقطع ، وثراء متجدد لا يحد . ومن حركة الوجدان وتجدد البيئة ، يتجدد العالم بتجدد الدوائر المتولدة عن حركة الوجدان ، وبالتغيرات التي تطرا على

البيئات المختلفة . ومن هنا كانت حركة الوجدان حياة ذاتية . ولكنها ذاتية تبني موضوعيتها من خلال تعاملها مع البيئات المختلفة في العالم . لهذا لم تكن الذاتية من دون الموضوعية ؛ ولم تكن الذاتية والموضوعية معا ، من دون الوجودية . ان حركانية الوجدان في قصده وفكره ، في رغباته وعواطفه ، في نزوعه وارادته ، تندمج في موضوعية معينة ، مع موجودات البيئة على اختلافها ؛ وتؤلف وحدة وجودية متطورة في الوجود المشخص لذاته ، الذي هو اصل الوجدان والموجودات الجزئية معا .

وهذا يعني ، ان الوجدان يتحقق وجوديا ـ ثم موضوعيا في مستوى التجريد ـ في جانب من حياة البيئة ، التي يرتبط بها ، تحققا يربط بينه وبين بيئته ربطا يحكمه وجده ، بما هو حرية وحتمية في وقت واحد معا . وما يتحقق فعلا ، هو مواقف وجدانية وجودية تتحول فيها الموجودات الجزئية الى موضوعات ، في حال انفصام الوجدان عن الوجود المشخص . وهكذا تتحول الوحدة الوجدانية الوجودية الى حقائق منفصلة ، يقوم كل منها بذاته تجريدا ، مثل الذات والموضوع والعالم . ولا يتوقف الامر عند هذا الحد ؛ بل ان تحول العالم الى مجرد مكان فارغ ، وطغيان الموضوعات المختلفة المتكثرة على الذات ، من شأنهما ان ينعكسا عليها ، ويجعلاها ـ بالتجريد ـ تتصور ذاتها والعالم موضوعين بين سائر الموضوعات ؛ وما هما كذلك اصلا . وليس هذا فقط ؛ بل ينشأ من تغير العالم وحركة الفكر ، تصور للزمان الفارغ ايضا ، شبيه بتصور المكان الفارغ ، يحدث فيه كل حادث بعينه الفكر .

بيد ان تجربة الوجدان ليست تجربته بما هو فكر فقط ؛ بل تجربته بما هو وجد ايضا . وهذه التجربة الاخيرة ـ اذا صح فصلها عن الاولى ـ ليست تجربة المعطيات الحسية فقط ، بل تجربة الوجود المشخص ايضا : انها ليست تجربة الواقع ، بل تجربة الوجود المشخص اصل كل واقع . ومن هنا كانت التجربة وجودية وجدانية ، تتحول في التجريد ، الى تجربة ذاتية موضوعية تحدث في عالم مجرد ، هو مجرد مكان فارغ في التصور .

ولكنني حينما ارجع الى تجربة وجودي في العالم ومع الاشياء والآخرين ، ارجـع الى التجربة الفذة الاصلية التي تستند اليها كل تجربة . ويبدو في الوهلة الاولى ، ان هذه التجربة غنية كل الغنى ، عميقة كل العمق . انها أساس كل معرفة وكل تقويم ؛ لان

كل معرفة متضمنة فيها سلفا ؛ وكل تقديم يبدأ منها ؛ فهما المعبران عن العلاقة الاصلية بين سريرة الوجدان وسر الوجود .

وواضح كل الوضوح ، ان تجربة وجودي في العالم ، هي الحدس الاول الذيبتضمن وجود ذاتي من ناحية ، ووجود العالم من ناحية اخرى . بيد انني لست بحاجة الى برهان ، لاثبت وجود ذاتي ووجود العالم . فانا الذي اقيم البرهان ، لست بحاجة الى برهان اقيمه على ذاتي ؛ لان اقامة البرهان تعني اصلا ، وجود ذاتي التي تقيم البرهان ؛ فاذا شككتنا بها ، كان لابد لنا ان نشك ببرهاننا ؛ اذا جاز لنا ان نتصور برهانا تقيمه ذات هي بحاجة الى اقامة البرهان على وجودها . ومن هنا كانت استحالة تصور ذات تقيم البرهان على وجودها ! كذلك لست بحاجة الى اقامة البرهان على وجود العالم ؛ لان الذات التي تقيم البرهان على وجود العالم ، لابد لها ان تكون موجودة ؛ ولكي تكون موجودة لابد لها من ان تكون موجودة في العالم ؛ أي لابد للعالم من ان يكون موجودا هو الآخر ؛ لانها موجودة فيه اصلا ؛ والشك بوجوده شك بوجودها اولا ، وبامكان البرهان الذي تقيمه ثانيا .



والحقيقة ، ان وجود الذات ووجود العالم تجريدان عقليان لاحقان على تجربة وجودي في العالم . ومن هنا كان الانتقال من تجربة وجودي في العالم ، الى وجود الذات ووجود العالم ، انزلاقا بين مستويين مختلفين ؛ انزلاقا من الوجود المشخص الى الوجود المجرد ؛ اي الى المعرفة . فذاتي لا يمكن ان توجد الا في العالم ؛ وكل تصور لها من دون العالم ، هو انتقال الى مجال التصور ؛أي الى مجال المعرفة . وهذا يعني ، ان وجود الذات ووجود العالم متضمنان اصلا في وجودي في العالم : انهما تجريدان من التشخيص البدئي .

كذلك تجربة وجودي مع الاشياء والآخرين ، هي تجربة اشعر فيها بوجود ذاتي من ناحية ، ووجود الاشياء والآخرين من ناحية اخرى . وليس وجود ذاتي ولا وجود الاشياء والآخرين بحاجة الى البرهان ايضا . فالوجود لا برهان عليه ؛ لانه سابق على كل برهان ؛ ولانه من طبيعة البرهان . هذا عدا أن وجود الاشياء والآخرين ، هو الوجه المقابل لوجود العالم : ان وجود الاشياء والآخرين هو وجود لما يتضمنه العالم ؛ على حين ان وجود العالم هو وجوده وقد صرفنا النظر عما يتضمنه . ولا يخفى مافي هذا او ذاك من تجريد ؛ ولا نعتقد ان بنا حاجة الى تكرار ما قلناه ، من ان التجريد انزلاق الى مستوى المعرفة .

والحقيقة ، اذا كان البرهان الذي نقيمه ذاتي ، هو برهان على وجودها ، وبرهان على العالم الذي هي فيه ؛ كان لابد ان يكون برهانا على وجود الآخرين ايضا . فانا لست فكرا هو امتداد للحس ؛ وما يبدو لي ليس ماهية هو امتداد للظاهرة ؛ بل انني فكر وجسد ؛ وجسدي ليس حسا فقط ؛ بل انه وجدان وراء ذلك . لهذا لم يكن ما يبدو لي ماهية وظاهرة ، بل كان وجودا ايضا . انه يكفيني ان انحرك نحو الاشياء والآخرين ، او ان المسها او المسهم ، حتى ينقلب البعد الذي يحيل كل شيء الى ظاهرة ، الى قرب يحول حضور الظاهرة الى حضور موجود ، « امتحه » وجوديته الكاملة ؛ ولاسيما حينما يفرض نفسه علي ، في وقوفه في سبيلي ومقاومتي .

وهكذا يبدو لي ، ان وجود ذاتي ووجود الاشياء والآخرين ، تجريدان عقليان شأنهما شان وجود ذاتي ووجود العالم . انهما نتيجة حركتي تجريد الحقيقة كاملة التشخيص ، التي تجمع بين ذاتي والاشياء والآخرين في العالم ، جمعا بدئيا سابقا على تجريد الذات وتجريد الاشياء والآخرين وتجريد العالم . وما كان لي في الحقيقة ، ان استعمل كلمة « تجمع » ، الا لانني انطلق من التجريد ؛ وما التجريد بالوضع البدىء .



## خاتمة ــ ماوراء الذاتية والموضوعية

حاولنا في هذا البحث ، ان نبين ان الموضوعية ليست افضل من الذاتية ؛ وانها مرتبطة بها ارتباطا تلازميا ، وتقوم معها على اساس من الوجودية ، التي هي وجودية كلية ، ذات قطبين تجريدا : الوجدان من جهة ، والوجود المشخص من جهة اخرى ، اللذين يصبحان الذات والمطلق في اعلى مراحل التجريد .

لقد كانت غايتنا من وراء ذلك ، ابراز ان الذاتية والموضوعية تقومان على اساس من هذا التجريد ؛ حيث تجد الذات نفسها مقابل موضوع من الموضوعات ، تتاملة تارة ، وتعمل تجاهه تارة اخرى ؛ تنشىء منه العلم حينا ، وتجعله هدف تطبيقها العملي حينا آخر .

والحقيقة ، ان يقين العلم الذي طالما اعتقدنا انه متات من الموضوعية ، انما هو متات في الواقع ، من وحدة الوجدان مع ذاته من ناحية ، ووحدته مع الوجود المشخص من ناحية اخرى . اما وحدة الوجدان مع ذاته ، فتبرز من تطابق النظر والعمل ، من تطابق

المعرفة والتطبيق ؛ في حين ان وحدة الوجدان مع الوجود المشخص ، انما تعبر عن اعتماد الموقف المجرد ، موقف المعرفة ، على الموقف المشخص ، الموقف الوجودي ، وهذا يعني ، ان يقين العلم ليس يقين الموضوع وحده ، بل يقين الذات ايضا ؛ يقين الجزئي والمجرد ، بل يقين الكل المشخص .

وهذا ينتهي الى ان الموضوعية ليست الاساس الكافي لقيام العلم ، بل انها تستلزم الذاتية ؛ وان الذاتية والموضوعية كلتيهما تتطلبان الوجودية اساسا لهما . الامر الذي يعني ان العلم الجزئي لا يقين له الا بيقين العلم الكلي ، يقين الفلسفة .

ولكن هذا ليس كل شيء ؛ اذ ان ارتباط النظر بالعمل من ناحية ، وارتباط الذاتية بالموضوعية من ناحية اخرى ، اذا عنيا شيئا ، فانما يعنيان ان الاختلاف بين العلم والفن ليس اختلافا في النوع ، بل اختلافا في الدرجة ؛ لانه ليس بامكاننا ان نطبق النظريات العلمية ، من دون اللجوء الى الفنون المختلفة من ناحية ؛ وليس بامكاننا ان نبدع الفنون، الا اذا اقمناها على اسس علمية من ناحية اخرى ، لنفكر مثلا بالتقنيات الحديثة ؛ أليست تزاوجا بين العلم والفن ؟ وكذلك الرسم والموسيقى ، هل يمكننا ان ننشىء لوحة فنيــة مثلا ، من دون معرفة قوانين الشكل واللون ، وقوانين تناسب الابعاد والمساحات ؟ وهل يمكن ان نبدع لحنا ، او ننشىء سنفونية من دون معرفة قوانين التناسب الصوتي ، وجمل الانغام والمقامات والايقاعات والاوزان وعلاقاتها الزمنية ؟

بيد ان ارتباط النظر بالعمل ، وارتباط الذاتية بالموضوعية ، يعنيان شيئا آخر ؛ وهو ان احكام الواقع التي نطلقها ، ليست خالية من شوائب القيمة ؛ وان احكام القيمة من جهة اخرى ، ليست خالية من شوائب الواقع . وهذا يؤيد ما قلناه من ان الاختلاف بين العلم والفن ليس اختلافا في النوع ، وانما هو اختلاف في الدرجة ؛ لان العلم بما هو علم قابل للتطبيق العملي ، يصبح فنا يغلب الواقع على القيمة في احكامه ، من دون ان ينفيها ابدا ؛ ولان الفن بما هو فن قائم على اساس من العلم النظري ، يصبح علما يغلب القيمة على الواقع في احكامه ، من دون ان تنفيها اطلاقا . وهذا يعني ، ان العودة بالعلم والفن الى اساسهما المشخص : الوجدان من ناحية ، والوجود المشخص من ناحية اخرى ؛

يعني ان الفرق بين احكام الواقع واحكام القيمة ، هو فرق في الدرجة : درجة امتزاج الواقع بالقيمة ، او القيمة بالواقع .

وهكذا يتضح لنا ، أننا في التجريد نقيم الذاتية في مقابل الموضوعية ، ونجعلهما نقيضين لا يجتمعان ؛ حتى اذا عدنا الى التشخيص ، وجدنا انهما متلازمان وتقومان على أساس واحد . وهذا الاساس ينتهي بنا حينما نتامله ، الى تجاوز التناقض القائم بين النظر والعمل من ناحية ، والتناقض القائم بين الواقع والقيمة ، من ناحية اخرى . وهذا يعني ، اننا اذا نظرنا الى ما وراء الذاتية والموضوعية ، وادركنا ما يكتنفهما في الواقع المشخص ، فانهما تتبديان لنا بوجهين غير وجهيهما في التجريد . وذاكم ما أردنا بيانه .

# الحياة الفكرية للعامة

## في دمشق وحلب

## في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

د. عبد الله حنا



### ١ ــ العوامل الرئيسية المؤثرة في الحياة الفكرية

تاثر(*) المناخ الفكري والنفسي ومستوى الثقافة للعامة الدمشقية والحلبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجملة عوامل رئيسية واخرى ثانوية اهمها :

١ ــ نظام ملكية الارض ، التابعة في معظمها للدولة اي للسلطان وولاته والجهاز الاقطاعي الحاكم . ان نظام الاقطاعية الشرقية هذا ، المتميز بعدم وجود طبقة اقطاعية ترث الاملاك وتورثها ، وخضوع هذه الطبقة الاقطاعية المقيمة في المدن لسيف المصادرة ، الذي يلاحقها بعد اقالتها من مناصبها خلق جوا اخلاقيا معينا لدى الفئات العليا اتسم بالحذر والرياء والخديعة والكذب والغدر وحبك المؤامرات ... الخ .

وقد ادى عدم وجود طبقة اقطاعية مستقرة لفترة من الزمن ، كما جرى الامر في اوروبا ، الى انبعاث جملة ظاهرات طبعت المدن العربية العثمانية بطابع خاص واثرت في طبقتي الخاصة والعامة بما فيها القوى العسكرية حامية النظام . وقد اثر وجود القوى الاقطاعية الدائم في المدن الى جانب سكان المدن وفوق راسهم،اثر في اصباغ لون خاص

(*) هذا المقال باب من مخطوط بعنوان : « تحركات العامة في دمشق وحلب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » .

على المناخ الفكري للسـكان المكتوين يوميا بنار الارهـاب العسكري الاقطاعي الشرقي وشروره وآثامـه .

٢ ـ العلاقات التجارية المتسمة بتبادل المواد الخام ، التي انتزعتها الطبقة الاقطاعية الحاكمة من منتجيها كريع عيني ، بسلع الترف والابهة المستوردة من البلدان الاجنبية لتغذية عجرفة الباشاوات العثمانيين وسد حاجات حرمهم وحشمهم الى البذخ والترف وكل امر ليس له صلة بالانتاج الحقيقي .

ومع ان التجارة الداخلية وتبادل السلع بين المدن والقرى اخذ يتطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، الا أن تطوره تراوح في مكانه ولم يؤد حتى نهاية القرن التاسع عشر الى تطور يخلق البذور الصالحة لنمو الرأسمالية والانتاج الصناعي . اي ان الانتاج البضاعي البسيط تراوح في مكانه ولم يتطور باتجاه الانتاج البضاعي الرأسمالي .

٣ ـ الصناعات الحرفية الطائفية المبنية على العمل اليدوي وتنظيم الحرفيين في طوائف ذات تسلسل هرمي اسهم الى حد كبير في بلورة المناخ الفكري للعامة المؤلفة بمعظمها من طوائف الحرفيين ، فكان لكل طائفة حرفية تقاليدها وعاداتها الخاصة وسلوكها المعروف . وقد اسهم الوضع الاجتماعي والاقتصادي للحرفيين في دفعهم الى الانتظام في الطرق الصوفية ، التي عرفت ازدهارا ملحوظا في هذه الفترة . ولكنه ازدهار بالمعنى التراجعي للكلمة وليس بمعناها التقدمي الثوري . فصوفية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صوفية جامدة مغلقة على نفسها ليس فيها الا الاساطير والخرافات . وكانت كل طائفة حرفية تربط نفسها بولي وطريقة صوفية وتساهم في احياء حفلاتها الدينية . هذا الجو الفكري الصوفي المترمت المتخلف للحرفيين هو في الواقع نتاج الركود الاقتصادي وبقـاء المدن العربية العثمانية تعيش حياة ساكنة راكدة عديمة التطور والحياة بسبب سيطرة النظام الاقطاعي الشرقي العثماني ، وعدم تمكن النواة البورجوازية من التطور والانطلاق . ولهذا بقيت الطرق الصوفية مسيطرة على اذهان الجماهير ، على الرغم من صيحات حركة الاصلاح الديني الاسلامي في أواخر القرن التاسع عشر ، ذات المحتوى البورجوازي .

٤ ـ التراث القومي والديني ومايضم في ثناياه من عناصر ثورية نيرة وأخرى رجعية متزمتة . وقد ادى التخلف الاقتصادي والركود الفكري الى قيام « رجال الثقافة »

المتخلفين بالالتجاء الى الجوانب السلبية الرجعية المتزمتة من التراث والاعتماد عليها لتبرير الاستثمار الاقطاعي العثماني وتخدير العامة وحرفها عن النضال الثوري ضد مستثمريها . ومع ان مسيرات الطرق الصوفية اصطدمت في كثير من الاحيان مع الطبقة الحاكمة عندما كانت مصالح الحرفيين معرضة للخطر الداهم ، الا ان الطرق الصوفية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تؤد دورا ثوريا عارما ، كما كان الامر عند نشوء بعض هذه الفرق . ولجأت الطبقة الحاكمة العثمانية الى استغلال الطرق الصوفية ووضعها في خدمتها والسيطرة عن طريقها على الجماهير واخضاعها فكريا لنفوذها . فالصوفية ، التي كانت في كثير من الاحيان احتجاجا على النظام الاقطاعي الشرقي القائم، اخذت تتحول احيانا الى اداة في يد هذا النظام لعرقلة التطور وبقاء التخلف والتحجر سائدين .

٥ ــ ان الفكر البورجوازي الاوروبي بتياراته المتنوعة تأثيرا واضحا في العناصر البورجوازية الناشئة في الشرق العثماني . ومع ان تأثيره كان واضحا وجليا في المثقفين المستنيرين المسيحيين ، الا ان هؤلاء لم يكن بامكانهم ان يتغلغلوا في قلوب العامة ، باكثريتها المسلمة ، ويسيطروا على تفكيرها . واقتضى الامر فترة من الزمن الى ان شرع المثقفون المستنيرون المسلمون في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في حمل بعض ألوية التطور البورجوازي مستعينين في مقارعة الرجعية الفكرية والسياسية بالرجوع الى الجوانب الثورية التقدمية من التراث ، والدعوة الى نبذ الجوانب السلبية او الجامدة ، التي تكرس التخلف الاقطاعي وتحد من التطور البورجوازي .

وقد اتهم رجال التنوير بدمشق بالوهابية احيانا (١) وبالماسونية ، التي دخلت دمشق سنة ١٨٦٤ ، احيانا (٢) اخرى . والوهابية من جهة والماسونية من جهة اخرى كانتا الملاذ الامين للمثقفين البورجوازيين في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

وعندما اطل التطور البورجوازي برأسه على المدن العربية الشامية العثمانية كان منذ ولادته مهيض الجناح ، لان حملة لواء هذا التطور تألفوا في البدء من الفئات التجارية المسيحية ، التي لم يكن بامكانها التصدي للطرق الصوفية والوقوف امام سيلها الجارف. اذ ان كل محاولة بورجوازية لمقارعة الاقطاعية ورديفها الفكري الطرق الصوفية بمضمونها المتخلف المتزمت اتهمت بانها هجوم من المسيحية على الاسلام . ولم تبدأ المقاومة

البورجوازية الجديدة للفكر الاقطاعي ، الا عندما بدأت قوى التنوير الاسلامي المتمثلة بجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا بمقاومة الفكر الديني السائد والدعوة الى الرجوع الى الينابيع الاولى ، اي الى القرآن الكريم وعهد الصحابة الاولين . وسنرى مدى المقاومة ، التي قادها هذا التيار في كل من دمشق وحلب .

حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بالتحديد حتى مجيء الحملة المصرية كان الفكر السائد بين العامة هو الفكر الصوفي بتياراته المتخلفة الجامدة المتلائمة مع النظام الاقطاعي العثماني . وبعد الحملة المصرية ونتيجة عوامل متعددة أخذ الفكر البورجوازي يشق له طريقا بين الفئات المثقفة المستنيرة المسيحية اولا ومن ثم المسلمة . ولهذا لابد من اجل فهم تحركات العامة من الاطلاع على فكرها وعاداتها واخلاقها ونفسيتها حتى يتسنى لنا الاحاطة بكل ما كان يتجاذبها أو يعتمل في صدورها . ويأتي في طليعة ذلك معالجة الطرق الصوفية ، التي كانت بمثابة احزاب العامة في ذلك الزمن ، ومجالها الاساسي في التنفيس عن كربتها واحزانها وهمومها ، وفي دفعها الى الثورة والتمرد او الخضوع والاستسلام .



## ٢ ـ طرق الصوفية

بلغت الصوفية اوجها (٢) في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، حيث ظهر عدد من كبار المتصوفة ، الذين تركوا اثرا واضحا في بلاد الشام والمشرق العثماني عامة . وأشهر المتصوفة ، الذين خلفت طرقهم في بلاد الشام هم : عبد القادر الجيلاني ( ت ٥٦١ هـ ) ، عمر بن الفارض والشيخ عبد الغني النابلسي ( ت ١١٤٣ هـ /١٧٣١ م )، الذي شرح ديوان ابن الفارض واوغل في التفسير والتاويل . ولا تزال اصداء الشيخ عبد الغني وكراماته تتردد اصداؤها في الاوساط التاثرة بالصوفية ، محي الدين بن عربي ، الذي اثار مذهبه اختلافا كبيرا في الاراء ، وجلال الدين الرومي وغيرهم .

في العهد العثماني اصاب التخلف والانحطاط الفكر الصوفي ، وتحول الى فكر سطحي متزمت ، ولكنه أدى حاجة ملحة تتناسب مع ظروف حياة الجماعات وعهد الفوضى والاضطراب والقلق السائدة آنذاك . وكان انتشار تيار الصوفية وحلقاتها المتعددة وفرقها الكثيرة الوجه الآخر لمتطلبات المجتمعات العثمانية الاقطاعية الشرقية والحرفية .

وكان انتشار الطرق الصوفية على نطاق واسع ودخولها الى أعماق جماهير المدينة صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك ، ومظهرا من مظاهر الحياة الحرفية وحاجتها الى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية والمعاشية والحياتية . وقد قامت هذه الجماعات الحرفية بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية الى تعبيرات عملية واسس اخلاقية تسير حياتها الاجتماعية ، متبعة في ذلك تقاليد معينة وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت اشراف شيوخها المحليين(٤) .

ويمكن القول الى حد بعيد ، ان فرق المتصوفة كانت لها دويلاتها الخاصة بهـا في اطار الدولة العثمانية واحيانا خارج اطارها . فمواكب المتصوفة في الشوارع وولائمهم في البيوت واجتماعاتهم في المساجد والزوايا ، وتغلغل نفوذهم في المدن والقرى وامتداد سلطانهم الى مختلف فئات الشعب وتسربهم الى قصور الحكام والاغنياء . وقد زادت دويلات الطرق الصوفية من عروشها بالايمان وبما لها من سلطان في قلوب العامة وقسم كبير من الخاصة . وهذا مادفع توفيق الطويل الى القول : « ان دولة الفقراء الصوفية كانت اثبت قدما واعظم نفوذا واقوى سلطانا من دولة بني عثمان » .(٥)

ولا شك ان نظام الاقطاعية الشرقية في عصوره الاخيرة ، وما ساده من ظلام وجهل وشدة وفقر وفوضى وقهر وظلم وعهر اسهم في ثبات دويلات الطرق الصوفية ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بـين الناس . ووصل الامر ببعض فرقها وخاصـة الدراويش والمجاذيب ــ أو من تظاهر بالجذب لتغطية أهداف اجتماعية أو سياسية ــ الى الضرب بعرض الحائط بأعراف البـلاد وتقاليدها وحتى بدينها . ومن هـذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصوفية بانها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع الطبقي القائم ، بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج .

كانت اهم الطرق الصوفية التي انتشرت بين عامة بلاد الشام هي :(٦)

١ ــ البكتاشية ، التي تغلغلت في صفوف الانكشارية .

٢ ــ المولوية ، التي اشتهرت بحفلاتهـا الدينية في التكايا والزوايا ، حتى اطلق عليهم اسم الدراويش الراقصين .

٣ – النقشبندية ، التي تعتبر نفسها أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول الى درجات التوحيد .

هذه الطرق الثلاث لم يكن معترفا بها من الطرق الرئيسية الاربعة للصوفية ، التي قالت بنسبها الى الامام علي وفاطمة الزهراء ، وهي :

٤ – الرفاعية ، التي لمعت مع وصول أحد مشايخها الى قصر السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر ، وهو محمد أبو الهدى الصيادي من خان شيخون الى الجنوب من حلب . وقد مثل الصيادي الجانب الرجعي من الصوفية ووقف في وجه حركة التجديد الاسلامي ، وقام بنشر عدد من الكتب الموضحة والمفسرة للطريقة الرفاعية(٢) .

٥ – الجيلانية او القادرية ، التي ظهرت في بغداد واحيط مؤسسها بهالة من التقديس والاساطير .

٦ – البدوية ، التي لاقت رواجا كبيرا في مصر ، ولم تنتشر انتشارا واسعا في بلاد الشام .

٧ – الدسوقية ، وظهرت في مصر أيضا ، وانتشرت في بلاد الشام وينسب اليها كثير من الخوارق .

٨ – بالاضافة الى هذه الفرق عرفت الشام أيضا السعدية والشاذلية وغيرهما من الفرق ، التي كانت في الواقع احزابا للعامة وفق مفاهيم ذلك الزمن .

## ٣ – رجال الصوفية أعيان العصر

مع أن الانتاج الفكري للحضارة العربية الاسلامية أخذ في الهبوط منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، الا أن بعض ومضات هذه الحضارة ظهرت هنا وهناك في القرون التالية . ولكن ومع مجيء القرن الثامن عشر امست الارض الفكرية العربية في بلاد الشام قاحلة الا من بعض الاشواك الجافة ذات المذاق المر ، واستمر الامر على هذا المنوال في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ثم اخذت ، بفعل العوامل المذكورة آنفا ، بعض الاعشاب النافعة والازهار اليافعة بالظهور والتفتح في خضم ذلك المحيط القاحل القاتل ، وأخذ الصراع يشتد بين القديم المهتم بتوافه الامور والمعتقد بالخرافات والاساطير وبين الجديد

الساعي الى احياء التراث الحي والى الاقتباس من الحضارة البورجوازية الناهضة في اوروبا .

ارخ فكريا لهذه الفترة عدد من الدمشقيين والحلبيين المهتمين بتلك المواضيع ، فالشيخ راغب الطباخ ارخ عام ١٩٢٣ « لعلماء » حلب في كتابه « اعلام النبلاء بتاريخ حلب » تناول فيه سائر رجال الدين ومشايخ الطرق واصحاب الكرامات بتفصيل زائد . وتعليقا على صدور كتاب الطباخ كتبت مجلة المجمع العلمي العربي ذات الاتجاه المستنير قائلة ان الطباخ « ترجم للمجاذيب ولكرامات المغفلين والمطنبر والعاشق والعمار ممن عدهم في العوام » (٨) . وتعليق مجلة المجمع العلمي العربي المستنيرة هو احتجاج على نشر فكر متخلف جامد من بقايا عصر الانحطاط .

وقام الاب فردينان توتل اليسوعي بنشر وثائق عن حلب بعنوان « أولياء حلب في منظومة الشيخ محمد أبي الوفاء الرفاعي ( ١٧٦٥ – ١٨٤٧ ) » . حيث جمع الشيخ أبو الوفاء في منظومته اسماء أولياء حلب وبعض الرجال ممن رفعتهم العامة الى مقام الاولياء اعتمادا على الآية الكريمة : « الا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . ولحلب أولياؤها الخاصون بها دون غيرها ، كالنبي بنقوس ، والنبي ابلوليا ، ومنهم من هو معروف في غير حلب كنعمان وشمعون وزكريا . ويرى توتل ان التفتيش في اصول هؤلاء الاولياء يكشف عن آثار مسيحية ترجع باصولها الى آثار يهودية أو وثنية سبقتها .



وفي دمشق اهتم عدد من المؤرخين باعيانها . ومن هذا الطريق وصلت اخبار كثيرة عن الفترات السابقة . وعلى الرغم من الشك في بعضها الا انها مصدر خصب لتلك الفترات . فالمحبي الف كتاب « خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر » والمرادي الف كتاب « اعيان القرن الثاني عشر » .

وفي عام ١٨٨٦ م صدر في بيروت أول كتاب مطبوع لعبد الرحمن بن شاشو تناول الحياة الفكرية لدمشق تحت عنوان « تراجم بعض اعيان دمشق » ، وهو كتابة عن مجموعة قصائد شعرية لاكثر من ٧٥ اديبا من أدباء دمشق وأعيانها ومشايخها .

خصص ابن شاشو الفصل الاول من كتابه لذوي البيوت والوجاهة والمجد مثل السيد محمد بن السيد كمال الدين الحسيني نقيب دمشق الشام ، وكتبه مرجع ذوي النقل .. ومثل بيت محاسن وهو بيت حسن ومال وثروة واقبال .

واقتصر الفصل الثاني على العلماء الاعلام والاجلاء العظام ومنهم شيخ الاسلام وبركة الخاص والعام . وخص الفصل الثالث بالادباء والتراجم المتميز بالسطحية واللغو والمفتقر الى الحياة .

ثم تناول عدد من المؤرخين الحياة الفكرية في دمشق في هذه الفترة مثل : الحصني في كتابه « منتخبات التواريخ لدمشق » المطبوع عام ١٩٢٧ . و « اعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع » لخليل مردم بك . وكتاب « اعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر للعلامة الشيخ محمد جميل الشطي اصدار المكتب الاسلامي سنة ١٩٤٦ . ويذكر الشطي أسماء المصادر ، التي استقى منها معلوماته ، وفي مقدمتها مخطوط الاستاذ البيطار . وقد طبع هذا المخطوط في دمشق عام ١٩٦١ بعنوان « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » تاليف الشيخ عبد الرزاق البيطار ١٢٥٣ ـ ١٣٣٥ ، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده محمد بهجت البيطار . ولهذا الكتاب اهمية خاصة لما فيه من معلومات مكتوبة بروح مستنيرة نسبيا ، ولما احتوى من تعليقات الشيخ بهجت البيطار ، الشيخ المستنير ، الذي انتقد كثيرا من مفاهيم ذلك العصر ساعيا لوضع الامور في اطارها التاريخي . ونورد فيما يلي مقتطفا من مقدمة الشيخ بهجت لكتاب جده . قال : « كان عصره عصر جمود على القديم وتلقي الاقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم ... بعضهم زعم مرة انه يجب القيام ، عند ذكر ولادة الرسول تعظيما له ... ولكن عبد الرزاق البيطار اعتبر ذلك وجوبا بدعيا ، وقال : ان تعظيم النبي الحقيقي باتباعه في اقواله وأفعاله ونشر هدايته التي جاء بها عن ربه مشتملة على سعادة خلقه ... وكان محمد عبده يجل الشيخ عبد الرزاق ولا يتقدمه ابدا ... واشتهر بالانكار على أرباب الخرافات ، وممن يقاوم بلسانه وبراهينه تلك الخزعبلات ... » .



كانت الاوصاف التي تطلق على الاعيان في القرن الثالث عشر ، كما وردت في الشطي هي : فاضل ـ طبيب ـ معتقد ـ مرشد ـ فقيه ـ والي ووجيه ـ نقشبندي ـ شاعر ـ محدث ـ مفتي ـ قاضي ـ رئيس مؤذنين ـ خطاط ـ صوفي ـ ذكي ـ فلكي ـ محدث اكبر ـ صالح ـ فرضي ( الذي اتقن علم الفرائض وتقسيم المواريث ) ـ عالم محدث ـ عالم ـ شيخ قراء ـ شيخ الشام ـ إمام ـ خطيب ـ مولوي ـ مجذوب ـ خطاط ـ زاهد ـ عابد معتقد ـ تاجر ومدرس ـ رفاعي ـ شاذلي ـ قادري ـ دسوقي ـ مقرىء ـ تاجر ومدرس ـ عالم مرشد(٩) .

ولا يمكن أخذ فكرة شاملة عن المناخ الفكري السائد بين جماهير العامة وفهم نفسيتها ومزاجها وبعض اخلاقها ، وبالتالي ادراك تحركاتها وتململاتها ، دون القاء الضوء على حياة عدد من « أعيان » القرن التاسع عشر ممن كانوا من العامة أو على صلة بها او لهم سلطان التأثير فيها .

وقد تناولنا بالتفصيل ، في مخطوطنا الاصلي ، الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية لهؤلاء « الاعيان » ، مما لايتسع المجال له هنا . وصنفنا هؤلاء الاعيان الى فئات هي :

١ ــ اعيان اشتهروا بالخوارق . ٢ ــ اعيان عرفوا بالجذب .
٣ ــ اعيان أولياء تزار قبورهم . ٤ ــ اعيان فقراء .
٥ ــ اعيان تجار ومعلمو حرف . ٦ ــ اعيان علماء .
٧ ــ اعيان على صلة بالسياسة .

## ٤ ــ حركة التنوير



في ذلك الجو الفكري السقيم كان من الطبيعي « أن تقل » كما قال القساطلي سنة ١٨٨٠ : « بضاعة المعارف لرواج بضاعة السيوف والعصي »(١٠) . وفيما عدا بعض مدارس الارساليات الضئيلة والمقتصرة على العموم على بعض أبناء الميسورين من المسيحيين ، فان فرص التعليم المحدودة اقتصرت على الجوامع والزوايا والخوانق والكتاتيب .

ومع أن عدد المدارس في دمشق وحلب بلغ ٣٠٠ مدرسة ، الا ان « الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون اوقافها فخربت » كما « استحلوا أموال المدارس والمعابد » و « استقل بعض أرباب النفوذ بالاوقاف »(١١) .

وتعويضا عن المدارس المندثرة قامت الكتاتيب ، التي أشرف عليها مشايخ الكتاب وهم اناس اقرب الى الامية منهم الى المتعلمين ، وكانت وظيفتهم الرئيسية تعليم الاطفال قراءة القرآن بأجر زهيد(١٢) .

أما الزوايا ، التي كثرت مع كثرة الطرق الصوفية ، وكانت مركزا لاقامة الاذكار ،

والخوانق والرباطات ( التكايا ) ، فلم تلامس من المعرفة الا جوانبها السطحية . وندر أن درس كتاب ذو قيمة فيها ، واذا درس كتاب فيها ، كما جرى تدريس كتاب « الشفاء » لابن سينا في تكية السلطان سليم(١٣) ؛ فلن يطول أمر هذا التدريس اذ سرعان ما يعم الظلام والتجهيل بسرعة غريبة .

وعلى أثر حركة الاصلاحات في منتصف القرن التاسع عشر ، ظهرت في دمشق المدرسة الجقمقية ، التي درست الفنون واللغات العربية والتركية والفارسية . وقد تخرج من هذه المدرسة عدد ممن حملوا ألوية التنوير . وبعد أن الغيت سنة ١٣٠٥ هـ استبدلت بمدرسة أرقى هي المكتب الاعدادي الملكي المعروف بمكتب عنبر ، الذي حمل لواء العلم غير الطائفي ، حتى تأسيس « التجهيز الاولى » في أوائل الثلاثينات(١٤) .

وسنتناول بالبحث بعض من اسهموا في حركة التنوير وأثروا بهذا الشكل أو ذاك في فكر العامة المتنورة وحملوا مشعل النهضة في تلك الفترة . ومن هؤلاء الشيخ طاهر الجزائري وعبد الرحمن الكواكبي وعدد من المتنورين المسيحيين .



١ ــ الشيخ طاهر الجزائري(١٥) : ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ هـ ، ونشأ في حجر والده مفتي السادة المالكية ، وتلقى مبادىء العلوم المعروفة في ذلك العصر من أستاذه الخاص الشيخ عبد الغني الغنيمي الشهير بالميداني ( ١٢٢٢ ــ ١٢٩٨ هـ ) . وكان الغنيمي كما روى الشيخ طاهر : « من العلماء المحققين الواقفين على لباب الشريعة وأسرارها ، البعيدين عن البدع والخرافات » . ومن الغنيمي أخذ الجزائري بذرة التمرد على الجمود . والغنيمي هي احدى الطرق الصوفية المتشعبة عن الشاذلية . وقد ترك الغنيمي طريقة أجداده الصوفية ، وسلك طريق الكتاب والسنة(١٦) . ولا نعلم المؤثرات ، التي دفعته الى سلوك هذا السبيل . هل هو التأثير الوهابي ، أم طريق خاص اختطه لنفسه أخذ في الظهور في معظم المدن الشرقية في خضم التيارات الصوفية المائجة ؟

والملاحظ أن الشيخ طاهر كان صوفيا ثم أخذ في الابتعاد عن التصوف ، وفتح طريقا جديدا في دمشق كان له أثره العميق في مسار التطور الفكري اللاحق في النصف الاول من القرن العشرين . فمن حلقته تخرج عدد من قادة الحركة الوطنية العربية في الربع الاول من القرن العشرين(١٧) .

اضطر الشيخ طاهر وبسبب سياسته المستنيرة هذه الى مغادرة سورية والالتجاء الى مصر سنة ١٣٢٥ هـ ، شأنه شأن معظم الوطنيين المعادين للاستبداد العثماني . وبقي في مصر حتى قيام الحكومة العربية ( الفيصلية ) في دمشق ، فعاد اليها وعين اكراما له مديرا لدار الكتب الظاهرية ، التي كان قد اسسها . ولكنه توفي بعد ثلاثة اشهر من عودته في أوائل ١٩٢٠ ، وقام تلميذه محمد سعيد الباني بنشر تراثه الفكري في كتاب مطبوع ايام الحكم الفيصلي ، ومنه سناخذ اهم افكار الجزائري ، التي كان لها الريادة في حركة التنوير الدمشقية وهي :

١ ـ وقف ضد المؤلفين ، الذين يضيعون الوقت بالمؤلفات الفارغة ، اذ يتناولون كتابا قد شرحه من سلفهم شروحا عديدة على أساليب مختلفة فيعيدون شرحه بنفس الفاظ الشراح السالفين بدون ادخال اصلاح او تجديد او اختراع في الاسلوب .

٢ ـ توحيد المكتبات الموجودة في دمشق وجمع الكتب النفيسة المخطوطة فيها .

٣ ـ سعيه لاحياء اللغة العربية واستثارة دفائنها ، والعناية باحياء التاريخ ونبش الآثار .

٤ ـ السعي وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران . فقام اولا بنسخ واستنساخ كتب ابن تيمية وابن القيم الجوزية وأبي شامة المقدسي وامثالهم ممن لهم اليد الطولى في مكافحة البدع . فكان يدعو الى العودة الى روح الشريعة وحكمتها والعمل على تنقيحها مما الصق بها من الحشو والبدع وجميع ما لم يثبت به نقل ولا يقبله عقل . وجاهد للبرهنة على أن الدين يسير مع العلم والعمران والرقي الاجتماعي واقامة الادلة الشرعية على أن الدين لا ينافي العلوم الكونية . وهكذا يتقلص جمود اعداء التجدد ويتضح أن علة انحطاط المسلمين ليست منبثقة عن دينهم بل ناشئة عن انحرافهم عن منهج دينهم القويم.

ويرى الجزائري ان جمود المعلمين السطحيين المنكرين للخسوف والكسوف والقائلين بتسطح الارض وارتكازها على قرن الثور . ( هذا في أواخر القرن التاسع عشر ) يبعد خريجي المدارس العصرية عن الدين . ولهذا تجب الحرب ضد جمود الجامدين من ادعياء نصرة الدين يحاولون الحيلولة بينه وبين العلم والعمران ويضعون العقبات في سبيل التجدد والرقي .

٥ ـ دعا الى مطالعة الصحف والمجلات . وكان له شغف بالاطلاع على ما تنشره الصحف من الترجمة عن الغرب واقتطاف ثمرات علومه اليافعة . وكان يدعو الى الاخذ بالنافع من التمدن الحديث ماديا كان أو ادبيا ونبذ الضار منه . ولهذا حث على تعلم لغات الامم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة .

٦ ـ كان عدوا للاستبداد ساعيا لتنوير عوام المسلمين عن طريق الاتصال بالعامة من ارباب الذكاء الفطري الذين لم يمارسوا الدرس والبحث على الاصول بالتلقي من الاساتذة ( رجال الدين الجامدين ) ، وهم الذين يدعون بنبلاء العوام ولهم اليد الطولى في افادة العامة لانهم يتمكنون من مخاطبة العامة بلسانهم .

٢ ـ عبد الرحمن الكواكبي : ولد سنة ١٨٤٨ في حلب . في محيط ديني ينتمي الى الطبقة الوسطى . وبعد ان اصاب حظا من العلوم العصرية والدينية عمل في الصحافة الرسمية ، ثم أصدر جريدة « الشهباء » أول جريدة تصدر باللغة العربية في حلب .ولكن السلطات العثمانية سرعان ما اغلقتها لانتقادها الاوضاع الفاسدة . ثم عمل الكواكبي في التجارة واتصل عن هذا الطريق بالاجانب من تجار وقناصل وسياح واعجب بالحضارة الغربية ( البورجوازية ) وكان في الوقت نفسه على اتصال مع العامة عارفا بهمومها ولهذا امست مكانته عظيمة وتقلب في وظائف حكومية كان آخرها من رئاسة غرفة التجارة فرئاسة المصرف الزراعي . ثم اضطر في سنة ١٨٩٨ الى الرحيل الى مصر هربا من الاستبداد الحميدي (١٨) . وهناك نشر كتابيه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ، و «أم القرى».

وواضح ان الكواكبي تأثر تأثرا واضحا بالفكر البورجوازي وبمعاناته الشخصية في حلب وبالارث الحضاري العربي الاسلامي .

يرى الكواكبي ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة ، والطرفان يتجاذبان العوام .ولكن من هم العوام ؟ « هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا ، واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا » (١٩) وفي رأي الكواكبي ان جهل العامة هو سبب شقائهم ، « فاذا ارتفع الجهل زال الخوف ، وانقلب الوضع ، أي انقلب المستبد » (٢٠). وهنا يورد الكواكبي معاناته مع السلطان عبد الحميد وخضوع العامة لهذا السلطان وخوف هذا المستبد من العامة . ثم يلح الكواكبي على مايسميه بالمسليات ، فالفقراء يشعرون

بآلامهم ولكنهم يجهلون أسبابها ، وقد يعيدونها الى السعد او الحظ او الطالع او القدر. والعوام تسيء فهم ماورد في التوراة والانجيل والقرآن حول الخضوع للحكام خلفاء الله في الارض (٢١) .

ويختتم الكواكبي كتابه « طبائع الاستبداد » بالدعوة الى الوحدة الوطنية بين الناطقين بالضاد من المسلمين وغير المسلمين وتناسي الاساءات والاحقاد . ومع هذه النزعة القومية نرى عند الكواكبي نزعة شرقية وانسانية واضحة .

وهو ، شأن سائر المستنيرين المسلمين ، يدعو الى العودة الى المنابع الاولى للاسلام وتنقيته مما غشاه من البدع والاساطير . ومع ان كتب الكواكبي احدثت ضجة لاتزال اصداؤها تتردد الى الآن ، الا ان تأثيره في العامة الحلبية في زمانه لم يكن قويا . ولم يخلق تيارا فكريا واضحا في الداخل ، كما فعل الشيخ طاهر الجزائري ، الذي عرف داخليا وكان مغمورا خارجيا ، بعكس الكواكبي .

مثل الشيخ طاهر الجزائري في دمشق وعبد الرحمن الكواكبي في حلب الاتجاه المستنير داخل الاكثرية السنية ، وعبرا عن بعض آمال الطبقة الوسطى ذات التفكير البورجوازي ، وساهما مساهمة واضحة ، وبخاصة الجزائري ، في خلق تيار فكري سياسي كانت له آثاره البعيدة في اعقاب الحرب العالمية الاولى وبعدها . وقد واجه هذا التيار مقاومة ضارية من التيار الرجعي . والحادثة التالية تقدم صورة عن ذلك الصراع :

في رمضان ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م بعد الاطاحة بالسلطان عبد الحميد اثر ثورة الاتراك الاتحاديين البورجوازية المشارب . وقف الشيخ رشيد رضا ، احد زعماء التجديد الاسلامي والمؤيد للانقلاب الجديد ، خطيبا في الجامع الاموي بدمشق وأخذ يشرح الآيات والاحاديث بمنظار التجديد الاسلامي ، ويطلب الى الناس الرجوع الى سيرة الصحابة ، واتباع اوامر النبي والعمل بها . واذا بالشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقا بين الواقفين حتى وصل الى وسط الحلقة وصاح بصوته : ايها المسلمون اسمعوا لي كلمتين . فالتفت الناس جميعهم اليه وسكت الشيخ رشيد ، فراح الشيخ صالح يحذر من الوهابية ومن هذا الشيخ الذي يحرم زيارة قبور الانبياء والاولياء الصالحين ، ويمنع التوسل بهم ولايعتقد بكراماتهم ، وحذرهم منه . ولم يمهل معظم الحاضرين الشيخ رشيد رضا للرد عليه فهاجوا

وهاجوا وكادوا يفتكون بالشيخ رشيد لولا ان حماه بعض الشبان المتورين ، وخرج الناس من المسجد الى الشارع بهياج عظيم . وازداد هياجهم بعد اعتقال الشيخ صالح من قبل السلطة الجديدة فخرجت المظاهرات المسلحة من الاحياء باتجاه سراي الحكومة وهي تسقط جمعية الاتحاد والترقي ، التي نظمت الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد . مما اضطر السلطات الى اخراج الشيخ صالح حالا . وكانت هذه الفتنة الميتة من الرجعيين ذات ذيول في دمشق لم تنقطع لفترة من الزمن (٢٢) . ودلت على ان حركة التجديد الاسلامي لم يكن لها ، حتى في مستهل القرن العشرين ، جذور بين العامة الخاضعة للرجعية .

٣ ـ التيار المسيحي المستنير : تأخر ظهور مثقفين مستنيرين من المسلمين حتى نهاية القرن التاسع عشر . وبقي تيار التجديد حتى نهاية الدولة العثمانية ضعيفا مهيض الجناح ، ثم اخذ في الصعود والتغلب على تيار الجمود والتزمت .

اما في الاوساط المسيحية فان حركة التجديد ظهرت فيها منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد عبر عدد من المثقفين المستنيرين المسيحيين ، بصورة أوضح من رفاقهم المسلمين عن تطلعات الفكر البورجوازي النامي في أوساط البورجوازية التجارية المسيحية وبخاصة في مدينة حلب .



دعا التيار المسيحي المستنير الى حكم ديموقراطي يتساوى فيه الجميع ، ويعطي لكل حسب كفاءته وجهده ( لا حسب دينه ) ، ويفصل فيه الدين عن السياسة ، ويقوم على العلم الحديث . كما نادى أنصار هذا التيار بالوطنية والقومية التي نشأت وترعرعت في البدء في الاوساط المسيحية ثم انتقلت في مستهل القرن العشرين الى الاوساط المسلمة المتأثرة اقتصاديا او فكريا بالتطور البورجوازي(٢٣) .

أتى في طليعة هذا التيار رزق الله حسون(٢٤) ( ١٨٢٥ ــ ١٨٨٠ ) الحلبي ، الذي عاش في الوسط التجاري ، وفرنسيس المراش ( ١٨٣٥ ــ ١٨٧٤ ) الحلبي ، الذي عاش في جو أدبي ، ومزج في مؤلفاته الفلسفة بالشعر . وتنم بعض كتاباته عن روح ديموقراطية ثورية . فهو في كتابه « غابة الحق » المؤلف في باريس والمنشور بعد مماته في مصر يقول : « فلولا يد الصغير لم يظل ساعد الكبير ، ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغنى ، ولم تترس اموالهم ، ولم تتم قصورهم ، وسرادقهم المشيدة » . ولكن هذه النزعة التقدمية

لا تظهر في كتاب المراش « مشهد الاحوال » المؤلف في حلب والمطبوع في بيروت ١٨٨٣ على نفقة الخواجات ابراهيم صادر وايليا باسيل(٢٥) . ويعود سبب ذلك الى تقيته وخوفه وهو في حلب من بطش الحكام واعوانهم ، فغلف افكاره التقدمية الجريئة بالافكار المألوفة مازجا الشعر بالنثر معالجا نظرية أصل الانواع والاجناس مرورا بالمجتمع والسياسةوالغزل.

المفكر الحلبي الثالث المشهور هـو جبرائيـل دلال(٢٦) ( ١٨٣٦ ـ ١٨٩٢ ) صاحب القصيدة المشهورة « العرش والهيكل » ، التي هاجم فيها رجال الدين والحكمالاستبدادي، ودعا الناس الى الثورة عليه وتأسيس الحكم الجمهوري . ولهذا القي في السجن حيث مات فيه بعد سنتين ، دون ان تشفع له قصائد المديح بالسلطان عبد الحميد .

## ٥ ـ نماذج من روحانيات العامة وفروسيتها

روحانيات العامة غزيرة وبحاجة الى كتاب خاص ودراسة مستفيضة . وليس هدف هذا البحث الا تقديم بعض النماذج عن هذه الروحانيات لاخذ صورة اوضح عن الجو الروحي للعامة بما يساعد على فهم تحركاتها وهياجها من جهة او ركودها واستكانتها من جهة أخرى . وروحانيات العامة هي مرآة صادقة للمجتمع الاقطاعي الشرقي المتخلف في الشرق ، الذي لم تتمكن قواه الثورية من نقله الى مجتمع متطور كما جرى في الغرب . ولهذا فان هذه الروحانيات عكست الجوانب المتخلفة لذلك المجتمع الاقطاعي الشرقي من جهة ، والتيارات الثورية المعتملة في قلب ذلك المجتمع من جهة أخرى .

ان العلاقة تبدو وثيقة هنا بين التأثيرات المتبادلة للبنيتين التحتية « العلاقات الاقتصادية الاجتماعية » والفوقية للفكر والايديولوجيا . فروحانيات العامة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكيفت ، شأنها شأن الايديولوجية ، مع ضرورات المجتمع الراكد الخامل والمتصف بقمع الفئة المستثمرة للمنتجين الحقيقيين .

وقد مثلت الفئة العليا من رجـال الدين ايديولوجيـة عصور الانحطاط الاقطاعي الشرقي . وكانت هذه الفئة تلجأ الى تلفيق الخرافات والاساطير والبركات واقامة الزارات لكي تبتز أكثر ما يمكن من المال . وقد لاقت هذه الفئة نجاحا باهرا ولمدة طويلة منالزمن. أما الفئات الفقيرة من رجال الدين ، التي انحدرت من الفلاحين او عامة المدن فانها كانت اقرب الى حياة الجماهير وتعاطفت معها وأمدت حركة العامة بالمنظرين الفكريين لتحركاتها

وكون هؤلاء ، جزءا من المعارضة الثورية للاقطاعية الشرقية ، التي اتخذت شكل الصوفية أو الزندقة الواضحة والمتسترة او العصيان المسلح حسب الظروف والاحوال .

ولهذا فان الاطلاع على روحانيات العامة يكشف لنا الوجهين المتناقضين للمجتمع الاقطاعي الشرقي : وجه الفئة المستغلة المستثمرة من الحكام واعوانهم ، ووجه الفئات الاجتماعية المستثمرة المستغلة المنهوكة من جهة أخرى . وكثيرا ما اختلطت الاوجه وامتزجت الصور لدى انعكاسها في روحانيات العامة ، التي نحن بصددها .

وانسجاما مع البنية الاقتصادية الاجتماعية المتخلفة اتصفت روحانيات العامة بالتخلف في الشكل والمضمون . ومع اهمال العلوم شاع الجهل بين الناس وعششت السذاجة في رؤوس العامة والخاصة ، وبدت في ضعف التعليل لظاهرات الطبيعة والمجتمع. فاذا أصاب البلد القحط او دهمه الجراد او حلت به الاوبئة ( الطاعون والكوليرا)والامراض أو ضربة الزلازل ، او اذا نزل بالبلد عدو داخلي او خارجي ، نرى الحكام وقادة العامة المفكرين في ذلك الزمن يتجهون الى التماس زوال هذه الظواهر بالادعية والاوراد والصلوات واقامة الذكر واخراج « السيارة » لكي ترابطهم هذه الشدة . كما ان مختلف تسليات العامة رمت الى تخفيف وطأة الشدة الحالة بها سواء من الطبيعة أو من النظام الاجتماعي السائد . ومن خلال هذا المنظار يمكن فهم كثير من روحانيات العامة .



## ١ ـ مراسم الاذكار :

هي احدى الوسائل ، التي لجأت اليها العامة ، للبحث عن طرق النجاة في الدنيا والآخرة . وبسبب جهل العامة وانعدام ثقافتها كانت حفلات رجال الطرق الصوفية ومراسم الاذكار وما يتبعها خير وسيلة لتنظيم شؤون العامة والدفاع عن بعض حقوقها وادخال الطمأنينة الى قلبها وضمان امور دينها ودنياها . وكانت الطرق الصوفية ، وما يتبعها من مراسم واحتفالات حاجة ماسة في مجتمع تسوده الفوضى وتنعدم فيه السلطة الحقيقية والقوانين الضامنة لارواح الناس وحقوقهم .

أقيمت حفلات الاذكار في ليالي الاعياد الدينية كافة ، وفي كل ليلة اثنين أو جمعة و المساجد أو في الدور والزوايا . وكانت الحفلات تقام وفق مراسم خاصة من تهليل وتكبير قياما وركوعا وقعودا وهم يذكرون الله تعالى في اثناء ذلك ، ويرافق ذلك انشاد

الاناشيد وتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم . ومن الطرق ما يجري فيها التهليل والتكبير على ضرب الطبول وبلهجات خاصة تتحشرج في حلوقهم كلمات تهليل ، فلا يسمع البعيد عنهم قليلا الا اصواتا كاصوات المصابين بالسعال ، وحكمة ذلك ، ان كثرة ترديد اسم الله تعالى ينتقل من اللفظ الى القلب . وعن هذا الطريق يتجردون في حالهم واستمساكهم بذكر الله من الجسم المادي ويرتبطون بالمعاني العلوية ، وتتوقف ابصارهم عن الرؤية وتتعلق بصائرهم بالانوار الرحمانية ، فلا يكاد أحدهم في ذلك الوضع من الاخلاص لله أن يشعر ولا بجزء من أجزاء جسمه ولو قطعت اعضاؤه او سلخ جلده وذلك بتوجه القلب مع نور الفكر مع سائر شعور الاعصاب الى تخيل الانوار الالهية(٢٧) .

هذا المبدأ الصافي للصوفية داخله مع الزمن العبث بالغايات الحقيقية من هذه الاذكار . وامس رجال التنوير من المتدينين في مستهل هذا القرن ينادون بازالة معالم الطرق الدخيلة والاكتفاء في حفلات الاذكار بذكر الله تعالى بأدب وهدوء . وفي منتصف القرن العشرين تجزأ عدد من المتنورين ونادوا بالغاء حفلات الاذكار نهائيا ، وتم لهم ذلك في منتصف هذا القرن .

ونقدم نموذجا من حلقة الذكر المقامة في مزار الشيخ جاكير بحلب ، وهو شيخ من اولياء حلب المشهورين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . والقبة المبنية فوق قبره كانت مزارا للمتعبدين ولمن يعتقد بكراماته . وفي ثلاثينات القرن الحالي زار الراهب اليسوعي توتل مقامه واجتمع بالمؤمنين بالولي الشيخ جاكير ، وحضر رتبتهم الدينية للفرجة . وننقل فيما يلي ماكتبه توتل حرفيا نظرا لاهميته ولعدم اختلاف طقوس الصوفية في أوائل القرن العشرين عنها في القرن التاسع عشر وما قبله ، قال توتل :(٢٨)

« وحضرنا رتبتهم الدينية للفرجة . فكانت غريبة بمشاهدها ، وقد صارت بعد العشاء نحو الساعة العاشرة ليلا ، على نور المصابيح الضئيلة ، وكانت هناك حلقة واسعة من الرجال في نصفها الاول جلس البدو ، وظهرهم الى الشمال ووجوههم الى القبلة . وفي نصفها الثاني جلسنا ، أعني الداعي ، وكاهنا ثانيا يسوعيا بولونيا ، وجماعة من العسكر الافرنسيين ، وضباطهم . وكان في وسط الحلقة مجمرة نار متقدة فدارت علينا القهوة العربية مع لفائف التبغ ، وبينما كانت الحفلة حافلة اذا المزاهر تقرع بالانامل والضجيج يزداد دقيقة عن دقيقة وصوت المغنين والقوالين يرتفع ثم سكت الجميع الا الشيخ فاخذ ينشد الشعر :

الله الله ياستار — ياللي للذنب غفار
ياربي تغفر ذنبي — ونجني من حر النار
فننخيك ياأبا الزهرا — انجدني منك نظره
أنا داخل على الجهرة — مددك مددك يامختار
لاتنخي أنا الرفاعي — بسره لجسم السباع
بيوم الضيق نشاع — للفزعة دوم محضر
انجدني يا دسوقي — عرجي راعي البروق
أنا بشدة ومضيوق — أدركني راعي الاسرار
انجدني يا طنطاوي — يا قطب ويا علاوي
يا احمد يا بدوي — للفزعة دوم محضر
انجدني يا عبد القادر — برمحك دائم ظاهر
دخيلك عبد القادر — ادركني راعي الاسرار
لاستنجد بعز الدين — عرجي راعي البراهين
ادركني نسل الحسين — للفزوة دوم محضر
يا فتاح يا عليم المدد — يا مفيض النور على الوجود المدد
يا رسول الله غوثا ومدد — يا رسول الله عليك المعتمد
يا رسول الله فرج كربنا — ما رآك الكرب الا وشرد
يا رسول الله كن بنا شافعا — انت والله شفيع لا ترد
يا أبو بكر يا صديق المدد — يا عمر يا بن الخطاب المدد
يا عثمان يا ابن عفان المدد — يا امام علي المدد
يا أربعين يا متدركين المدد — يا أربعة اقطاب يا سلاطين المدد
ياسيد احمد الرفاعي المدد — يا أحمد البدوي المدد
ياعبد القادر الجيلاني المدد — ياابراهيم الدسوقي المدد
اهل المدد بالمدد — ادركونا يارجال الله بالمدد

الى ان قال :

شيخ العواجز — ابا اسماعيل مالي حال
ياسعي القسوم — نظره للمريد بالحال

محبـــوبـــك ينـــاديكـــــا    ياشيـخ جـاكـير انا بالحـــال
أدرك مـجبـــــــــــك اذا    ناداك سيـــــــدي بـالحـــال

وقال الشيخ راوية هذا الشعر ، عند ختام الكلام تظهر اشارة نورية في نظر منشد الشعر فيفهم منها ان قد اذن له بان يامر بالخوارق ، فياخذ المستمعون من الحاضرين بطعن انفسهم بالسلاح . واليك صورة صادقة لما شاهدناه وكنا جمهورا ، فلا سبيل الى الشك بصدق نظرنا وقد اجمعنا عليه .

سكت الشيخ وعاد المغنون الى غنائهم ، والى ضرب المزاهر الى ان صار احدهم ، وهو في وسطهم ، يصفع المزهر صفعا بكفه ثم رماه بعيدا فوقع بالقرب من المجمرة وكاد يقلبها على الحصير . لكن الشرارات طارت منها واثرت في الحصير المفروش في وسط الدار. ثم انقلب الرجل المذكور على وجهه مختبطا بنوبة عظيمة اشبه بنوبة من أصيب بالساعة فارتعش الناس واعتبر المغنون ان الوحي قد حل على الرجل ، وخارت قواه . فقام الشيخ وامر يد ، على وجهه وصار يقول له : « وحد الله وحد الله » الى ان هدىء الرجل وعاد الى موضعه ، وعاد المغنون الى غنائهم . لكن تلك الحادثة كانت اشارة للجماعة ان المدد قد حضر لكي ياتوا بالمخرقات .

فقاموا واحضروا اسياخا من حديد وقطعا حديدية وغيرها ودسوها بالمجمرة حتى حميت واحمرت اطرافها فاخذها الشيخ وصار يلحسها بلسانه . وقام منشد جميل الصوت ينشد ويعيد القصيدة التي كان الشيخ سبق وتلاها . وفيما هو ينشد قام الشيخ ودخل غرفة مظلمة ومعه الرجل الذي كان قد هبط عليه الوحي واعترته الهزة العصبية ، وصار الشيخ من داخل الغرفة يرفع صوته مناجيا الشيخ جاكير . وما مضت دقائق عشر الا خرج ومعه الرجل وفي بطنه مجتاز سيخ الحديد . فصوره احد الحاضرين مستعملا نور المغنيزيوم. وكان غيره من الرجل يضع الحديد المحمرة في فمه . وغيره يغرس دبوسا في خده .. ونحن ننظر مستغربين الاعمال والاحوال .

وكان بين الجماعة الافرنج من حضروا تلك المشاهد اطباء فتحققوا اكيدا ان السيف دخل من الخصر وخرج من الخصر ولم يجر معه دم .

وقالوا ان من غرسوا تلك الاسلحة في جسمهم كانوا في حالة هستيرية لم يشعروا فيها بالالم ولم يصابوا بمقتل . ولاحاجة الى التماس علل خارج الطبيعة لتعليل هذه الظاهرات وامثالها المستعملة من المشعوذين .

واهل باب الشرب يخافون الحلف كذبا بالشيخ جاكير لئلا تصيبهم نقمته ولهم في هذا الصدد اخبار ( انتهى كلام توتل ) .

وقد ساهمت حفلات الذكر في نظم الشعر الركيك المعبر عن الجمود والتخلف السائدين وفي تطوير بعض الوان الموسيقى والغناء الملائمة للمستوى الفكري المتدني للمغنين والملحنين والمستمعين على حد سواء . وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوط بعنوان « بلوغ المنى في تراجم اهل الفنا » لجامعه الكنجي المتوفى حوالي ١١٥٠ هـ ـ ١٧٣٧م . ترجم الكنجي لستة وعشرين مغنيا من معاصريه منهم المؤذن والمنشد في الاذكار والمغني على الالات ؛ والمخطوط وماتضمنه من اشعار معظمها لكبار المتصوفة وموشحات « ضاهت نجوم الافلاك » ـ حسب تعبير الكنجي ـ اعطى صورة حقيقية لذلك اللون من الوان الثقافة الشعبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد ادت تلك الالوان الثقافية ـ على الرغم من تخلفها ـ دورا مهما في تسلية العامة والترويح عنها ونسيانها لهمومها ومشكلاتها المزمنة . ويلاحظ ذلك من خلال الاوصاف ؛ التي اطلقها جامع المخطوط على المغنين . فهو يصف محمد صفا بن فخر الدين بانه « رئيس المقامات السعدية ونسيب السادة الخلوتية . كعبة الادب وركن السرور والطرب .. متقن صناعة الانشاد اي اتقان ومحرك باناشيده الارواح والابدان » . ويصف مغنيا آخر هو علي بن العالمة بانه « زهرة رياض النشاط وغدير بستان اللهو والانبساط » .

ويلاحظ ان معظم ماقيل من شعر كان في الخمرة ، التي اتخذت معنى صوفيا خاصا انشده المنشدون وهم في نشوة العوالم الروحانية . ومن الشعر الصوفي في الخمرة هذه الابيات :

شاهدت تلك الكؤس تجلى — بين ربى الجزع والمصلى
وقد اديرت على الندامى — قد استظلوا الكروم ظلا
في الحان خمارها ينادي — اهلا بمن جاءنا وسهلا
شربتها من اصيل نجد — تكرما منهم وفضلا

## ٢ ـ الخلوة واستحضار الجن :

وفي حي فرلق بحلب عاش في القرن التاسع عشر الشيخ يوسف الشريف . وقد استقى « توتل » اخباره من ابنه ، الذي كان في الثلاثينات لايزال على قيد الحياة . وذكر الابن (٢٧) « ان اباه كان له طريقة يتصل فيها بالجن ، ويسخرهم في خدمته ، ويهم يشفي المرضى ويقضي حوائج من قصده من الناس بحاجة ... وكان يلبس اللون الاصفر اللبادي البني ، ويضع على رأسه « العرف » وهي عمامة ضخمة ثقيلة لونها اصفر بني . وجمع الشيخ يوسف مالا وافرا « بتسخيره الجن » في قضاء حوائج الناس . وكانت له طريقة ليستحضر الجن ، وهذه هي كما ذكرها ابن الشيخ يوسف :

بسم الله الرحمن الرحيم

كيفية الخلوة : تدخل الخلوة يوم الثلاثاء عند صلاة الفجر ويكون بخورك عندك ، وتقرأ الدعاء بعد كل صلاة مفروضة عدد ٧٢ مرة . وفي اليوم الاول تسمع نهيق الحمار . وفي اليوم الثاني تسمع جري خيل على السطح ، وفي اليوم الثالث يدخل عليك ثلاث قطاط احمر وابيض واسود ، ويحضرون من صدر الخلوة . وفي اليوم الرابع يدخل عليك خادم من النور فلا تخف ولاتفزع ولا تقطع البخور حتى يقول : السلام عليك ياولي الله . فقل له : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فيقول لك : ماتريد منا ياولي الله ؟ فقل له : ما أريد منك الا خادما يخدمني ما بقي من عمري . فيقول لك : خذ هذا الخاتم الذهب منقوش فيه اسم الله الاعظم . هذا ميثاق بيني وبينك فاذا اردت حضوري اجعل الخاتم بيدك اليمنى ، واقرأ الدعوة ثلاث . ثم تقول : يا ملك كندياس اجبني بحضورك في كل ما تريد وتطلب هذا مع التوكل على الله ، وهذا الدعاء المبارك :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللهم اني اسالك واتوسل اليك يا الله ... اسالك الله ان تسخر لي خدام هذه الاية العظيمة والدعوة المنيفة يكون لي عونا على قضاء حوائجي هيلا هيلا جولا جولا ملكا ملكا يامن لايتصرف في ملكه الابما شاء وسع كرسيه السماوات والارض فسخر لي عبدك كندياس حتى يكلمني في حال يقظتي ويعينني في جميع حوائجي يامن لاياوده حفظهما وهو العلي

العظيم ياحميد يامجيد ياباعث ياشهيد ياحق يأوكيل يافوي يامتين كن لي عونا على قضاء حوائجي بالف الف لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم .

اقسمت عليك ايها السيد كنذياس اجبني انت وخدامك وأعني في جميع اموري بحق ما تعتقدونه من العظمة والكبرياء وبحق هذه الاية العظيمة وبسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

## ٣ ــ الاوراد :

كان لمشايخ الطرق أوراد وتسابيح تحمي حافظها او قائلها من نائبات الدهر . وفي وقت خضع فيه الانسان خضوعا شبه كامل للطبيعة وعواملها ، كان لا بد له من غذاء روحي يفرج كربته ويشحذ عزيمته ويلطف جو الحياة القاسية الخشنة المحيطة به .

وفيما يلي دعاء ذكره المؤرخ البديري (( وخاصيته لهجوم المخاوف في السفر والحضر))(٢٩):

(( بسم الله الرحمن الرحيم . لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم . بسم الله الخالق ، القائل الاكبر ، حرز لكل خائف ، لا طاقة لمخلوق ، مع الله عز وجل ، اللهم اني في حماك وتحت لوائك ، فارحم حماك وانشر علينا لواءك ، واكشف عنا بلاءك الخارج من ارضك ، والنازل من سمائك ، مطشين، فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم )) .

## ٤ ــ دمشق والاساطير :

بعد ان فقدت دمشق مركزها السياسي كان لابد لمن يهمهم استعادة جزء من مكانة دمشق ، من اضفاء القدسية عليها . وسرعان ما صارت رابع الاماكن المقدسة بعد مكة والمدينة والقدس . وبما أن للجبال اثرا كبيرا في التاريخ الديني للشعوب ، لهذا استنجد المستنجدون بجبل قاسيون وأحاطوه بالاساطير حول مايشتمل مـن الاماكن المقدسة . فمنذ ( ٩٥٣ هـ ) كتب محمد بن طولون الصالحي صفحة رائعة عن تاريخ دمشق وخاصة (( الصالحية )) ، التي عمرت بعد هجرة قسم من عرب فلسطين من بني قدامة المقدسيين في عصر نور الدين محمود . ومنذ ذلك التاريخ ايام الحروب الصليبية قامت الاديرة والمساجد والمدارس والمكتبات والكتاتيب والقبـاب والمآذن ومعامل الورق والحمامات

والبساتين ، التي يرويها نهرا يزيد وثورة ، وجاء بناء جامع الشيخ محي الدين بن العربي في عهد السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧ ليضفي على الصالحية لونا قدسيا .(٢٠) .

تروي الاساطير ان آدم أبا البشر سكن في سفحه الادنى . وفي اعلاه قتل قابيل اخاه هابيل فتح الجبل فاه لفظاعة هذا العمل ، يريد ان يبتلع القاتل ، واخذ الجبل يبكي وتسيل دموعه حزنا على هابيل ، وبقي لون الدم على صفحة الصخرة التي قتل عليها هابيل ظاهرا باديا . وفي كهف جبريل جاءت الملائكة الى آدم تعزيه بابنه هابيل . وفي شرقي قاسيون كان مولد ابراهيم الخليل عليه السلام ، وفي غربه الربوة التي أوى اليها المسيح وامه عليهما السلام ، وقرب الربوة في النيرب ( محلة كانت عامرة اهلة بالسكان تلي الربوة من جهة دمشق . والنيرب كلمة سريانية معناها الوادي ) كان مسكن حنة أم مريم جدة المسيح(٢١) .

وكان كثير من أهالي دمشق لهم مصلحة في اشاعة الاخبار عن هذه الاماكن والتحدث عن فضائلها ليجذبوا الناس اليها . ولم يتوانوا عن انتحال الاحاديث عن الرسول حول أهمية قاسيون ودمشق . ولم يكن لفت الانظار الى اماكن معينة وتشويق الناس الى زيارتها مقتصرا على دمشق ، بل هو ظاهرة عرفتها القرون الوسطى ولا تزال اثارها حتى يومنا هذا .

وفي المكتبة الظاهرية بدمشق مخطوط لابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفى ١١٠٣ هـ بعنوان « حدايق الانعـام في فضايل الشام » مكرس لتبيان فضائل الشام اعتمادا على التراث . فالباب الثاني من المخطوط « في بيان الآيات الواردة في فضائلها الوفية وذكر تفاسيرها وفوايدها البهية »(٢٢) . وقد فسر المؤلف كثيرا من الآيات القرآنية بما يدعم مواقع الشام الروحية والاقتصادية والسياسية . أما الباب الثالث فهو شرح « فيما ورد في فضلها من الاحاديث النبوية والاخبار المحمدية »(٢٣) . والباب الرابع فيما جاء في فضل الشام من كلام السلف وبدايع التحف . أما الباب السادس والاخير فيتضمن « ذكر من مات في بلدة دمشق من الانبياء والصحابة والاعلام » .

## ٥ ــ الجو الروحي السائد في الاوساط المسيحية :

لم يكن الجو الفكري في الاوساط المسيحية يختلف عنه في الاوساط المسلمة قبل منتصف القرن التاسع عشر . فالمجتمع الاقطاعي الشرقي ورديفه المجتمع الحرفي في المدينة

أفرز « فكرا متخلفا جامدا مهترئا » بين المسلمين والمسيحيين . ولكن اتصال بعض الاوساط المسيحية باوروبا البورجوازية ، دفع بهذه الاوساط الى اخذ بعض مظاهر التفكير البورجوازي وطرح بعض مخلفات العصور الوسطى . ولهذا فان الاجواء المسيحية تنشقت بصورة مبكرة ، ما يعادل ربع قرن تقريبا ، بعض نسائم التقدم الاجتماعي والفكري ، التي تاخر دخولها الى الاوساط المسلمة . ويخطىء من يظن أن الاوساط المسيحية لم تكن تعتقد بالاساطير والخرافات والاوهام ، قبل منتصف القرن التاسع عشر . فالجميع كانوا على مستوى واحد من التخلف الفكري والجمود والاعتقاد بالخزعبلات . ولنترك الآن بعض المؤرخين المسيحيين يروون نتفا من روحانيات المسيحيين في ذلك الزمن .

ننقل فيما يلي الكلام الحرفي ، مع أخطائه اللغوية ، كما رواه المؤرخ المسيحي الكاهن الدمشقي بريك في هذا المجال :

« وفي هذه السنة ( ١٧٤٧ م ) نظرنا عجب في مدينة دمشق بان امراة حبلى وقبلما تلد بشهرين بكى الولد في بطنها وسمع أولاد الدار بكاء الولد في جوفها وفي حين ولادتها ولدت ذكرا وعاش ثمانية أشهر ومات »(٢٤)

« في سنة ١٧٤٩ انطفت ( أي راودها عن نفسها ـ المؤلف ) امراة مسيحية من رجل ساحر امهي وكتب لها أوراق فدخل فيها الشيطان وعدمت عقلها وجابوها الى الكنيسة بجنزير حديد وأمر المطران أن يوضعوها في كنيسة مار نقولا وأمرنا ان نصلي لها نحن الكهنة ، وكنا في العدد ثمانية عشر ومن جملتهم الفقير كاتبه وكان الشيطان يخاطبنا من فمها واستقامت مدة أيام وتعافت قليلا وطلع الشيطان ، فيما بعد تعافت كاملا ثم كان زوجها قد توفي في مدة مرضها وأخيرا تزوجت وجاها أولاد »(٢٥) .

« خبر مفيد للصبر وبه تعزية لمن يقع بامراة شريرة خبيثة . في هذه السنة ( ١٧٥٠ ) توفي احد كهنة دمشق وفي ليلة دفنه في آخر الليل اجتاز على المقبرة رجال محملين تبنا فنظروا فوق قبر ذلك الكاهن عمود نار ممتد من السما الى فوق ذلك القبر وسمعوا أصوات وتنغيم أدهشتهم وشموا رايحة زكية عظيمة ، ولما دخلوا المدينة اخبروا بذلك ، فبحثنا عن الامر وكيف صار هذا فوجدنا أنه كان له امراة خبيثة وشريرة وهو صابر عليها وشاكر الله تعالى فعرفنا أن الله تعالى منحه هذه النعمة من أجل صبره واحتماله لان الله لا يضيع أجر الصابرين »(٢٦) .

ومن هذه النوادر ما رواه المعلم المسيحي الحلبي نعوم البحاش في ايار ١٨٦٠ عن سفر الضرير شكر الله حمصي وبرفقته بعض اقربائه الى جبل لبنان لظهور قديس هناك يشفي الناس من العمى والبكم . كما راجت شائعة اخرى في حلب عن ظهور قديس قسيس موراني في لبنان « عمال يظهر عجائب هكذا قالوا »(٢٧) .

ولكن الاوساط المسيحية التي اخذت في الاتصال بالحضارة البورجوازية الاوروبية اخذت تشك في صحة قسم من الخرافات والخزعبلات السائدة . فقد جاء في دفتر وقائع دير الآباء اليسوعيين في حلب في ١٦ أيار ١٨٨٢ ما يلي : « عشية كسوف الشمس . الخوف يعم البلد خشية حدوث الزلزلة . عبثا حاولنا تهدئة الناس مفسرين لهم أسباب ظاهرة الكسوف الفلكية فلا يصدقوننا بل ينقادون الى أقوال احد الشيوخ المسلمين المنذر بالزلزلة . فهجر اناس كثيرون بيوتهم وخرجوا الى البرية وضربوا خياما وناموا تحتها واقبلوا على الاعترافات والمناولات اقبالا عظيما ... خشية وقوع الاجل »(٢٨) .

## ٦ ـ تسلية العامة وفروسيتها



ان أخبار العامة وأفراحها الممزوجة باحزانها ولهوها وحياتها الدينية والقومية ، ان جاز التعبير ، متناثرة في كتب معاصري ذلك الزمن ، فالاستماع الى الحكواتي يتلو قصة عنتر أو الزير أو علي الزيبق ونيروز شاه ... الخ ، وحضور روايات خيال الظل ولعب الضومينو او الضاما أو الطاولة او الكاب ودك وعمي عميش ، والسماع الى نوبة آجق باش او قطرميز ، وشرب التتن في الغليون أو التنباك في النارجيلة مع القهوة في المقاهي او في البيوت ، والتفرج على مواكب الوالي وكبار الحكام ، أو مواكب الطرق الصوفية وتظاهراتها بما عرف بـ « السيارة » ، وحضور الاعراس والاشتراك في عراضاتها ، ومشاهدة ألعاب الفروسية .. كانت من السمات الروحية لذلك العصر .

كانت مواكب المشايخ أصحاب الطرق ومؤيديهم ومريديهم لزيارة الاضرحة المعروفة لمشاهير الزهاد والاولياء في ايام معينة من السنة احدى التسليات المهمة للعامة . وهذه المواكب المعروفة بالسيارات كانت تبعث الرضى والاطمئنان في قلوب المشاركين فيها . وكان ترتيب موكب السيارة كما وصفها العلاف كما يلي(٢٩) : تقوم طائفة من المريدين لشيخ الطريقة الصوفية بالسير في المقدمة صفوفا مؤلفة من خمسة أشخاص او اكثر يلبسون

طواقي ملونة بالاخضر والاحمر وعليهم أردية مثلها غالبا ووظيفتهم أثناء السير أن يذكروا الله في سيرهم جهرا . وخلف هؤلاء يسير حملة المزاهر وهي نوع من الدفوف تعلي صوتا بالقرع عليها ، يقرعونها بلطف وترتيب وهم يسيرون ايضا صفوفا وبينهم حامل اللواء الكبير ( السيارة ) له أطراف تنتهي بقطع من الحبال الرفيعة يمسك باطرافهـا بعض المريدين المتوزعين على مسافة من حامـل اللواء لمساعدته في نشر اللواء وعـدم عبث الرياح به . وبعدهم يأتي حامل الطبل الكبير وضارب الخليلية ، وهي عبارة عن صفحتين من النحاس ، يتبع الايقاع عليها حسب ضربات الطبل ، او أن الطبل يتبع ضرباتها . ثم يأتي شيخ الطريقة راكبا على فرس ولابسا عمامة شيوخه الاوائل ، التي ورثها عنهم ، وحوله عدد من المريدين حاملين اعلاما صغيرة كتبت عليها بعض الآيات القرآنية ، كما أن العلم الكبير ملون بقطع مختلفة كتبت عليها ايضا الآيات الكريمة . وخلفهم فئة المريدين الشباب يحملون نقارات صغيرة يضربون عليها . وخلف هؤلاء بقية المريدين والمشتركين من بقية رجال الطرق.

هذا الموكب المعروف بـ « السيارة » ينطلق من مقر زاوية الشيخ ، التي تقام فيها حفلات الذكر وتدرس فيها تعاليم الطريقة الصوفية ، متوجها الى أقرب الاضرحة ثم الى ضريح اشهر مشايخ الطرق من أولياء الله ، حيث يزداد التهليل والتكبير ، واخيرا يعود الموكب الى مقره .



وكثيرا ما تجري مراسيم « الدوسة » في أثناء الموكب حيث ينكفىء الرجال من العامة على وجوههم جنبا الى جنب ويسير الشيخ بفرسه فوق ظهورهم وسط التكبير والتهليل وهم لا يشعرون بشيء . واذا احس أحدهم بالم وجهر بمشاعره فيتهم في ايمانه ، ولذلك لا يتجاسر على الاعلان عن المه اذا شعر به .

ان مواكب « السيارات » ذات جـذور صوفية ، ولكننا أدرجناها في باب تسلية العامة والترويح عن همومها ، لان هـذه احدى نتائجها الرئيسية . بالاضافة الى ذلك وجدت تسليات مهمة أخرى ، وفي مقدمتها العاب الفروسية .

ومن الالعاب المشهورة في ذلك العصر لعبة السيف والترس ، التي تبدأ حبية مسالمة وتتحول في بعض الاحيان الى خصام دموي بين اللاعبين ، واحيانا بين المتفرجين الذين ينضمون الى أحد اللاعبين . ولهذه اللعبـة مراسم خاصة لا يمارسها الا من تخرج من

مدرسة اللعبة حيث يلبس قنبازا حريريا يسمى بالطابة وشملة ، وذلك بعد حفلة خاصة تقرأ فيها الفاتحة والمناداة بصحائف(*) النبي والعشرة المبشرين بالجنة والاسد الكرار علي بن أبي طالب ، ابن عم النبي المختار ، وفاتح الشام أبو عبيدة بن الجراح ، وسيف الاسلام خالد بن الوليد . ثم ينادى بصحائف أشهر الشخصيات الحاضرة ووجهاء الاحياء(٤٠) .

ومع ألعاب الفروسية العملية هذه كانت العامة تعيش مع الفروسية في الخيال عن طريق روايات الفروسية مثل : سيرة عنتر ، وقصة الملك الظاهر ، وقصة أبي زيد الهلالي والزير أبي ليلى المهلهل . وكان رواة هذه القصص ذوي خبرة في اثارة مشاعر العامة والهاب خيالها وارضاء طموحها . وهذا ما قامت به أيضا وبصورة افضل لعبة « خيال الظل » أو « كراكوز » ، التي تضمنت نقدا لاذعا وتهكما صارخا ضد السلطة العثمانية ومؤسساتها(٤١) . ويذكر كرد علي أن « خيال الظل » كان من أشد العوامل تأثيرا في تهذيب الاخلاق وتقويمها ، بما يلقيه أساتذة هذا الفن المشهور على ألسن تلك الخيالات من المواعظ الاخلاقية ، بعبارات ملؤها النقد . وكانوا يصورون في كلامهم العادات السيئة المتفشية في المجتمع ويتناولونها بالتجريح بصورة تنفر منها النفوس . كما صوروا ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وأغلاطهم ، في صور نقد لطيف(٤٢) . وفي الحقيقة لم تكن سائر تمثيليات خيال الظل من المستوى الرفيع ، بل ان بعض هذه التمثيليات كان من النوع الرديء المليء ، كما ذكر جرجي زيدان ، بالفحش وسوء الادب(٤٣) . وهو بذلك يمثل مشاعر أحط فئات المجتمع من العامة الرثة ، في حين عبرت تمثيليات خيال الظل الجيدة عن مشاعر العامة وتطلعاتها الى العيش بهناء وسرور واحتشام .

وكان الاحتفال بالاعراس أحد مظاهر تسلية العامة والترويح عن نفسها . ومن العادات المتبعة آنذاك عادة « تهريب » العريس أو العروس وحجبها لفترة من الزمن عن الانظار ، دفعا للاصابة بالعين ، فيختبىء ويعود . ويقول الفار انه يختفي لئلا يغار منه ملك الجان فيؤذيه . وقد تكون علة هذه الخرافات انهم ، في أيام الفوضى تلك ، كانوا يخافون على العروس لئلا يفتك بها أحد الظالمين من الآغوات الانكشارية ، فيحجبون مظاهر العرس

(*) المقصود بالصحائف هو طلب الاذن مع اعلان الخضوع للنبي والعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم .

عن الانظار . وبالطبع اذا كانت العروس بارعة الجمال فان الخوف يزداد عليها . وحجب العروس لم يكن سببه دائما الخوف من الظالين ، بل الخوف من ملوك الجان(٤٤) ، الذين يفتتنون بالجمال ويراودون العروس عن نفسها .

## ٧ ـ الحمامات وقصصها :

اشتهرت المدن السورية بحماماتها ، التي تعدت مهمتها الاساسية وهي الاغتسال ، الى ارضاء حاجة نفسية كانت ضرورية في ذلك العهد . فالحمامات كانت أشبه بنواد رياضية ومجتمعات تبادل فيها الناس مختلف الاحاديث. وقد قام الاستاذ منير كيال بتاليف كتاب عن الحمامات الدمشقية وتقاليدها تضمن بعضا من الاقاصيص والحوادث الخارقة، التي تخرج في معظم الاحيان عن نطاق العقل والمنطق . ويسعى مؤلف كتاب الحمامات الى توضيح سرعة تصديق الانسان في الحمام للاقاصيص الخارقة بحيث يصبح آلة مسيرة لاشباح وكوابيس لايعي من امرها الا الخوف منها ، ويدفعه هذا الخوف الى حالات هيستيرية تستبد به ، وتجعل الرؤى الغريبة تتداعى في مخيلته على اشكال وهمية مجسمة تدفعه الى تصورات اشد غرابة ، فيعاني المرء حالات مزاجية خاصة لاتجعل الحياة جديرة بان تعاش الا من خلال رقى سحرية .. يقوم باعدادها اناس وقفوا حياتهم لها .. وكنتيجة حتمية تتالف في رأس المرء افكار يرويها على شكل اساطير يعتقد انه رآها بام عينه وعاشها بنفسه (٤٥) .

ومع صحة تحليل الكيال الا انه اغفل الامر الاهم وهو طبيعة المجتمع الحرفي الرديف للمجتمع الاقطاعي الشرقي ، الذي خلق الاجواء والظروف لانتعاش هذه الميثولوجيا وتصديق الناس لها دون محاكمة او تمعن . وكانت هذه الاقاصيص الخارقة طريقا لهروب الناس من واقعهم الاليم الرتيب القاسي .

## ٨ ـ السيران والمرأة :

كان « السيران » في ذلك العهد جزءا من حياة الناس . ووجد في دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جمعيات مهنية غايتها تنظيم التسلية والنزهات لابناء الصنعة وفي اثناء خروجهم للسيران يركبون الخيول والرهاوين ، والمتوسطو الحال يركبون الحمير

من هليبية وقبرصية وقروية (٤٦) . والسيران الى الحقول والبساتين كانت بمثابة تفريج عن كربة الناس ونسيان همومهم واحزانهم وسط الهرج والمرج اللذين يسودان السيران .

اقتصر السيران على الرجال احيانا ، وخالطته النساء احيانا اخرى لاسيما في اوقات الامان والهدوء . ولكن منع النساء من السيران كان معروفا في القرن الثامن عشر . ومن الطبيعي ان تبادر نساء النصارى الى اغتنام الفرص والانطلاق من جحيم البيت الى الحرية في البساتين وعلى ضفاف الانهر . ولنترك المؤرخ المسيحي الدمشقي بريك يصف لنا سيران النساء وموقفه منه ، وتعليله لمنع النساء من الخروج ، وذلك في عهد الوالي اسعد باشا في منتصف القرن الثامن عشر ، الذي عرف بتساهله وتسامحه مع الذميين ، كتب بريك(٤٧): «وأما نسا النصارى الدمشقيين غشهم الشيطان وزافوا وتعدوا الحدود بملابسهم وعصباتهم المسماة كبرلية (*) ، الله لايكبرهم ، وخصوصا بشربهم التتن في البيوت والحمامات والبساتين حتى على النهورة والناس مجتازة... حتى على طول المدة ما بقي مدخرة ولا مخبية بل الجميع زافوا وتعدوا الحدود ... تحنن عليهم ربنا واعتقهم قليلا من العبودية والظلم والمظالم القديمة فغرهم الشيطان بل غروا انفسهم ، وهم آكلو الحصرم ورجالهم ضرسوا . وبالحق نقول ان لاشر ولاظلم الا وسببه النساء ... » وبعد ذهاب اسعد باشا أجبر الوالي الجديد النساء على البقاء في البيوت ، وجرى اضطهاد للرجال ، وحول ذلك يقول بريك: « أعادهم الى الذل القديم والظلم الشديد وأذل رجالهن » .

ويبدو ان الضغط الزائد على النساء وحجزهن في البيوت يدفع بهن الى الانطلاق بصورة عنيفة عند حصولهن على نصيب من الحرية أو عندما تتيح لهن الظروف ذلك ومصداق على ذلك ماكتبه المعلم الحلبي نعوم البخاش سنة ١٨٦٣ عندما حل الجراد في منطقة حلب وخرج الرجال « نصارة واسلام ويهود وفرنج ورؤساء » في ٢٠ نيسان ١٨٦٢ لجمع الجراد ، فاغتنمت النساء الفرصة وخرجن يتجولن في الازقة « بلا غطا » مستفيدات من غياب الرجال (٤٨) .

وكانت المرأة عامة والحسناء خاصة لاتتجاسر على الخروج من بيتها دون حارس يحرسها،

---

(*) زاف الرجل في مشيه اذا تبختر او مشى باسترخاء والعصبات الكبرلية نسبة الى بيت الكبرلي من الاتراك .

واذا لم يوجد الحارس فتضطر الى ارتداء الملابس الرثة وتحني ظهرها في اثناء السير ليظن من يراها انها حيزبون (٤٩) .

والوثيقة رقم ٥٥ من اضبارة المطران يوسف مطر الموجودة في دار الاسقفية المارونية في حلب تذكر اتفاقا جري بين الطوائف المسيحية منع فيه على النساء لبس القنابيز «واللائي لهن قنابيز من سابق يخيطوهن تخييطا محكما » . كما نهى الاتفاق النساء نهيا صارما « بان لاتخرج ولا واحدة من النساء الى الازقة بالقديمات والتواسيم حتى ولو كان في المحلات القريبة لان هذا من شانه يضاد الاحتشام المداني فضلا عن الاحتشام المسيحي » (٥٠) .

فاذا كان هذا شأن المراة المسيحية التي تمتعت بقسط ما من الحرية ، فكيف كان حال المراة المسلمة ؟ ان التضييق على حرية المرأة وحجزها في البيوت كان من الثمار المرةلذلك العهـد .

## ٩ ــ السمرمر ومكافحة الجراد :

السمرمر نوع من الطير كان الناس يعتقدون انه يفتك بالجراد ، فكانوا يحرصون على الاتيان به اذا نزل الجراد بارضهم ، ــ ولكنه في اعتقادهم ــ لا يأتي الا تابعا نوعا خاصا من الماء يجلب خصيصا من عين بين اصفهان وشيراز . فاذا نزل الجراد بارض جلب اليها من تلك العين ماء، على أن لا يضيع حامل الماءذلك الماء على الارض ولا يلتفت الى الخلف،فيبقى طير السمرمر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء الى ان يصل الى الارض التي بها الجراد ، فتقع الطيور عليه وتقتله . وقيل ان من الصفات التي يجب أن تتوفر في حامل الماء ان يكون من اهل الصلاح ، ولايمر به تحت سقف ، فان فعل بطل مفعوله (٥١) .

ومع ان ماء السمرمر لم يثمر في مكافحة الجراد، الا ان المدة اللازمة لجلب الماء ووضعه في الاماكن المرتفعة كانت تبعث في العامة ، الخائفة من ضرر الجراد ، الامل في الخلاص من هذه الافة الطبيعية وتحثهم بالاضافة الى ذلك على جمعه ودفنه او احراقه .

والشماس بولس الحلبي يروي لنا كيف أتوا في سنة ١٦٤٣ الى حلب بماء السمرمر من بلاد العجم لمكافحة الجراد حسب الاسلوب القديم . واصعد الماء بوقاية من فوق مقام الشيخ ابي بكر لانه مرصود ولايجوز مروره تحت سقف او عتبة . وخرج للقائه اهالي حلب

المسلمون يهللون والنصارى يرتلون باللغة الرومية ثم اليهود . وكانوا جميعا حول سور المدينة بأحسن نظام الى ان اتوا بماء السمرمر وعلقوه عند باب المقام . ثم تناولوه بانائه النحاسي من فوق الباب وساروا به الى القلعة ومن الاناء كذلك من فوق بابها حيث علقوا الاناء النحاسي المليء بماء السمرمر تحت رفراف المئذنة من غير ان يمروا به تحت اعتابها لكي لايبطل طلسمه وتزول منفعته . وعندما فقس الجراد كانوا يحركون ذلك الوعاء المليء بماء السمرمر المرصود . وحالا اتى طير السمرمر بأعداد غزيرة ، وهو طير اسود حجمه بحجم العصفور واخذ ياكل الجراد . ومع ذلك لم يستطع هذا الطير ان يقضي على الجراد مما دفع الوالي الى اجبار الفلاحين وأهل المدينة على جمعه في اكياس ورميه في بئر مقابل القلعة (٥٢) .

ويروي البديري في احداث عام ١٧٤٥ نبأ ارسال اسعد باشا « رجلين من اهل الخبرة يأتونه بماء السمرمر » بعد ان اكل الجراد كل شيء . وفي الوقت نفسه اجبر الوالي اهل القرى والضياع على جمعه ودفنه . ثم انتشرت الاخبار والاشاعات في دمشق « بأن الطير المسمى بالسمرمر قد جاء ومر على قرية عدرا وضمير ، وأتلف من الجراد شيئا كثيرا . ففرحت أهل البلاد سيما اهل الشام . فخرجت اهل الصالحية ومعهم المشايخ والتفالبة والنساء والرجال والاطفال بالبكاء والعويل والتضرع الى الله تعالى بدفع هذا البلاء ورفع الغلاء ، ثم زينت أهل دمشق فرحا بدخول السمرمر احسن زينة » (٥٣) .



ولكن ذلك لم يات بنتيجة وبقي الجراد يتكاثر وياكل الاخضر واليابس . ويرجع البديري اسباب هذا البلاء الى « ازدياد الفجور والفسق والغرور والغلاء والشرور » (٥٤) .

ومن اجل دفع البلاء هذا خرج الشيخ ابراهيم الجباوي شيخ الطريقة الصوفية المعروفة بالسعدية او الجباوية « ومعه التفالبة (*) بالاعلام والطبول وقصدوا زيارة السيدة زينب ، واستغاثوا عندها بكشف البلاء عن العباد ، ورجعوا آخر النهار ، ثم داروا حول مدينة دمشق ، ومروا أمام باب السرايا وعملوا دوشة . وصار حال عظيم وبكاء شديد » والناس تدعو « بهلاك الجراد ورفع البلاء . وبعد يومين جاءت اهل الميدان بطبول وأعلام

(*) التفالبة جماعة ممن يحضرون الاحتفالات الدينية يدقون الطبول ويهللون وهم من الصوفية .

وحال وصريخ ، وقصدوا جامع المصلى بالدعاء برفع الجراد وهلاكه . ويقولون : يا من له المراد في كل ما أراد ، بالمصطفى الحبيب فرج عن البلاد » (٥٥) .

ويقول البديري ان كل ذلك لم يفد شيئا ، « وكيف يفيد ذلك وأكثر النساء قد باحت وبنات الهوى الخاطئات دائرات ليلا نهارا بالازقة والاسواق ، ومعهم الدالاتية ( فرقة من العسكر ، والفساق ... ولا آمر بمعروف ولا نهي عن المنكر والصالح في هم وكرب ، والفاجر الطالح منقلب في لذيذ النعم ، اللهم فرج آمين »(٥٦) .

## ١٠ ــ الشيخ رسلان :

مسجده معروف في ظاهر دمشق الى الشرق . عاش ايام الحروب الصليبية وبقي تأثيره الروحي قرونا عديدة مخيما في سماء دمشق وغوطتها ، الى درجة ان الدولة لم تستطيع الاستيلاء على اي متر مربع من « حرم الشيخ رسلان » كما تسميه العامة . والطريق الرئيسي الذي يربط شمالي سورية بجنوبها يسير في منعطف حاد قرب الجامع والقبور الملاصقة له احتراما لهذا المقام وماحوله من قبور الاولياء .



والكتب القديمة تشير الى الشيخ ارسلان وكراماته وسننقل منها ماكتبه ابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفي سنة ١١٠٣هـ . جاء في المخطوط : (٥٧)

« الشيخ ارسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن الجعبري من قلعة جعبر ثم الدمشقي . وارسلان معناه بالتركية اسد كما افصح به ابن صدقة في شرح رسالته كان رضي الله عنه زاهدا عابدا قدوة من أكابر مشايخ الشام وأعيانها العارفين صاحب انفاس صادقةوكرامات خارقة معتقد أهل الشام من كل خاص وعام . وقد ظهر صيت كراماته في الآفاق والبلدان . واتفقت على ولايته واعتقاده جميع أهل الملل والنحل والاديان . ورسالته المشهورةالمشتملة ( الاصل المشملة ) على الاسرار الالهية والمعارف الربانية مفصحة بعلو شانه ورسوخ قدمه في علومه وعرفانه . وقد شرحها جمع من المحققين والعلماء العارفين منهم شيخنا واستاذنا قدوة العارفين الشيخ عبد الغني النابلسي أطال الله بقاه وأدام بالنفع ارتقاه . وقد صحب الشيخ ارسلان شيخه المعروف بابي عامر وانتفع به وكان في ابتدائه ينشر الخشب ويقسم اجرته ثلثا لنفسه وثلثا يتصدق به وثلثا لكسوته . وكان يتعبد في مسجد صغير جوار بيته

داخل باب توما وهو المعروف الان بمقامه وحفر بئره بيده وكان الناس يشربون منه لبركته ولم يزل الى الان . ومن حصل له وجع في جوفه او الم وشرب منه عوفي باذن الله وهو مجرب . وفي هذا المكان كان ينشر الخشب وكلمه المنشار وفي المرة الثالثة تقطع ثلاث قطع وقال باارسلان مالهذا خلقت . فترك العمل ويقال انه اعطى قطعة من المنشار الى السلطان نور الدين ولما احتضر اوصى ان تجعل في كفنه . وقد وسع نور الدين هذا المسجد وبنى له منارة ووقف عليه ... ثم ان الشيخ ارسلان خرج الى ظاهر باب توما الى مسجد خالد بن الوليد الذي كان يحاصر دمشق فيه وعمره وجلس يتعبد الله فيه الى ان مات .

ومن مناقبه انه لما شرع في بنايه (اي بناء الجامع) أرسل اليه أبو البيان ذهبا لعمارته فقال الشيخ لرسوله اما يستحي شيخك يبعث لي ذهبا وفي عباد الله من اذا اشار الى ماحوله صار ذهبا وفضة واشار بيده فرأى الرسول الطين صار ذهبا وفضة .



ومن مناقبه ماذكره ابن صدقه في شرحه على رسالة الشيخ ارسلان انه نزل يوما الى نهر يتوضا ومعه خادمه فساله الخادم كرامة فقال ان لله رجالا لو امر احدهم هذا النهر ان يجري ذهبا لجرى فالتفت الخادم الى النهر فاذا هو ذهب .

وكان يوما عند الجسر الابيض يتوضا واذا بنصراني معه بغل عليه حمل خمر فوقع وليس احد يحمل معه فصعد الشيخ وحمل معه فذهب النصراني الى دكان الخمار ففتح الحمل فاذا هو حل فبكى وقال والله ما كان الا خمرا واني اعرف العلة ثم ربط البغل وعاد الى الشيخ فوجده قد صلى الظهر فدخل عليه واسلم وصار من فقرايه .

وروي عن العارف محمود الشيباني انه رآه سائرا في الهوى ( الصحيح الهواء ) . قال ورايته غير مرة مارا على الماء . وحججت معه واجتمعت به في عرفه ثم رايته في جميع المشاهد ثم فقدته . فلما جئت دمشق وجدته مقيما بها فسألت عنه فقالوا غاب عنا يوم عرفة . ورايته جالسا والاسد يتمرغ على قدميه وهو مستغرق في حالة لايلوي على الاسد... ولما توفي روي عنه كرامات وفيه ( اي وافية كثيرة ) منها ان الطيور عكفت على جنازته ومنها ان السباع والوحوش حملت الريحان ووضعته على قبره ومنها ان الدعاء عند قبره مستجاب » .

## الحواشـــي

(١) الباودي فخري : « مذكرات البارودي » دمشق ١٩٥١ ج ١ ، ص ٥٨ .

(٢) قساطلي نعمان : « كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » بيروت ١٨٧٩ ، ص٩٢.

(٣) حول الصوفية راجع : « صليبا جميل » : « المعجم الفلسفي » المجلد الاول ص ٢٨٢ .. قاموس مابر الحديث . المجلد الثالث . مادة الصوفية .. فروخ عمر « تاريخ الفكر العربي الى ابن خلدون » بيروت ١٩٦٦ . العوا عادل : « التصوف » في : « الفكر الفلسفي في مائة سنة » بيروت ١٩٦٢ .

(٤) صباغ ليلى : « المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني » دمشق ١٩٧٣ . ص ١٨٤ .

(٥) الطويل توفيق : « التصوف في مصر ابان العصر العثماني » القاهرة ١٩٤٦.ص١٠٩

(٦) حول الطرق الصوفية راجع : الزركلي خير الدين : « الاعلام » عدة مجلدات . كرد علي محمد : « خطط الشام » الجزء السادس ، ص ٢٧٦ : حاضر العالم الاسلامي : تاليف لوثروب ستودار وترجمة عجاج نويهض : القاهرة ١٣٥٢ هـ ، المجلد ٢ ، ص ٣٤٩ . الشطي محمل جميل : « اعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر » دمشق ١٩٤٦ . مردم بك خليل : « أعيان القرن الثالث عشر » دمشق . دائرة المعارف الاسلامية عدة مجلدات . المحبي : « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » ج ١ ص ٣٢ ، ج ٢ ص ٢٠٨ .



(٧) من كتب ابو الهدى الصيادي المطبوعة : « كتاب الطريقة الرفاعية » تاليف الوارث النبوي ... السيد محمد أبو الهدى آفندي ثم الرفاعي الصيادي لازال ينسخ سواد الجهل ببيض الابادي آمين » مصر ١٣٢٥ . و « كتاب العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية » تاليف الامام شيخ الطريقة ، ومعدن السلوك والحقيقة ، الجامع بين الرياستين، السالك على سنن جده سيد الكونين ... » اصطنبول ١٣٠١ .

(٨) مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٢٢ ، ص ٢٠٦ .

(٩) الشطي محمد جميل « اعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر » ص ٢٨٠ .

(١٠) قساطلي نعمان : « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » بيروت ١٨٧٩ . ٨٧ .

(١١) كرد علي محمد : « خطط الشام » دمشق ١٩٢٨ . ج ٦ ص ١٦٥ .

(١٢) انظر وصفا حيا شيقا لهذه الكتاتيب في « مذكرات البارودي » ص ٨ – ١٠ وكان هناك عدد من النساء يعلمن القرآن الكريم ويطلق عليهن اسم « الخجا » وهي مستقاة من كلمة « خواجه » التركية ومعناها المعلم . وكانت « الفلقة » الوسيلة « التربوية » الوحيدة للتعليم . ويقول البارودي ان الكتاتيب لم تكن الا زرائب لحبس الاطفال في النهار حتى ترتاح أمهاتهم منهم . أما معلمو الكتاتيب فكانوا من اشباه المتعلمين ممن أغلقت في وجوههم أبواب الرزق فتسلطوا على هذه الصنعة للارتزاق واشتهروا بالفظاظة والشراسة .

(١٣) كرد علي محمد « خطط الشام » ص ٨٩ .

(١٤) « مذكرات البارودي » ص ١١ .

(١٥) استقينا معظم المعلومات غير المشار اليها عن الجزائري من : الباني محمد سعيد : « تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر » مطبعة الحكومة العربية السورية ، دمشق ١٩٢٠ ، ص ٧٢ – ٧٥ .

(١٦) هذا ما رواه حفيده يوسف القنيمي ، أثناء احد اللقاءات معه .

(١٧) من أمثال رفيق العظم ، محمد كرد علي ، فارس الخوري ، عبد الرحمن الزهراوي ، شكري العسلي ، عبد الوهاب الانكليزي ، عبد الرحمن الشهبندر ، وسليم الجزائري ، وغيرهم . القاسمي ظافر . « جمال الدين القاسمي » دمشق ١٩٦٥ ، ص ٤٤١ . وهذا ما اكده محمد كرد علي في كتابه « كنوز الاجداد » ، دمشق ١٩٥٠ ص ٥–٤٦ .

(١٨) حول حياة الكواكبي راجع : قلعجي قدري : « عبد الرحمن الكواكبي » ، بيروت ١٩٦٣ . عمارة محمد : « مسلمون ثوار » القاهرة ١٩٧٢ . موسى منير : « الفكر العربي في العصر الحديث » بيروت ١٩٧٣ .

(١٩) الكواكبي عبد الرحمن : «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» . مصر ١٩٢١، ص ٤ .

(٢٠) المصدر السابق نفسه .

(٢١) المصدر السابق نفسه ، ص ١١ .

(٢٢) هذه رواية شاهد العيان فخري البارودي في مذكراته ص ٧١ . كما ايد الرواية الحصني محمد اديب : « منتخبات التواريخ لدمشق » ج ٢ دمشق ١٩٢٧ .

(٢٣) موسى منير « الفكر العربي في العصر الحديث » ص ٣٤ .

(٢٤) المصدر السابق نفسه ـ ص ٣١ وما يليها .

(٢٥) كتاب « مشهد الاحوال » في حوزة المكتبة الظاهرية بدمشق .

(٢٦) موسى منير « الفكر العربي في العصر الحديث » ص ٤٣ ما يليها .

(٢٧) هذه المعلومات استقيناها من : « احمد حلمي العلاف » : « دمشق في مطلع القرن العشرين » دمشق ١٩٧٦ . ص ١٢٤ ـ ١٢٩ .

(٢٦) توتل فردينان : ص ٣٦ ـ ٢٧ .

(٢٧) هذه المعلومات استقيناها من : « أحمد حلمي العلاف » : « دمشق في مطلع الظاهرية بدمشق برقم ٦٧٦ .



(٢٨) توتل ... ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢٩) البديري أحمد ( الحلاق ) : « حوادث دمشق اليومية » ١١٥٤ ـ ١١٧٥ هـ ، ١٧٤١ ـ ١٧٦٢ م ، جمعها الشيخ أحمد البديري الحلاق ، نقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي . وقف على تحقيقها ونشرها دكتور أحمد عزت عبد الكريم . القاهرة ١٩٥٩ . ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٣٠) دهمان محمد احمد : « جبل قاسيون » مكتب الدراسات الاسلامية في دمشق . دمشق ١٣٦٥ ـ ١٩٤٦ ، ص ٢ .

(٣١) المصدر السابق نفسه ـ ص ٣ . والحصني في كتابه « منتخبات التواريخ » يذكر ان جبل قاسيون « مستقات الانبياء ، وموضع الحاجات ، والدعاء فيه مستجاب من غير شك ولا ارتياب » ص ٥ . ويذكر الحصني اسماء مغائر قاسيون مثل مغارة الدم ومغارة الجوع ، التي مات بها اربعون نبيا من الجوع . وعند باب المغارة قبران من قبور الصحابة . والدعاء مستجاب هناك . ص ٥ .

اما كرد علي ، احد ممثلي الاتجاه الاسلامي المستنير فكتب في مجلة المجمع العلمي العربي ٦ : ٢١٦ ، بان قاسيون اعتبر في عهود الانحطاط موطن الانبياء .. ورد عبارة

« قاسيون والشرافات » مؤكدا أن « الاسلام بريء من هذه النزعات » .

(٣٢) جاء في هذا الباب : « ومما يدل على فضل الشام وسرفها وان الله تعالى بارك فيها وما حولها قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله . قال الحافظ السهيلي في كتابه التعريف والاعلام الذي باركنا حوله يعني الشام والشام بالسريانية الطيب فسميت بذلك لطيبها وخصبها » . ابن عبد الرزاق الدمشقي : « حدايق الانعام في فضايل الشام » مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ( عام ٧٣ ) ، ص ٢١ .

(٣٣) « فمنها ما أخرجه الامام السيوطي في جامعه الصغير من قوله صلى الله عليه وسلم الشام صفوة الله في بلاده اليها يجتبى ( أي يجتمع – ع . ح . ) صفوته من عباده . فمن خرج من الشام الى غيرها فبسخطه ومن دخلها من غيرها فبرحمته » . المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩ .

(٣٤) بريك مخائيل الدمشقي : « تاريخ الشام ١٧٢٠ – ١٧٨٢ » عني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة الخوري قسطنطين الباشا المخلصي . مطبعة القديس بولس في حريصا لبنان ١٩٢٠ . نقلا عن النسخة الموجودة في برلين تحت رقم ١٩٧٨٦ . ص ٢٣ .

(٣٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٢ .

(٣٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧ .

(٣٧) المشرق – نيسان – حزيران ١٩٣٨ ، ص ٢٤٦ .

(٣٨) المشرق – تشرين الاول – كانون الاول ١٩٣٨ ، ص ٤٨٠ .

(٣٩) العلاف ... ص ١٢٩ – ١٣٢ .

(٤٠) « مذكرات البارودي » ص ٤٦ – ٥٠ .

(٤١) مجلة العمران ، السنة الثانية ، العدد ٢ .

(٤٢) كرد علي محمد « خطط الشام » جـ ٦ ، ص ٢٧٩ .

(٤٣) مذكرات جرجي زيدان ، نشرها د. صلاح الدين المنجد . بيروت ١٩٦٨ . ص ٢١ .

(٤٤) ملوك الجان السبعة الاحمر والاخضر والاصفر والازرق والابيض والاسودوالابلق. ومن اجلهم سموا « سبع ملوك » القماش الملون بهذه الالوان . انظر حاشية توتل . المشرق تشرين الثاني ١٩٣٨ . ص ٤٩١ .

(٤٥) كيال منير « الحمامات الدمشقية وتقاليدها » دمشق ١٩٦٤ ص ٢٢٢ .

(٤٦) « مذكرات البارودي » .ه ص ٤٤ . وقد اشار البديري في مذكراته في منتصف القرن الثامن عشر أكثر من مرة الى السيران والسرور الذي يعم المشاركين فيه .

(٤٧) بريك ميخائيل الدمشقي « تاريخ الشام » ص ٦٣ .

(٤٨) المشرق — كانون الثاني — آذار ١٩٣٩ ، ص ٥٥ .

(٤٩) قساطلي ... ص ٨٧ .

(٥٠) المشرق — نيسان — حزيران ١٩٣٨ ، ص ٢٥٦ .

(٥١) عبد الكريم احمد عزت حاشية ص ٧٣ من كتاب البديري نقلا عن المرادي جـ ٢ ص ٢١٤ والغزي جـ ٣/ص ١٣٠ .



(٥٢) نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبي بقلم ولده الشماس بولس عني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ١٩١٢ ، ص ١٥ .

(٥٣) البديري احمد « حوادث دمشق اليومية » ص ٩٠ .

(٥٤) المصدر السابق نفسه .

(٥٥) المصدر السابق نفسه .

(٥٦) المصدر السشابق نفسه ، ص ٩٣ .

(٥٧) ابن عبد الرزاق الدمشقي : « حدايق الانعام في فضايل الشام » مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ص ١٨٠ — ١٨٢ .

# الأمية والتقدم الحضاري

سميح عيسى



مما لا شك فيه أن الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة ـ من خلال انجازاتها وتطبيقاتها ـ ساعدت الدول المتقدمة على رفع مستواها التعليمي والحضاري ، بل خلقت عند هذه الدول الحوافز الايجابية والخطط العلمية الموضوعية للارتقاء بالمستوى التعليمي العام للسكان ، وذلك برفع الحد الادنى للتعليم ( عشر سنوات على الاقل ) ، وبالسعي ليكون التعليم العالي للمجتمع الحد الادنى الضروري للحياة وللعمل في السنوات المتبقية من القرن العشرين وفي السنوات القادمة من بداية القرن الواحد والعشرين .

أما الدول النامية والاقل نماء فلا تزال تعاني من تخلف علمي وتعليمي كبير ، ولا تزال الامية بنوعيها الابجدي والحضاري تشكل نسبة عالية فيها ، حيث تشمل أكثر من ٧٠٪ من السكان .. هؤلاء الذين يجدون أنفسهم محرومين من المعرفة ، كما يجدون انفسهم محرومين من التزود بوسائل العمل المنتج الخلاق ومن فهم معظم كلمات لغتهم ، وهذا ما يحرمهم من حق الاسهام اسهاما فعالا في عمليات التنمية الشاملة التي يعتبر الانسان موضوعها بدءا ونهاية ووسيلة وغاية ، ولا يؤهلهم لقطع الطريق من التخلف الى التقدم بسرعة وبموضوعية تمشيا مع روح العصر وجوهر الحضارة المعاصرة والمستقبلية .

وتشير احصاءات اليونسكو الرسمية في هذا المجال الى أن نسبة الاميين ( ذكورا واناثا ) ممن هم فوق سن الخامسة عشرة من العمر ومن مجموع عدد السكان عام ١٩٦٠ لم تتجاوز الـ ٢ر٥٪ في الدول المتقدمة .. وعلى سبيل المثال ، في أمريكا الشمالية ٤ر٢٪ وفي أوربا والاتحاد السوفييتي ٢ر٥٪ .

بينما بلغت تلك النسبة أوجها لدى الدول النامية ، ففي الدول الافريقية بلغت نسبة الامية عام ١٩٦٠ ( ٨١٪ ) وفي الاقطار العربية ١ر٨١٪ .

والجدول التالي رقم ( ١ ) يبين بوضوح نسبة الامية ـ أيضا ـ في المناطق المختلفة في العالم موزعة حسب الجنس والسن ( ١٥ سنة فاكثر ) عام ١٩٧٠ :

## الجدول رقم ( ١ )

نسبة الامية في مناطق العالم حسب الجنس والسن ( ١٥ سنة فاكثر )(*)
عـــام ١٩٧٠

| مناطق العالم | نسبة الامية بين الذكور ٪ | نسبة الامية بين الاناث ٪ | المجموع |
|---|---|---|---|
| أوربا والاتحاد السوفييتي | ٢ر٤ | ٧ر٤ | ٢ر٦ |
| امريكا الشمالية | ١ر١ | ٩ر١ | ٥ر١ |
| افريقيـــا | ٦٣ر٤ | ٨٣ر٧ | ٧٣ر٧ |
| الوطن العربي | ٦٠ر٥ | ٨٥ر٧ | ٧٣ |
| آســـيا | ٢٧ | ٥٦ر٧ | ٤٦ر٥ |
| أمريكا اللاتينيـــة | ١٩ر٩ | ٢٧ر٣ | ٢٣ر٦ |
| أوقيانوســـية | ٨ر٨ | ١١ر٩ | ١٠ر٣ |
| المجمـــوع | ٢٨ر١٠ | ٤٠ر٢ | ٣٤ر٢ |

ان نظرة سريعة الى الجدول رقم ١ والى البيانات الخاصة بحجم الامية في العالم تبين أن هناك علاقة ارتباط سالبة بين الامية وبين مستوى التنمية وأبعادها على مستوى مناطق العـالم .

ففي أوربا والاتحاد السوفييتي لم تتعد نسبة الامية عام ١٩٧٠ ( ٢ر٦٪ ) وفي امريكا الشمالية ٥ر١٪ من مجموع السكان .

(*) المصدر : استراتيجية مقترحة لمحو الامية في الوطن العربي ـ سرس الليان ـ ١٩٧٥ ص ١٢٠ .

بينما ترتفع هذه النسبة في دول امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا والوطن العربي ارتفاعا كبيرا خاصة اذا ما ادركنا ان تلك الاحصاءات الخاصة بهذه الدول النامية احصاءات متفائلة تنقصها الدقة الكاملة لعدم اتباع الطرق والاساليب للاحصائية العلمية والموضوعية بشكل متكامل .

ورغم ذلك ، ففي الوقت الذي تكاد الدول المتقدمة أن تقضي على آخر معقل من معاقل الامية فيها بل تتجاوز مشكلة الامية ، تبين تقديرات عام ١٩٧٠ أنه في الدول النامية يوجد رجل واحد فقط من بين كل اربعة رجال « ممن تزيد أعمارهم على ١٥ سنة » يستطيع ان يقرأ ويكتب .. الحالة التي ساهمت ولا تزال تساهم في التفاوت المخيف في النمو الحضاري بين الدول المتقدمة والدول النامية ، وفي اتساع وتعميق الهوة بينهما على جميع الاصعدة .

كما تبين تلك التقديرات أن الامية في الدول النامية تنتشر بين الاناث اكثر منها بين الذكور ، وتختلف اختلافا كبيرا وفقا للنشاط الاقتصادي والتوزيع السكاني .

فمن الحقائق المعروفة في هذا المجال بالاستناد الى مجموعة من الدراسات الخاصة بالامية ومشكلاتها – أيضا – أن الامية تنتشر بين سكان الارياف أكثر منها بين سكان المدن ، وتنخفض بين العاملين في قطاعات الصناعة وترتفع بين العاملين في الزراعة .

وبشكل عام يمكن أن نقول : ان هنالك علاقة كبيرة بين خارطة الامية وخارطة التقدم والمدنية ، ففي المناطق التي تزدهر فيها المدنية وتنتشر الصناعة تقل نسبة الامية . وفي المناطق التي تسود فيها الصناعات التقليدية والزراعة والرعي ترتفع نسبة الامية .

وعلى الرغم من نمو وانتشار العلم والتعليم والثقافة في العالم ، ورغم تزايد الوعي بخطورة مشكلة الامية في الدول النامية ، فان الجهود التي تبذل للقضاء عليها – في هذه الدول – ما زالت بعيدة عن تحقيق الهدف ، ويبدو ان الامية لن تشهد مصرعها في نهاية القرن العشرين ، وستبقى عبئا ثقيلا في الدول النامية ، يعيق تحقيق اهدافها المباشرة وغير المباشرة في مشروعاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتكاملة ، وستبقى أيضا هما كبيرا من هموم الحضارة في العالم عامة ، وفي الدول المتقدمة المستفيدة من منجزات وتطبيقات الثورة العلمية التكنولوجية على وجه الخصوص .

ولعل اهم العوامل التي حالت في الماضي ــ ولا تزال ــ دون القضاء على الامية وادت الى ازدياد أعداد الاميين كما هو واضح في الاحصاءات والبيانات السابقة هي :

١ ــ سيطرة الاستعمار ــ باشكاله القديمة والحديثة ، وبالوانه واغراضه المتعددة الجوانب والابعاد ــ على الدول النامية ( الاستعمار الاستيطاني ــ الاستعمار الاقتصادي والسياسي .. الخ ) فترة طويلة من الزمن ، لعب خلالها دورا كبيرا ــ ولا يزال ــ في وضع هذه الدول ضمن دائرة التخلف وفي الابقاء على الامية ، وتعاظم حجمها وآثارها ومنعكساتها الخطيرة على مشروعات التنمية والتقدم .

فالمستعمر لم يوجد اصلا الا لامتلاك قدرات وثروات وطاقات هذه الدول ، واتباع مختلف أساليب القمع والقهر والارهاب ، الى جانب الديمقراطية الزائفة الهادفة الى تحقيق مآربه ، وايجاد الخلل وعدم التوازن الاجتماعي والاقتصادي والقومي والثقافي ، ليبقى في موقع السيطرة والتحكم ، آخذا صفة الثقة الحريص على رأب الصدع .



وقد بقي يعمل جاهدا على حجب العلم والمعرفة والحرية عن شعوبها ، ويوطد قواعد التخلف واركانه بنشر الجهل والفقر والمرض ، هذا الثالوث الذي من خلاله تسلس قيادة الجماهير ويسهل استغلالها وامتصاص قواها وبعثرة طاقاتها وامكاناتها ونهب ثرواتها .

كما حارب بكل قوة وشراسة جميع التنظيمات الوطنية والتقدمية والجمعيات العلمية والتعليمية والاجتماعية العاملة من اجل مصلحة الجماهير واسترداد الحقوق المغتصبة ، ومن اجل نشر الوعي والمعرفة والعلم والتعليم للقضاء على كل العقبات التي تعترض طريق التحرر والتقدم ، ومن بينها الجهل وقرائنه المتمثلة بحجم الامية الكبير ، وبمجموعة التقاليد والاعراف والعادات الضارة البالية ، المساعدة على استمرار الجمود الفكري والتخلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وامتداد سيطرة المستعمر .

وقد يكون الاستعمار مسؤولا ــ كما ذكرت ــ عن وجود الامية وتعاظم مشكلاتها في الدول النامية ، ولكن هذا لا يبرىء من المسؤولية ــ أيضا ــ انظمة الحكم غير الوطنية والتقدمية ، التي جاءت بعد رحيل المستعمر ، والتي تعتبر الصورة الاخرى المطابقة تماما لصورة المستعمر باساليبه وطرقه واهدافه ومخططاته .

هنا ربما يقول قائل : ان تلك الانظمة قد فتحت مجال العلم والتعليم والمعرفة ، بافتتاح المدارس على جميع المستويات ، وعملت جاهدة للقضاء على الامية ، ولكن المعروف والثابت ، أن الابواب كانت ضيقة ، وكان العلم والتعليم ـ ايضا ـ وقفا على ابناء الطبقة الغنية اكثر من غيرها . وكان التوسع في انتشار المدارس ليس الا تظاهرة تقف وراءها مجموعة ضخمة من الصعوبات والمعوقات ـ المادية والاجتماعية والسياسية ـ في طريق تعليم أبناء الاكثرية العظمى من المواطنين ( العمال والفلاحين ) ... كما أن خطط محو الامية واساليبها وبرامجها كانت تظاهرة دعائية فارغة ساعدت على انتشار الامية عوضا عن مكافحتها والحد منها ، باتباع الاساليب والطرق العلمية والموضوعية .

وان دل هذا على شيء ، فانما يدل ان الامية تعتبر من العوامل الاساسية في حفاظ الانظمة غير الوطنية او التقدمية على كياناتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفوقية، فبعض الدول المتقدمة عندما عبرت بوابة القرن العشرين ، ووجدت نفسها مثقلة بالامية ومشكلاتها ، استطاعت القضاء عليها خلال فترة زمنية محددة والقفز في طريق التقدم الى أبعد مدى .



وعلى سبيل المثال ، فان الاتحاد السوفييتي أثناء الحرب الاهلية وخلال الحرب العالمية الاولى ، أعلن أيضا الحرب على الامية في جميع قطاعات المجتمع ، حتى لقد كانوا يعلقون على ذيل الحصان الذي يحمل الفارس المقاتل سبورة ورقية عليها الحروف الابجدية بخطوط كبيرة ، وكان الجندي المعلم يرفع الحربة ويشير الى الحروف ، ويسأل الجندي الامي : ما هذا الحرف ؟!

كما أن الولايات المتحدة الامريكية ، عندما اكتشفت خلال الحرب العالمية الاولى ان بعض الجنود لا يعرفون قراءة الاوامر والتعليمات ـ وكان عددهم حوالي المليون ـ سارعت القيادات في القوات المسلحة الى محو أمية الجنود ، ولم تسمح بتسريح واحد منهم الا اذا تعلم القراءة والكتابة ، لما للامية من اثر كبير في عدم تحقيق النصر الكامل ، ولكونها من اسباب التخلف والهزيمة . واستطاعت بذلك محو امية الكثير من الجنود خلال الحرب .

اما كوبا التي عانت طويلا من الاستعمار الامريكي ومن عملائه ( نظام باتستا ) ، فقد

اعلنت الحرب الخاطفة المركزة على التخلف عامة ، وعلى الامية على وجه الخصوص عقب انتصار ثورتها الكبرى بقيادة الرئيس كاسترو عام ١٩٥٩ .

وقد بدأ العمل الجاد والفعال في ميدان محو الامية في أيلول عام ١٩٦٠ ، عندما أعلن الرئيس الكوبي للعالم اجمع في أول حديث امام الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٦ أيلول عام ١٩٦٠ « ان الامية ستزول نهائيا من كوبا في نهاية عام ١٩٦١ » . وبالفعل فقد انتهت حملة محو الامية في ٢٢ كانون أول عام ١٩٦١ بتظاهرة ضخمة تجمعت في ميدان الثورة بهافانا تحت قيادة الرئيس فيدل كاسترو ومعه قادة الثورة ورجال الحكومة وممثلو السلك الدبلوماسي ، وارتفع العلم الذي يرمز الى نجاح حملة محو الامية عاليا وشامخا يعلن للعالم اجمع ان كوبا هي أول دولة من دول امريكا اللاتينية تقضي على الامية في اقل من عامين . وقد هبطت نسبة الامية فيها من ٣٠٪ الى اقل من ٤٪ ، الامر الذي وضع كوبا ـ من هذه الناحية ـ في مصاف الدول المتقدمة ، كالاتحاد السوفيتي وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا .

وهاهي فيتنام التي خرجت من الحرب المدمرة مع امريكا وعملائها ، وهي مثقلة بالاعباء الكبيرة ، وبالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة ، تعمل جاهدة في اطار خطة علمية ثورية متكاملة للقضاء على الامية بين مواطنيها ، خلال فترة زمنية محددة ، وجنبا الى جنب مع عمليات البناء والعمران الاقتصادي والاجتماعي ، واستطاعت خلال فترة بسيطة انتحقق المعجزات لتقف ايضا في مصاف الدول المتقدمة في العالم في هذا الميدان .

٢ ـ ومن العوامل الرئيسية التي حالت ـ ولاتزال تحول ـ دون القضاء على الامية ، وتساهم في زيادة أعداد الاميين في الدول النامية ، عدم تطبيق الزامية التعليم الابتدائي لاستيعاب جميع الاطفال الذين هم في سن الالزام ، ولامتصاص سيل الامية الجديد الذي يتجلى في أعداد الاطفال الكبيرة الذين هم خارج المدارس .

ورغم ان جميع الدول النامية ـ تقريبا ـ قد رفعت شعار مبدأ الالزام ، وحق كل طفل في التعليم الابتدائي ـ منذ منتصف الخمسينات ـ وأكدته جميع التشريعات والمؤتمرات الخاصة بذلك ، بقي هذا الالزام حبرا على ورق ، ولم تول الحكومات المتعاقبة القضية الاهتمام اللازم لتذليل الصعوبات والمشكلات الاجتماعية او الاقتصادية او الجغرافية التي

تقف عقبة كبيرة امام الطرف الاخر صاحب المصلحة الحقيقية في تطبيق مبدأ الالزام ( اولياء الاطفال ) .

وتشير الاحصاءات في هذا المجال الى أن المرحلة الابتدائية في الدول النامية عامة تستوعب أقل من ٧٠٪ من مجموع الاطفال الذين هم في سن التعليم الابتدائي .. وعلى سبيل المثال : بلغت نسبة الاستيعاب في المنطقة العربية ( وهي من المناطق النامية ) عام ١٩٦٠ حوالي ( ٤٨٪ ) وفي عام ١٩٦٥ ( ٥٩٪ ) وفي عام ١٩٧٠ ( ٦٢٪ ) (١) .

وتختلف نسبة الاستيعاب من قطر الى آخر ، وتختلف أيضا اختلافا كبيرا داخل القطر نفسه بين سكان الريف وسكان الحضر ، وبين الذكور والاناث ، مما يشير الى وجود اختلافات في عدالة توزيع الفرص التعليمية - رغم قصورها - بين أفراد المجتمع الواحد . وتبين تلك الاحصاءات ايضا ان نمو معدل التسجيل في المرحلة الابتدائية في المنطقة العربية بلغ حدا أصبح معه المتوسط السنوي للزيادة يتمثل في ٧ر١٪ من جملة تعداد السكان في فئة العمر ٦ - ١١ سنة .



وبحسب نسبة الاستيعاب ونسبة نمو معدلات التسجيل السالفة الذكر ، لن يتحقق الاستيعاب الكامل للاطفال الذين هم في سن التعليم الابتدائي الالزامي في المرحلة الابتدائية الا عام ٢٠٢١ ، وربما يزداد الامر سوءا اذا اخذنا في الاعتبار ان عددا لايستهان به من التلاميذ في صفوف المرحلة الابتدائية يعيد الدراسة او يرسب أو يتسرب ، ومن لم ينغمس الى عالم الامية من جديد ، لاسيما اذا عاد هؤلاء التلاميذ الى بيئة أمية جاهلية ، وبذلك تزداد مشكلة الامية تعقيدا وخطورة .

وتبين بعض الدراسات التي أجريت في هذا المجال على بعض الدول النامية ( الاقطار العربية ) لمعرفة نسبة الاهدار أو الفاقد في التعليم الابتدائي ( ممثلة في الرسوب والتسرب والاعادة والانقطاع وسوء التحصيل ) ، نتائج مذهلة وخطيرة في عصر تتجه فيه الدول المتقدمة الى توفير التعليم العالي لمجتمعاتها كحد أدنى في نهاية هذا القرن .

(١) المصدر - استراتيجية مقترحة لمحو الامية في الوطن العربي سرس الليان ١٩٧٥ ص١٠٨

فمن بين كل ١٠٠٠ طفل يدخلون المدرسة الابتدائية في مصر - مثلا - يتخرج ٣٨٠ بعد ٦ سنوات ، وفي الجزائر ١٠١ بعد ست سنوات ايضا ، وفي ليبيا ٦٥ بعد ست سنوات ، وفي تونس ٧٠ بعد ست سنوات ، وفي المغرب ٩٢ بعد خمس سنوات ، وفي البحرين يتخرج ١٧٤ تلميذا من كل الف بعد ست سنوات ، وفي الاردن يتخرج ٤١٥ من كل ١٠٠٠ بعد ٦ سنوات وفي الكويت يتخرج ٢٢٠ تلميذا من المرحلة الابتدائية بعد ٤ سنوات دراسية ، وفي العراق يتخرج ١١٠ بعد ٦ سنوات ، وفي السودان يتخرج ١٦٠ من كل الف تلميذ يدخلون المدرسة الابتدائية (٢) ، وفي سورية بلغ المعدل الكلي للتسرب من المرحلة الابتدائية لعام ١٩٧١/٩٧٠ حوالي ٢٣٪ ، وبلغت معدلات الاعادة - نتيجة الرسوب - حوالي ٢٠٪ في جميع صفوف المرحلة الابتدائية ، وهذه النسب في الفاقد والاهدار مضافة الى انخفاض نسبة المقبولين في المرحلة الابتدائية ( عدم تطبيق الالزام ) ، تزيد من تفاقم مشكلة الامية وتطبعها بطابع التردي الكمي والنوعي .

ان معظم مشكلات التسرب والرسوب والانقطاع ترجع اساسا الى سوء نوعية التعليم في المرحلة الابتدائية ، سواء تمثل ذلك في نوعيات المعلمين والمدرسين واعدادهم وتدريبهم التدريب المناسب ، ام نوعية المناهج التعليمية المطبقة ، ومدى مسايرتها لمتطلبات العصر وحاجات التلاميذ النفسية والحاجات الوظيفية للبيئة ، ومدى تطوير التجهيزات والمباني والكتب المدرسية ، بالاضافة الى الظروف الاجتماعية والمعيشية والتربوية لـدى اسر التلاميذ .

كما ان مشكلة عدم تطبيق التعليم الالزامي في المرحلة الابتدائية بشكل جاد وفعال، هي في أساسها سوء في فهم الالزام ، وفي كيفية ومسؤولية تنفيذه من قبل الدولة والمواطن بالاضافة الى القصور في اتاحة وتوفير الامكانات المادية والفنية ، هذا القصور الذي يقابله في الوقت نفسه تزايد كبير في معدلات النمو السكاني يبلغ اكثر من ٣ ٪ سنويا في معظم الدول النامية ، ان لم يكن في جميعها ، وهذا فوق بكثير معدلات نمو التعليم الابتدائي والزاميته ، مما يزيد مشكلة التعليم والامية حدة وخطورة واتساعا .

٢ - واضافة الى ماسبق فان من العوامل المعوقة لحركة محو الامية في الدول النامية

(١) المصدر : استراتيجية مقترحة لمحو الامية في الوطن العربي-سرس الليان ١٩٧٥ ص١٠٨.

- ايضا - والمساعدة على ازدياد اعداد الاميين فيها : مراوحة الخطط والبرامج وأساليب محو الأمية - في هذه الدول - في المواقع التقليدية ، وعدم مواكبتها لجوهر التعليم العصري ولاهدافه ومرتكزاته ، وللمفهوم التطور الحضاري الذي يؤكد على تكامل التخطيط لمحو مع بقية الانشطة والخطط الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والتربوية ، ويرتقي أسلوب التنفيذ ، بتهيئة وتأمين الظروف والامكانات والوسائل الى مستوى الهدف المطلوب .

ويلاحظ ارتداد الاعداد الكبيرة من الراشدين المتحررين من الامية الى الامية من جديد بسبب عدم وجود الخطط الموضوعية والبرامج والمناهج الصحيحة لمتابعتهم وربطهم بحلقات التعليم الاخرى في المستويات الاعلى ، او لتحسين مجموعة المهارات والمعارف المكتسبة لديهم في المرحلة الاولى من مراحل التحرر من الامية ، بحيث يصبح الانسان الذي تعلم وتحرر من الامية قادرا على المشاركة الايجابية الفعالة في نشاط المجتمع « يقرأ الصحيفة والمجلة والكتاب ، ويحرر الرسائل ويشترك في الندوات والحلقات والمؤتمرات ، ويتصل بالاخرين من قريب او من بعيد اتصالا واعيا نافعا ، ويسهم في عمليات البناء والتحرر والتقدم بشكل جاد وفعال » .



كما يلاحظ في الوقت نفسه انخفاض في نسبة اعداد الدارسين في صفوف محو الامية اذا ماقورنت بنسبة الاميين في مختلف القطاعات ، بالاضافة الى عدم الجدية في معالجة مشكلة الامية بشكل عام والنظر اليها نظرة هامشية ، بل نظرة تعليمية تقليدية منعزلة تماما عن وجوهها الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والقومية ، مع ترك امر معالجتها للزمن وللروتين من جهة ، ولبعض القطاعات الرسمية ( وزارات - مؤسسات - ادارات ) من جهة أخرى ، رغم كونها مشكلة متكاملة ينبغي مواجهتها مواجهة شاملة ، وعلى اساس عريض من المساهمة الشعبية والرسمية ، وفق قواعد وأسس متطورة موضوعية ، تتمشى مع متطلبات وطموحات العصر الذي تنطلق فيه الثورة العلمية ألتكنولوجية لتاخذ كامل أبعادها على جميع الاصعدة ، بما فيها التعليم بمستوياته المتعددة ، وتتمشى أيضا مع نتائج تجارب الشعوب التي عانت من الامية طويلا وانتهت منها خلال فترة زمنية محددة بالاساليب العلمية الثورية الفعالة .

هنا ، ربما يقول قائل ايضا : « ان فقر معظم الدول النامية واستنزاف معظم دخلها

في توفير وسائل الدفاع ، للوقوف في وجه الخطر الامبريالي ومؤامرات الاستعمار وعملائه التي تنظم وتنفذ بين الحين والاخر عدوانا لاحتلال الاراضي واذلال الشعوب واستثمار الطاقات والامكانات وفرض حالة عدم الاستقرار ، جعلها تصرف النظر لفترة طويلة عن الظروف والعوامل الايجابية والاعتمادات المالية لمجابهة مشكلة الامية والقضاء عليها ، متذرعة بحجة تامين وسائل الدفاع من جهة ، وتحسين الانتاج وزيادته ونشر التعليم الابتدائي والتوسع في مراحل التعليم الاخرى ، وتدارك النقص الكبير في المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية والجامعية ، وفي المعاهد التدريبية المهنية والفنية » .

ربما يعتبر هذا القول ـ للوهلة الاولى ـ صحيحا الى حد ما ، ولكن السؤال بل التساؤلات التي تفرض نفسها هي :

ـ ترى هل لجات الدول التي عانت طويلا من مشكلة الامية ، ومن مشكلات التعليم والانتاج مع بداية هذا القرن ، وقبل بلوغها مصاف الدول المتقدمة الى اتباع الاساليب والطرق والوسائل نفسها التي تتبع حاليا في الدول النامية في عمليات القضاء على هذه المشكلات ؟!

ـ ثم هل استطاعت الدول النامية ، وبخاصة الدول الغنية منها ، ان تستوعب جميع الاطفال الذين في سن التعليم الابتدائي ، في مدارسها الابتدائية ، وان تحقق النجاحات المقبولة في نشر التعليم المتوسط والثانوي والمهني والجامعي في عصر بلغ فيه الانفجار العلمي والتعليمي حدا كبيرا ، واصبح فيه العلم ومجالات استثماره ، القاعدة الاساسية لكل تطور وتقدم ؟!

ـ وهل استطاعت الدول النامية ان تحقق أهدافها في مشروعات التنمية المتنوعة ، في الوقت الذي تبلغ فيه نسبة الامية اكثر من ٧٠٪ من مجموع سكان معظم هذه الدول ؟!

أعتقد أن تجارب الدول المتقدمة قد حدثتنا بالوقائع ان عمليات البناء والتحرر والتقدم هي عمليات متكاملة ومتحدة ، وأعطتنا ـ ايضا ـ مجموعة من الحقائق والبيانات ، التي تمت الاشارة الى بعضها سابقا ، والتي اكدت تجاوز كل الظروف والعوامل والطرق

والوسائل القائمة حاليا في الدول النامية في مجالات القضاء على الامية ، وعلى مشكلات التعليم والانتاج والتنمية .

وقد اكدت مجموعة البيانات والدراسات الخاصة بواقع التعليم والامية في الدول النامية ، عدم استطاعة هذه الدول بلوغ اهدافها التعليمية والتنموية مادام التعليم فيها يعجز عن استيعاب الاطفال في مرحلة التعليم الابتدائي ، ومادامت نوعية التعليم منخفضة في جميع المستويات اذا ماقورنت باحتياجات وطموحات هذه الدول وهذا العصر .

ولعل البيانات التالية الخاصة بواقع نسبة التسجيل التعليمي ونصيب التعليم من الدخل القومي ومن الموازنات والاعتمادات المالية ، وتكلفة التلميذ .. الخ ، تبين بكل وضوح مجموعة من المؤشرات الخطرة والتحديات الكبيرة التي لاتزال تفرض وجودها في ساحة الدول النامية :



ـ بلغت نسبة التسجيل التعليمي في مختلف المراحل ـ حاليا ـ في الدول المتقدمة حوالي ۹۰٪ مقابل ۳٦٪ في الدول النامية ، ففي الولايات المتحدة الامريكية تكاد تصل النسبة الى ۱۰۰٪ ، وفي المملكة المتحدة ۸۸٪ وفي فرنسا ۸۸٪ وفي الاتحاد السوفيتي ۹٥٪ . اما في افغانستان فالنسبة لاتتجاوز ۱۱٪ وفي اثيوبيا ۷٪ وفي السعودية ۱٥٪ وفي اليمن ٥٪ . وهذه الفروق بين مجموعتي الدول المتقدمة والنامية تعتبر مذهلة وخطرة .

ـ تشير بعض الدراسات الخاصة في حقل التعليم الاعدادي والثانوي في الوطن العربي ( وهو من المناطق النامية ) على انه لايزال اكثر من ۸۰٪ من الشباب بين سن الثانية عشرة والثامنة عشرة ، خارج المدارس المتوسطة والثانوية بانواعها المختلفة رغم الجهود الملحوظة التي بذلت منذ منتصف القرن الحالي للتوسع في التعليم المتوسط والثانوي . وقدارتفع عدد المقيدين في المستوى الثاني من التعليم ( الاعدادي والثانوي ) من ۰۰۰ر۲٥۷ر۱ سنة ۱۹٦۰ الى ۰۰۰ر۷۳٦ر۳ سنة ۱۹۷۱ ، اي بنسبة زيادة خلال الفترة كلها تصل الى ۲۹۷٪ وترتفع نسب غير المقيدين في المستوى الثاني من التعليم ـ بطبيعة الحال ـ بالنسبة لفئة

السن المقابلة في بعض الاقطار العربية لتصل الى ٩٠ ٪ في بعض الاقطار وتطيئك الى ٥٠ ٪ في اقطار أخرى (١) .

كما تختلف هذه النسب بين الذكور والاناث ، فهي لصالح الذكور أكثر منها لصالح الاناث .

ـ تعاني مرحلة التعليم الاعدادي والثانوي بشكل عام في الدول النامية ومنها أقطار الوطن العربي مشكلتين رئيسيتين :

المشكلة الاولى : تتمثل في وجود نسب عالية من الاهدار نتيجة الرسوب والتسرب، تختلف نسبتها من قطر الى آخر .

والمشكلة الثانية : تتمثل في عدم التوازن بين التعليم النظري الاكاديمي والتعليم الفني او المهني أو العملي . وتدل الارقام الخاصة بنمو التعليم في هذه المرحلة ( الاعدادية والثانوية ) ، خلال السنوات الاخيرة على اطراد انخفاض نسب المسجلين في التعليم المهني خلال الفترة من ١٩٦٠/١٩٦١ الى ١٩٦٧/١٩٦٨ ويوضح ذلك الجدول التالي رقم (٢) :



## الجدول رقم ٢

توزيع المقيدين في التعليم الاعدادي والثانوي حسب نوع التعليم في العالم وفي الوطن العربي

| نوع التعليم | في العالم | في الوطن العربي | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| | ١٩٧١ | ٦٠ ـ ٦١ | ٦٤ ـ ٦٥ | ٦٧ ـ ٦٨ | ١٩٧١ |
| عام | ٧٩ر٥ | ٨١ر٤ | ٨٢ر٥ | ٨٦ | ٨٦ر١ |
| فني ومهني | ١٨ر٩ | ١٥ر٢ | ١٢ر٦ | ١١ر١ | ١١ر٨ |
| تدريب | ١ر٦ | ٣ر٤ | ٣ر٩ | ٢ر٩ | ٢ر١ |
| المجموع | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ | ١٠٠ |

(١) المصدر السابق نفسه .

اما في التعليم العالي فقد بينت تلك الدراسات انخفاضا واضحا في نسبة المقيدين على صعيد الدول النامية ، رغم ماشهدته هذه الدول من تزايد كبير في عدد المقيدين في هذا المستوى من التعليم في السنوات الاخيرة ، وارتفاع في نوعيته . وقد لوحظ أيضا في مرحلة التعليم الجامعي وجود خلل كبير وعدم توازن بين التعليم النظري الاكاديمي والتعليم العلمي والعملي فاغلبية المقيدين في التعليم العالي يلتحقون بالتعليم النظري الاكاديمي . مما يؤثر تاثيرا كبيرا في مشروعات التنمية الاقتصادة والاجتماعية في تلك الدول .

وفي مجال الانفاق العام على تعليم الفرد بمراحله المختلفة ، والذي يحدد تحديدامباشرا نوعية التعليم ومدى انتشاره ، فقد بينت الاحصاءات الرسمية على ان الانفاق العام على تعليم الفرد في الدول النامية يتراوح من ٥ ـ ٢٥ دولارا مقابل ٣٠٠ ـ ٨٠٠ دولار في الدول المتقدمة (١) ..... ففي الولايات المتحدة بلغ الانفاق على التلميذ الواحد ٧٧١ دولارا ، وفي المانيا الغربية ٢٧٥ دولارا ، وفي فرنسا ٣٤١ دولارا ، اما في مصر فقد بلغ ٢٣ دولارا ، وفي نيجيريا ٥ دولارات وفي باكستان ٤ دولارات ، وفي اثيوبية دولارين .

هذه المعدلات المنخفضة في الدول النامية ، تشير بكل وضوح الى انها محرومة من التعليم أو تكاد ، في عصر الثورة العلمية التكنولوجية في عصر تجاوزت فيه الدول المتقدمة مشكلة تعميم التعليم والمفهوم التقليدي لاساليبه ، وطرائقه ومناهجه ، ووفرت للطلاب امتلاك واستثمار الاساليب والوسائل التقنية الحديثة عمليا في مختلف مراحل التعليم ، كما امنت بافتتاح معاهد تعليم الكبار ، استمرارية التعليم في كل المراحل السن للمواطنين من كل الفئات ، واتجهت الى جعل المدرسة الثانوية ـ بالذات ـ مؤسسة ثقافية عامة ، بديلة تماما عن المدرسة الابتدائية ، التي لاتزال قائمة بمشكلاتها المتنوعة في الدول النامية ، ففي بعض الدول ، « كالولايات المتحدة واليابان والسويد وفنلندا » توجد الان نسبة كبيرة من الفتيان تتراوح بين ٦٠ ـ ٩٠٪ من كل فئة من الاعمار تتلقى تعليما ثانويا ويتوقع ان يتم في السبعينات ـ ايضا ـ تعميم التعليم الثانوي في كل من الاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفي الثمانينات في فرنسا . ويتصور الاتحاد السوفييتي أن يتمكن في الثمانينات من قبول

(*) استراتيجية مقترحة لمحو الامية في الوطن العربي ـ سرس الليان ١٩٧٥ ص١١١ .
(١) مجلة « تعليم الجماهير » ـ أيلول سنة ١٩٧٧ ص ٦٩ .

٢٥٪ من الفتيان المنتمين لمختلف الاعمار في مؤسسات التعليم العالي ، واخيرا مكن القول: ان ظاهرة الامية في الدول النامية بشكل عام ، ونوعية التعليم وأساليبه وطرائقه ومناهجه واعتماداته وموازناته بشكل خاص ، تحتاج الى وقفة متأملة ودراسة دقيقة من قبل المخططين والمنظرين والباحثين والعاملين في حقل التربية والتعليم والتخطيط والاقتصاد والاجتماع والسياسة – في هذه الدول – بغرض ايجاد الحلول والعوامل والظروف والخطط العلمية الموضوعية المركزة ، للتغلب والقضاء على كل المعوقات والصعوبات واللحاق بركب الثورة العلمية المعاصرة ، والسير قدما وبسرعة بمجتمعاتها نحو الاهداف السامية ، المساعدة على اختصار الفجوة الكبرى القائمة بينها وبين الدول المتقدمة . خاصة بعد أن تمكنت الدول المتقدمة – منذ سنوات طويلة – من هدم الجدار العالي ، الذي كان يفصل التعليم من الحياة ، ويكرس اهداف التعليم التقليدي ، وبعد أن استطاعت الدول المتقدمة أن تحل محل ذلك الجدار – الذي لايزال قائما في معظم الدول النامية – التربية المستمرة والتعليم المستمر مدى الحياة ، وتنوع المدارس والمعاهد ، كالجامعات الشعبية والاكاديميات الجماهيرية والاشكال المختلفة للتعليم خارج المدارس التقليدية الرسمية ، واستخدام سلسلة كاملة من التجهيزات والمعدات التقنية ، من آلات التعليم القادرة على ارتجاع المعلومات الملقمة ، بالاضافة الى المختبرات اللغوية والالكترونية والادوات الاوتوماتيكية والقاعات الاختصاصية ، الى جانب وسائل الاتصال الحديثة ( راديو – تلفزيون في دائرة مغلقة – افلام وشفافات تعليمية – اشرطة تسجيل عادية او تلفزيونية .. الخ ) .

# اللغة والتحليل النفسي

عدنان بن ذريل

ساعدت الدراسة المقارنة للغات ، القديمة منها او الحديثة ، والتي لامم حضارية ، او امم بدائية ، في القرن المنصرم ، على ازدهار البحث النفسي ، والاجتماعي في اللغة ؛ فعمد علماء النفس ، والاجتماع ، والحضارة الى الكشف عن اللغة الانسانية ، ومراحل تطورها ، وأيضا عن القدرات النفسية ، والعقلية المتعلقة بها ، وخاصة انهم وجدوا ان بين مراحل الارتقاء اللغوي في امة من الامم ، وبين مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل، تشابها في كثير من الاوجه .



## اصل اللغة الانسانية :

وقد ذهب « ماكس موللر » ، ( ١٨٢٣ ـ ١٩٠٠ ) ، وأيضا « أرنست رينات » ، ( ١٨٢٢ ـ ١٨٩٠ ) الى أن اللغة ترجع في نشأتها الى غريزة خاصة بها ، هي غريزة التعبير اللغوي ،وتشبهغريزة التعبير عن الانفعالات ؛ الامر الذي أوجد مفردات ، أي كلمات لغة أولى لانسان التاريخ ، والتي يدل عليها وجود لغة انسانية أولى انشعبت منها فصيلة اللغات الهندية ـ الاوروبية ، ترجع مفرداتها الى خمسمائة أصل مشترك ، تدل على معان كلية ، مستقلة عن اصواتها(١) .

لقد رفض « وليم دوايت وتني » ، ( ١٨٥٧ ـ ١٨٩٤ ) هذه النظرية ، وأدلتها ، وارجع اللغة ، ليس الى قدرة نفسية غريزية ، وانما الى رغبة اجتماعية ، هي رغبة الانسان

---

(١) اهتم ماكس موللر بالقواعد المقارنة ، وأشهر مؤلفاته ، دروس حديثة في علم اللغة، ١٨٦٤ ؛ واهتم أرنست رنيان بتاريخ الدينات ، وأشهر مؤلفاته حوارات وأبحاث فلسفية ١٨٧٦ .

في الاتصال بالآخرين . وفي نظر ( وتني ) أن اللغة الانسانية نشأت من الاصوات الطبيعية التي للانسان ، أو التي للرياح ، والعواصف ، أو أيضا التي يحدثها وقوع الافعال ، مثل الضرب ، والكسر ، والقطع ؛ ثم سارت في طريق النمو والتقدم ، تبعا لارتقاء العقلية الانسانية ، واتساع الحياة الاجتماعية ، وتقدم الحضارة(٢) .

ومن الادلة التي اعتمدت هذه النظرية عليها ، ما يسمى بمبدأ ( التلخيص العام ) ، أي كون مراحل الارتقاء اللغوي عند كل من الطفل ، والانسان التاريخ متوافقة ؛ وهذا المبدأ يعود الى العالم اللغوي ( هايكل ) ، وساعد على اغناء كل من علم نفس الطفل ، وتاريخ اللغات .. أن اللغة ، في الاصل ، محدودة الالفاظ ، قليلة التنوع ، قريبة الشبه بالاصوات الطبيعية ، تكثر فيها المفردات التي تشبه أصواتها اصوات ما هي تدل عليه ، عمل الانسان لوضع أسماء معينة لمسميات معينة ، كي تفي بغرضه من التعبير عن مقاصده(٣) .

## اللغة والعوامل المؤثرة فيها :

وقد اهتم « جان الياس بودوان » ( ١٨٤٥ — ١٩٢٩ ) بعلاقات اللغة بالعوامل النفسية ، والاجتماعية التي تؤثر فيها ؛ ولكنه رجح دائما العوامل النفسية ، وفي نظره ، أن اللغة هي ، قبل كل شيء ، ظاهرة نفسية ، وتطورها مشروط بالعوامل النفسية .

وقد ميز « بودوان » بين ما ننطقه من أصوات ، أي الصوت الفيزياني ، وبين ما نعتقد أننا ننطقه ، أو نسمعه ، أو الفونيم ، الوحدة الصوتية ، مشيرا الى أثر ( اللاشعور ) في العلامات الصوتية ، كما طالب بتأسيس علم نفس لدراسة وظيفة الصوت ، معتبرا أن الفونيم ، أي الوحدة الصوتية ، هو المعادل النفسي للصوت (٤) .

(٢) وقد اهتم وليم دوايت وتني بالدلالة ، وأشهر مؤلفاته ، اللغة ودراستها ، ١٨٦٧ ، وحياة اللغة ، ١٨٧٥ .

(٣) راجع نشأة اللغة عند الانسان والطفل ، للدكتور علي عبد الواحد وافي ، مصر ، ١٩٤٧ ، حيث شروح هذه النظريات المختلفة .

(٤) علم اللغة في القرن العشرين ، لجورج مونان ، ص ٢٥ — ٣٨ ، والمثال من ص ٣٧ .

في حين اعتبر « نيقولا تروبتسكي » ، ( ١٨٩٠ – ١٩٣٨ ) الفونيم ، أي الوحدة الصوتية صوتا وظيفيا ؛ ورفض أن يعتبر أي عامل من عوامله ، بعضه ( شعوري ) ، أي يعيه الشخص ، وبعضه الآخر ( لاشعوري ) ، أي لا يعيه الشخص . وكان تروبتسكي مثل جاكيسون يقول بالغائية في علم اللغة ، وكون النظام الصوتي في لغة ما موجها بميل الى هدف ، أو ايضا ميل الى الانسجام بين الانظمة ، والمستويات(٥) .

وقد درس « جاكيسون » لغة الاطفال على حقل وظائف الصوت ، كما درس فقدان ذاكرة اللغة ، والاضطرابات اللغوية ؛ وفي نظره هناك نموذجان للاضطرابات اللغوية عند الانسان : آ – النموذج المتأتي من عطل قدرة اختيار الوحدات اللغوية ( اضطرابات ( براديجمية ) ؛ و – ب – النموذج المتأتي من عطل قدرة تركيب هذه الوحدات في سلسلة لغوية ( اضطرابات سنتجمية ) .. والخطاب اللغوي ، في نظره ، يرد الى الاستعارة ، وتقوم على الشبه ، والمجاز المرسل ، ويقوم على العرضية(٦) .

## اجتماعية اللغة والبنيوية :

يضاف الى ذلك موضوع التغيرات اللغوية ، من صوتية أو دلالية ، والتي ردها « يريال » ، أستاذ مييه الى أسباب ذهنية ، في حين ردها « انطوان مييه » ، ( ١٨٦٦ – ١٩٣٦ ) الى حياة الانسان في المجتمع ، معتبرا أن كلمات المعجم ، في أمة من الامم ، تعكس السمات الحضارية لهذه الامة(٧) .

و « فرديناند دي سوسور » ، ( ١٨٥٧ – ١٩١٣ ) هو أول من رجح اجتماعية اللغة ، وكونها ترتكز الى العقل الجماعي ؛ أن اللغة ، في نظره ، نظام من العلامات الصوتية الدالة، ودلالتها اتفاقية ، أي تقوم على التواضع .. ولذلك طالب بمقارنتها بغيرها من العلامات، منوها بالسيميولوجيا ، أي علم العلامات ، والذي اعتبره ثمرة عقلية الاتصال بين الناس(٨) .

---

(٥) نفس المصدر ، ص ٩٧ – ١١٠ ، والمثال من ص ١٠٧ .

(٦) أهم مؤلفات جاكبسون دراسات في علم اللغة ، ١٩٦٣ ، وأهم مؤلفات تروبتسكي مبادىء في علم وظائف الصوت ، نشره وقدم له مارتينه بعد وفاة صاحبه ..

(٧) أشهر مؤلفات مييه ، علم اللغة التاريخي ، وعلم اللغة العام ، ١٩٢٦ .

(٨) محاضرات في علم اللغة ، نشرها تلاميذه بعد وفاته ..

وأثر « دي سوسور » اتجه علم اللغة اتجاها بنيويا ، سمح بتعمق شتى المسائل المتعلقة بالصوت ، والدلالة ، والتركيب ، والاسلوب ؛ وقد خدمها علماء تعمقوها ، كل في اختصاصه ، مثل شارل بالي ، تلميذ دي سوسور ، ونوام تشومسكي ، وأندره مارتينه، وبيير جيرو ، ونيقولا ريفاتير ، وغيرهم(٩) .

و « ليونارد بلومفيلد » ، ( ١٨٨٧ ــ ١٩٤٩ ) من أبرز من خدموا هذا الاتجاه البنيوي، وكان متأثرا بمدرسة ( وندت ) التجريبية في علم النفس ؛ فرأى أن مهمة عالم اللغة تنحصر في تبين عملية الاتصال بين الناس ، انطلاقا من الظواهر التي يمكن ملاحظتها ، ودرسها .. ومن هنا محاربته للاتجاه الذهني في علم اللغة(١٠) .

وقد عرف مذهب بلومفيلد بالسلوكية اللغوية ، وهو يرد اللغة الى منبهات ، وردود هي أجوبة عليها ، درسها في ترابطها البنيوي ؛ ثم مع الخمسينات ، ازدهر ( علم النفس اللغوي ) ، والذي يعتبر اللغة جزءا متكاملا من سلوك الانسان ؛ وابحاثه اليوم تغطي مجال الظاهرة اللغوية ، بشتى عناصرها ، الصوت ، والدلالة ، والتركيب ، والمعجمية ، والنظام اللغوي العام(١١) .



## مع التحليل النفسي :

لاحظ « سيجموند فرويد » ، ( ١٨٥٦ ــ ١٩٣٩ ) ، وصديقه « جوزيف بروير » ، ١٨٤٢ ــ ١٩٢٥ ) ، أن الظواهر العصابية يصحبها ما أسمياه بالغياب ، أي العجز عن تطك التعبير عن النفس(١٢) . و ( الغياب ) مصطلح تحليلي يقصد تعليق الشعور ، وحلول العمليات اللاشعورية محله ؛ الأمر الذي ترجمه الازاحة ، أي زوال الموضوع النفسي الأولي ، وحلول موضوع نفسي آخر مكانه(١٣) .

(٩) انظر مراجعة لنا لكتاب الاسلوبية والاسلوب ، لعبد السلام المسدي ، المعرفة ، حزيران ١٩٧٨ ، العدد ١٩٦ .. والمراجع التي يحيل اليها ..

(١٠) انظر علم اللغة ، السابق الذكر ، ص ١١٦ ــ ١٢٥ .

(١١) آفاق جديدة في علم النفس ، الفصل السابع ، علم النفس اللغوي ، ص ١٥٢ــ ١٦٦

(١٢) دراسات في الهستيريا ، ١٨٩٥ ، وهو كتاب اشترك فرويد وبروير في تاليفه .

(١٣) قاموس التحليل النفسي ، لبيير فيديدا ، باريز ، ١٩٧٤ ، ص ١٥ ــ ١٦ .

ومن حيث أن عملية التعرف في تكوين ( الانا ) تقوم على الهوية ؛ ومن حيث أن الغياب يتهدد هـذه الهوية ، ويدفعها الى الظهور بمظهر مرضي ، أو معقد ، يعود الى العقـد النفسية ، انصرف الدارسـون النفسـانيون الى تحليل هذه الحيوات اللاشعورية التي تكتسح النفس الانسانية ، على شـكل تقمصات ، وتوحد مع الاشياء ، أو تعاطف مـع الاشخاص ، وما تجره من تهويمات ، ورمزية لا شعورية .

ان ( الانا ) في نظر فرويد ، هي مرجع الشعور ، وتؤمن تكامل الشخص مع الحياة ، ووحدته فيها ، انها مفتوحة على الحياة الاجتماعية ، ومبدأها الواقع ، ولكنها تتحمل آثار ( الهو ) ، و ( الأنا العليا ) ؛ أن ( الهو ) هو مجموع القوى التي تؤلف الطاقة الاندفاعية، وهو مفتوح على الجانب الجثماني للشخص ؛ وبفعل رقابة المجتمع ، ومن صراع الانا مع الهو ،تتكون الأنا العليا(١٤) .

الأنا يرتبط بها الادراك الخارجي ، والداخلي ، وهي محل الصراعات ، والتوترات ، التي يولدها الكبت .. انها نواة من الكلمات ، أو الحديث النفسي ، تتجمع حول ضمير المتكلم ، والذي يتحدث دائما عن نفسه ، وظروف حياته ؛ ان ( الفرد ) في أعماقه نرجسي ، ولكن هناك أيضا ( بنية جماعية ) يتوارثها بنو البشر ، وتتمثل في العقدة النفسية ، مثل النرجسية ، أو عقدة أوديب ، يعمل كل انسان ، على حد تعبير فرويد ، أن يسيطر عليها ، ويتملكها .

## التهويم :

ورمزية اللاشعور ليست ظاهرة لغوية ، وانما هي آلية لاشعورية مصاحبة لعمل الكبت، وتعمل على مستوى ( الصورة ) ، دون بلوغ مستوى التهجي الدلالي ، والصوتي الذي للظاهرة اللغوية ؛ وذلك أن ( الاندفاعات ) تتمثل لبوسانها التي تردها من المجتمع دون المرور الى الدال ، أي تظل شيئا قبل اللغة .

(١٤) حدد فرويد ، في مخططه الاول الذي رسمه للنظام النفسي عام ١٩١٥ ، مجالات الشعور ، وما تحت الشعور ، واللاشعور كاوساط هـي محل عمـل الطاقة الحيوية ، واندفاعاتها .. ثم في مخططه الثاني ، الذي يرجع الى عام ١٩٢٠ اهتم بمراجـع الحياة النفسية ، أي الأنا ، والهو ، والأنا العليا ..

وعندما تصطنع الطاقة الاندفاعية لبوسانها ، سواء هي شيئية ، أو لفظية ، تنمطها ، أي تقولبها ، فتصبح ممثلة لها بشكل منمط ، أي مقولب ؛ وآنئذ ، يظهر اللاشعور بها على سطح الشعور ، وعادة هو يدس كلماته فيها على شكل أعراض ، أو أخطاء .. هـذا الظهور اللاشعوري يعطي ( التهويم ) ، والذي هو حديث غياب متضايف الى الشعور ، اي الحياة العادية .

وفي نظر فرويد ، من أجل أن جزءا من الحديث يقدر أن ينظم سلسلة من الدوال الرمزية ، يجب أن ( الصورة ) التي تمثل الاندفاعية ترى مرفوضة من الشعور ، وبالتالي مكبوتة ؛ فلا تسير سيرها الطبيعي ، وانما تخاتل الشعور مخاتلة ، وتدافعه مدافعة ، لتظهر متخفية ، ومرموزة .. و ( اللاشعور ) هو المنطقة الأكثر عمقا في النفس الانسانية ، وما يكبت فيه لا يندثر ، وانما يعود الى سطح الشعور ، ويؤثر في حياة الانسان ، بحسب وضعه ، وظروفه .

## الرمزية اللاشعورية :

اننا لا نعرف ( اللاشعوري ) الا كشعوري ، أي عند خضوعه للترجمة الى شعوري ، بواسطة تمثيل الاندفاعة .. ان ــ الاندفاعة ــ فعالية خالصة ، وتمثيلها يقدم اشياء عن العالم ، وعن الجسم ، أي من العالمين الخارجي ، والداخلي للشخص ؛ وأصالة ( فرويد ) انه جعل اللاشعور هو الوسط الذي لتلاقي النفسي والجسمي ، لتطابق الطاقة والمعنى .



( الاندفاعة ) مفهوم يمثل الحدود الفاصلة بين ما هو نفسي ، وما هو جسمي(١٥) ؛ وتمثيلاتها صور من الواقع ، أو من الخيال ، تتضايف اليها المنبهات الجثمانية .. ان الآثار التي تتركها الحوادث في حياة الشخص ، وخاصة في طفولته لا تمحى ، رغم محاولة ( الكبت ) اخفاءها ، أو القضاء عليها ؛ انها تعود من تلقاء نفسها ، وبشكل لاشعوري .

ان عودة المكبوت هي سبب الاعمال الخاطئة ، والاغراض المرضية ؛ و ( عودة المكبوت ) تكون في الصحة ، أو في المرض على السواء ، وفي كلا الحالين هي تحكي قصة هذا المكبوت

---

(١٥) هناك في نظر ( فرويد ) اندفاعات للأنا ، ولحفظ الذات ، والتقهقر ، والجنس ، والحياة ، والموت ، واندفاعات جزئية تتعلق بالتنظيم الليبيدي في علاقته بهذا القسم او ذاك من الجسم .. و ( أدلر ) يؤكد على اندفاعات التقهقر ؛ او النكوص ، ولكن فرويد لم يعطها خصوصية مميزة .. قاموس التحليل النفسي ، السابق الذكر ، ص ٢١٤ ــ ٢١٥ .

بواسطة الرموز ؛ ومهمة المحلل النفسي مساعدة المريض على فهم هذه الرموز ، وفك الختم الذي على معناها الغائب .

و ( الرمز ) في نظر فرويد شيء منحوت على الصور ، أي التمثيلات ، وأيضا على الكلمات .. انه لغة رسوبية تتناول جميع علاقات الشخص بالعالم الخارجي ، والاشخاص، والحوادث التي تجري له في حياته ؛ الا انه في الاساس دليل غياب ، أو هو يفصح عن معنى غائب في الحديث ، سببه ظهور الطاقة الاندفاعية متخفية ، أو مرموزة .

ولذلك اعتبرت الرمزية الفرويدية ( رمزية مادية ) ؛ لانها من جهة نتيجة الكبت ، ومن جهة ثانية لان مضامينها جنسية(١٦) .. الرمز هو كلمة اللاشعور ، واندفاعاته اللذيذة ؛ وعلى المحلل بالتالي أن يكشف عن مدلوله ؛ ولكن فرويد لم ينسب الى اللاشعورية لغة ، كما ان الليبيدو ، أي الغريزة الجنسية في نظره ، حيادية ، أو هي طاقة حيوية خالصة .

## لغة الحلم :

لقد اعتبر فرويد أن ما يقصه الحلم ، أي متنه ، اثر لحلم الانسانية ، والذي تعكسه أيضا ، الاساطير ، والخرافات ، والحكايات ، والتراث الشعبي ، والامثال ؛ والحلم له ظاهر ، وباطن ، ولكن ليس ثمة وظيفة رمزية توجده ؛ وانما الحلم ثمرة عمله ؛ و ( عمل الحلم ) هو انضاج فكرته ، وتحويلها الى مضمون ، ويتلخص في عمليتين لاشعوريتين ، هما : التكثيف ، والازاحة .

والفعالية التي في ( عمل الحلم ) شيء مختلف كيفيا عن افكار اليقظة ؛ وذلك ان لها منطقا خاصا يعود الى ذاتها ، بحيث أن تحولاتها تجعلها تجد ذاتها في الحلم .. ان الحلم

---

(١٦) وقد أوضح لابلانش وبونتاليس في مقالتهما عن الرمزية الفرويدية ، ان فرويد ميّز منذ عام ١٨٩٥ ، بين حتمية الاقتران ، وبين حتمية الرمز في الاعراض . ان جوهر العلاقة الرمزية عند فرويد هو العنصر الظاهر ، وتفسيراته ؛ وأن الرمزية الحتمية عنده توفرها صيغ وعبارات مسمرة في مكانها ، لاحول للشخص عليها ؛ ان المجال المرموز هو فقط مجال الجنس ، والعلاقة الرمزية تقوم على المشابهة ، القاموس السابق الذكر ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

هو السبيل الى التقهقر ، والنكوص النفسي ، وبواسطته تظهر الرغبات متخفية وراء الاقنعة .. انه يكشف جميع مخبآت النفس الانسانية(١٧) .

وآلية الرمز هي مجرد علاقة دلالية بين مقومات الحلم؛ و ( الحلم ) لا يقيم هذه العلاقة، وانما يجدها جاهزة ، فيستعملها ؛ انـه يستخدم نموذجية مسوّاة له مـن الخارج .. ولا يصادف الحلم وقائع لغوية الا عندما ( الكلمات ) تعتبر كاشياء ؛ وقد نوه فرويد مرارا ان الكلمات في الحلم تعامل كاشياء ، وكذلك في الفصام .

والرمز له مرة واحدة ، وأبدا دلالة معينة ، ويحتاج عند الاشخاص الى تفسير .. ان ( التفسير ) خطوة من الظاهر الى الباطن ، به تظهر على حد تعبير فرويد ، التقلبات التي حدثت لاحوال الاندفاعة ؛ ان الهوية التي يكشفها الرمز ، ويظهر بها هي فضيلة هوية قديمة للكلمات(١٨) .

## في التكوين الانساني :



لقد اعتمد فرويد في تفسير الحلم على طريقة تلك الاقترانات الحرة بين الصور التي يقدمها الحلم ، وأكد على الحرفية في ذلك ، وهدفه الكشف عن النموذجية التي رتبتها مُخاتلة اللاشعور للشعور ، والتخفي في مداورة رقابة المجتمع .. ثم استعان بالطريقة التكوينية المقارنة ، اذ وجد ان مصادر أخرى كالاساطير ، والتقاليد ، والفنون تقدم نفس الرمزية التي يقدمها الحلم .

---

(١٧) تفسير الاحلام ، ١٩٠٠ ؛ وأهم مؤلفات فرويد ، وابحاثه ، هي : ثلاثة ابحاث في الجنس ، ١٩٠٥ ، والطوطم ، والتابو ، ١٩١٢ ، والاندفاعات ومصائرها ، ١٩١٥ ، واللاشعور ١٩١٥ أيضا ، والحداد والحزن ، ١٩١٧ ، وهذه الابحاث الثلاثة الاخيرة نشرها في ما وراء علم النفس له .

ثم المدخل الى التحليل النفسي ١٩١٧ ، والذي اختصره فيما بعد عام ١٩٣٨ ، وما وراء مبدأ اللذة ، ١٩٢٠ ، والانا والهو ، ١٩٢٣ ، والمنع والعرض والقلق ، ١٩٢٦ وغيرها..

(١٨) وقد استعان للتدليل على ذلك بنظرية العالم اللغوي سبيربر ، أن الكلمات تعبر في الأصل عن الأمور الجنسية ، ثم تحولت للتعبير عن العمل ؛ فلكل كلمة معنيان ، احدهما جنسي ، والآخر عملي ، ولكن جذورها من أصل جنسي ..

ان البحث عن ( أفكار الحلم ) هو القيام بعمل تقهقري لاكتشاف الاندفاعات التي وراء الذكريات والانطباعات والسلوكات والاقترانات .. وفي نظر فرويد أن طفولتنا هي التي تطفو باندفاعاتها المكبوتة في الحلم ، وطفولتنا هي طفولة الانسانية ، مختصرة في طفولة الشخص .

والطاقة الحيوية التي تتجلى في الحلم هي نفسها التي تتجلى في المصادر الاخرى ، الاساطير والتقاليد وغيرها ؛ والانسان ينبثق من خلال الحركة التاريخية الثقافية ؛ وعلى المحلل الكشف عن شتى مظاهر هذه الحركة .. ان تاريخ الانسانية بدأ بقتل والد العشيرة، قتله أولاده الذين حسدوه على سلطته ، وذكرى هذا القتل هي التي تمثل في أضاحي الطوطم ، ومحرمات التابو .

ان التضحية بالطوطم ، أي الحيوان الذي يقدم قربانا في الطقوس تمثيل رمزي طقوسي لهذا القتل ؛ وأما المحرمات ، وخاصة الجنسية فتنظيم للعلاقات التي كان الأب يتحكم بها .. وكما أن حرفية المعنى في المتون المختلفة التي للحلم ، أو السلوكات تدل على المعنى وظروفه ، فان الانطروبولوجية الفرويدية تبدي اكتافة البطانة المنعكسة في اللغة .



## تعليق :

وباختصار ليس اللاشعور في نظر فرويد لغة ، وانما هو مجرد طاقة اندفاعية ، ورمزيته ليست ظاهرة لغوية ، رغم الكلمات التي يدسها في حديث الشعور .. انه المشهد الآخر في النفس ، وحديثه حديث آخر مدسوس على الحديث العادي للشخص ، ولذلك هو يحتاج الى تحليل ، وتفكيك(١٩) .

وقد علق العالم اللغوي « بنفنيست » ، في مقالته : ( ملاحظات على وظيفة اللغة في الاكتشاف الفرويدي(٢٠) ) على آليات الحلم ، ورمزيته عند فرويد ، فلاحظ أنه في ( الاسلوب ) أكثر منه في اللغة ، ما يمكن اقامة بحث مقارن للخصائص التي كشفها فرويد عن ( لغة الحلم ) ..

---

(١٩) وبخصوص الطابع التقهقري للحلم ، وطابع جهله للنفي ، والذي ينسبه فيه اللاشعور ، يستعين فرويد برأي ( كارل آبل ) في خصيصة اللغات البدائية في التعبير عن المعاني المتضادة بكلمات واحدة ؛ ويعلق ( بنفنيست ) على ذلك بأن ما لا تميزه اللغة بعلامة خاصة لا يمكن افتكاره كمقابل ، أو ضد ..

وذلك ان آليات الحلم كما وصفها « فرويد » تبدو تارة فوق لغوية ، وتارة أخرى تحت لغوية : فوق لغوية ، لأن الحلم حسب ملاحظة فرويد يجد قرابته الحقيقية في الوحدات الكبرى للحديث ، مثل الاساطير ، والتراث الشعبي ، والامثال ؛ وتحت لغوية ، لانها دون مستوى التربية التي للنظام اللغوي ؛ ثم يقرر ان ذلك كله يبعدنا عن تبعية بين منطق الحلم ، ومنطق اللغة الواقعية(٢١) .

## الرمزية الوظيفية :

وكرد فعل على هذه الرمزية المادية ، وحرفيتها ، نشأت الاتجاهات التحليلية والنفسانية الى الرمزية الوظيفية ، والتي ارتأت أن ( الرمز ) يعبر ليس عن نزعات جنسية مكبوتة ، وانما عن وظيفة نفسية ، وأيضا حالات ، وعمليات للجهاز النفسي .

الوظيفة التي يقوم بها الرمز ، كما يقول ( يونج ) هي انه ينقص من قيمة موضوعه ، وتلك ايضا هي غايته التي وجد من اجلها ؛ ويقمل ان مصدره عند الوظيفيين أمثال سيلبرر، ويونج ، وشتيكل لم يعد الجنس ، وانما الذات ( سيلبرر ) ، أو اللاشعور الجمعي(يونج)، أو الصراع النفسي ( شتيكل ) ، فقد الرمز قيمته ، وصار الى مجرد رمز موقف(سيلبرر)، أو رمز نموذجي ( يونج ) ، أو رمز نوعي ( شتيكل ) .

ان الرمز في نظر « سيلبرر » مجرد ظاهرة وظيفية ، كما سنرى ، في حين هو عند(يونج) يرجع الى مكونات ازلية قديمة انطبعت في اللاشعور الجمعي ؛ بينما ذهب ( شتيكل ) الى ان لكل شخص رمزية خاصة تظهر في أحلامه ، وليس للرموز دلالة ثابتة ، بل انها تختلف في دلالتها من حالة الى أخرى ، لان مصدرها هو طبيعة الصراع النفسي ، وخاصة الذهني منه ، أو المشكلة الخاصة لهموم الانسان في صحته ، ومرضه .

---

(٢٠) التحليل النفسي ، العدد ١ ، ص ٣ ــ ١٦ ؛ وقد رد بول ريكير عليها ، ( في التفسير )، بحث عن فرويد ، باريز ١٩٦٥ ، واعتبر مسألتها اختلاطا لما هو فوق لغوي مع ما هو تحت لغوي ، مما يدفع الى الرمز ، ص ٣٨٨ ، وانظر ص ٣٩٣ .

(٢١) المقالة المذكورة ، وبفيف ( بنفنيست ) ان البنائية الفرويدية هي كذلك فقط بالنسبة لما هي تشوهه ، أو تكتبه ..

وقد خص « ارنست جونز » ، ( ١٨٦٩ ـ ١٩٥٨ ) آراء سيلبرر بالنقد ، ففندها ، وعلق عليها(٢٢) .. ونظرا لقيمة هذه النقد ، وما فيه من مقارنات نثبته فيما يلي :

## آراء سيلبرر :

يبدأ « سيلبرر » من واقعة الرمز ، في ظهورها من تلقاء نفسها ، فيميز فيها ثلاثة أصناف من الظواهر المتكاملة ، والمتساندة فيما بينها .

١ ـ الظاهرة الوظيفية : والتي تتمثل فيها ( الطريقة ) التي لعمه الذهن ، أي في سرعته ، او هدوئه ، في ثقله ، او اهتماماته ، في نجاحه ، أو لمره عمله ، في توتراته الخ..

٢ ـ الظاهرة الوظيفية : والتي تتمثل فيها ( الطريقة ) التي لعمل الذهن ، اي في الذهن ، أي الافكار نفسها .

ج ـ ظاهرة الجثمانية : والتي تتعلق باحاسيس الجسم ، وتدخل في تشكيل صورة الرمز ..



هذه الاصناف من الظواهر في نظر ( سيلبرر ) يرافق بعضها بعضا ، ويتاتى بعضها من بعض ، بحيث لا فرق تكويني بينها ، وانما هي تعمل بعمل الذهن(٢٣) .

والكبت طريقة لعمل الذهن ، والمرور من المنطقة اللاشعورية الى المنطقة الشعورية هو دائما مصحوب بصور خيالية ، ذات رمزية وظيفية ؛ الا ان الكبت وحده هو الذي يسوغ الرمزية ..

و ( سيلبرر ) يسمي هذا المرور برمزية العتبة ؛ والرموز المادية في نظره تتبدل فيه الى رموز وظيفية .. انه عندما يدرك الانسان مثاله الاخلاقي ، ويعيشه ، تمر الرمزية من شكلها المادي الى الشكل الوظيفي ؛ والرمز اذن في نظره ، جهد الى المثال الاخلاقي في الحياة .

---

(٢٢) نظرية الرمزية ؛ من أوراق في التحليل النفسي ، ط ١ عام ١٩١٢ ، وط ٥ عام ١٩٤٨ ، ص ٨٩ ـ ١٤٤ ؛ ونجد في كتاب ريكر السابق الذكر تلخيصا لهذه الدراسة ؛ مع ردود وتعليقات ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٦ .

(٢٣) الاوراق ؛ نظرية رمزية ، ص ١١٨ .

الا ان جونز لم يوافق على هذه الاراء ، وطالب اولا بالتمييز بين ( الرمز ) ، و ( الاستعارة ) ، من واقعة ان المعنى الرمزي يكون غالبا في العديد من الحالات التي يعتبرها سيلبرر : رمزية وظيفية ، وما هي كذلك .

## الرمزية الاستعارية :

ومن هنا قال ( جونز ) ان ما يسميه سيلبرر بتبدل الرمزية من مادية الى وظيفية هو بالاحرى استبدال للرمز بالاستعارة(٢٤) ؛ أي هو مجرد ارتباط اقتراني بين ظواهر مختلفة ، هي بالرغم من ان بعضها مشتق من المنبع اللاشعوري ، ليست كلها دالة ؛ اذ المسألة مسألة حيثيات فعلية وراء الرمز .

هذه الاحوال من ( الرمزية الاستعارية ) ، على حد نعت جونز لها(٢٥) ، والتي يتجلى فيها غياب المعنى الرمزي ، يسميها جونز بالتسوية ، أو مقاومة الباعث الحقيقي للرمز .. في حين ان ( الاستعارة ) في نظره مجرد تمويه ، واعتبارها رمزية وظيفية مجرد ركون الى دلالات السطح ؛ وذلك حيلة للاشعور ، هي من قبيل مقاربة التفسير الحقيقي للرمزية ، في ماديتها الجنسية اللاشعورية .



ان ( الرمز ) عند سيلبرر يقوم بوظيفة التشبيه ، ولكن ذلك لا يكفي ؛ واذا كانت الاستعارة تستطيع أن تقوم مقامه ، ولكنها في معظم الاحيان لا تفصح عن الاعماق اللاشعورية؛ ان تشبيهية ( سيلبرر ) ، وبرنامجية ( ادلر ) ، وبيانية ( يونغ ) ، والتي تعتبر الرمزية وظيفية للعمل الذهني ، أو التربية ، أو اللاشعور الجمعي ، هي خروج عن المفاهيم العلمية ، وتخل عن السببية ، والحتمية كافة(٢٦) .

ثم يقول ( جونز ) انه مثل ( سيلبرر ) اهتم بثلاث فئات(٢٧) من الوقائع النفسية : أ ـ العقد اللاشعورية ، و ب ـ الآثار المانعة ، أي الرقابة عند فرويد ، والتي تمسك هذه العقد في حالة كبت ، و جـ ـ الميول الشعورية المشتقة من العقد اللاشعورية ، والتي تمثل التصعيد .

(٢٤) أوراق في التحليل النفسي ، ص ١٢٦
(٢٥) نفس المصدر ، ص ١٤٤ .
(٢٦) نفس المصدر ، ص ١٣٦ ، وانظر في التفسير ، ص ٤٨٥ .
(٢٧) أوراق ، ص ١٤١ .

ثم يقول ان مادة الرمز ، في نظره ، مشتقة من الميول المصعدة ، أي الفئة الثالثة ، بينما معانيها مشتقة من الآثار المانعة ، أي الفئة الثانية ، ولكن الميول المصعدة لا تتدخل قط في معانيها ، والتي تعود في نظره الى اللاشعور .

بينما ( سيلبرر ) يرى ان معنى الرمز مشتق بشكل واسع من الميول المصعدة ، ومن الآثار المانعة ، أي الفئتين الثانية والثالثة ، وفي حدود ضيقة يتدخل فيها اللاشعور ، وعقده اللاشعورية .

## وظيفة الاستعارة :

يقول جونز انه يقبل ان تستعمل ( الصورة الرمزية ) لتمثل الميول المصعّدة ، أو الآثار المانعة ، كما هي تمثل في الاساس العقد اللاشعورية ، ولكنها في مثل هذه الحالـة تعمل كاستعارة ، وليس كرمز ؛ فوظيفتها وظيفة استعارية ، و ( سيلبرر ) في نظره يخلط بين استعمال الاستعارة ، واستعمال الرمز ، بفعل انه ينسب الى الرمز صفات تصلح للاستعارة ، في حين هناك فروق واضحة بينهما ، وخاصة بالنسبة لعلاقة كل منهما باللاشعور(٢٨) .



هناك نوعان من ( الاستعارة ) ، الاول تكون المشابهة فيه بين فكرتين حقيقيتين ، وأيضا موضوعيتين ، والثاني تكون المشابهة فيه مفترضة ، أي هي ذاتية ، وغير حقيقية في الواقع .. الاقتران في الاول داخلي ، وفي الثاني خارجي ، ولكنه يتعلق بهوية تحتية ، في منبع الفكرتين ، موضوع المشابهة .

---

(٢٨) وذلك أن ( المكبوت ) في نظر جونز ، هو وحده ما يمكن رمزه ، ووحده الذي يحتاج الى ان يرمز ؛ وذلك أيضا هو رأي فرويد ، وفرنتشزي ، وغيرهما ..

ويقول ( جونز ) أن أية فكرة غير جنسية ، يمكن أن تكون مرموزة ، ولكن شريطة أن تكون أخذت لمارابطة رمزية مع الموضوع الجنسي ، والذي وحده له جذور في الاندفاعة المكبوتة في اللاشعور ..

الا أن ذلك أحراج في غير موضعه ؛ وقد رد ( ريكير ) عليه بأسهاب ، ومما قاله ، أن نظرة جونز أحادية ، وفاشلة ؛ لان مثل هذه التقريرات والمحاكمات التي يقدمها جونز تحتاج الى تأسيس فلسفي ، تفتقر اليه ، ناهيك بأن التحليل النفسي ليست لديه الوسيلة لاثبات انه لا توجد منابع للرمز غير الاندفاعات المكبوتة ، ص ٨٣) .

والعملية المعروفة بموت الاستعارة ، والتي يضيع بها المعنى الحرفي للكلمة ، ويتلقى المعنى المجازي دلالة مستقلة ، ومقبولة ، هو قريب الشبه بما هو موصوف من ( التخلي ) عن المعنى موضوع الرمز ، أو الغياب .. ففي هذه العملية تصبح الفكرة المرموزة متحررة من المعنى العرضي ، الزائد ، لتكمل وجودها بشكل مستقل .

ان الوظيفة الاساسية للرمزية(٢٩) على اختلاف انواعها ، على حد قول جونز ، هو تجاوز المنع الذي يعيق التعبير الحر عن المعطى الوجداني، او الفكري، وايضا تجاوز القوى التي يبتعثها هذا المنع ، والتي هي ، في اندفاعها النامي والمتقدم السبب الفعلي للرمزية .

هذه الوظيفة هي عبارة عن تقهقر الى منع اكثر بساطة ؛ ولكن اذا كان التقهقر يمس مسالة قريبة ، اي ظل واعيا ، او مظللا ، فان ثمرته هي الرمزية الاستعارية ، او ما يسميه سيلبرد الرمزية الوظيفية .. في حين اذا هو بلغ العقد اللاشعورية ، وكان يعمل على مستوى اللاشعور ، فثمرته هي الرمزية بالمعنى الدقيق .

وكون الصورة نفسها تستعمل للوظيفتين لا يمحي الفوارق بينهما ؛ واهم هذه الفوارق أن ( الحساسية ) ، والتي هي هدف التعبير وأيضا موضوعه ، هي مع ( الاستعارة ) مصعدة من فوق ، ومع ( الرمز ) مصعدة من تحت ؛ في الحالة الاولى ، التعبير يتعلق بجهد حاول شيئا هو فوق طاقته ، وفي الحالة الثانية ، هو يتعلق بجهد يعيقه عائق عن اتمام ما يريد(٣٠) .



## البنيوية والتحليل النفسي :

وقد دعا ( جاك لاكان ) ، ـ ولد في باريز عام ١٩٠١ ـ ، الى العودة الى فرويد ؛ والعودة الى فرويد تعني في نظره التمسك بالعلم ، والسببية ، والحتمية ، وتعني على الخصوص العودة بالعلاج النفسي الى حقل الكلام ، حقل اللغة نفسها(٣١) .

وحقا ان فرويد يرى أن ( اللاشعور ) هو دائما مشهد آخر ، وأن له رموزه التي تغيب فيها ذاتية الانا المحظور عليها ولوج المنطقة اللاشعورية .·. الا ان ( لاكان ) اعتبر

(٢٩) و (٣٠) ـ أوراق في التحليل النفسي ، السابق الذكر ، ص ١٤٤ .

(٣١) عام ١٩٦٦ نشر لاكان كتابه الشهير ( كتابات ) ، في حوالي ٩١٢ صفحة ، ويحوي مجموعة ابحاثه ومقالاته ؛ وهي محاولات في تكريس البنيوية ، وارتياد عالم الرمز ..

ان اللاشعور يتكلم ، بل يمكنه ان يتكلم ، وعلى الخصوص ، اذا جمعنا آثاره في تجربة الانسان ، وأخذنا نتبين ما فيها من أنساق .

و ( لاكان ) هو الوحيد بين المحللين النفسانيين الذي حاول اظهار ( بنية شخصية )، هي تبتنى بنيويا ، على شكل تعاقب ، وتسلسل ، وتناوب ، وتجانس ، وتفاعل ، وتواصل .. وقد أخذ منذ عام ١٩٥٠ يؤكد على ضرورة تنظير اللغة في التحليل النفسي ، ودراسة اللاشعور ، باعتباره لغة ، تملك بنية خاصة .

ان البنية الشخصية في نظره من طبيعتها تكوينات بنيوية من انزلاقات ، وفجوات ، لا مظهر لها غير اللغة ، صورها البلاغية ، وأخيلتها الرمزية .. و ( اللاشعور ) مبنى كلغة، والآليات اللاشعورية ، على مستوى الدلالة تصير هي نفسها : ( بلاغة اللاشعور ) .

الرمز هو الدال ، وهو اهم عناصر البنية الشخصية ؛ انه هو الاصل في كل تحول فيها ؛ وهو المبدأ الفعال في شتى مراحلها ؛ والانسان بالتكرار التذكري يتكلم به ، فيبسط التناوب البنيوي ، حيث الحضور والغياب يستدعي كل منهما الآخر .

ان عالم المدلول ، والذي هو عالم الرمز ، عالم تحتي كالنار المركزية في الارض ؛ ولكن الرمز ، باعتباره اشارة دالة ، هو الدال والمدلول ، أو هو حضور الغياب ، ولا بد بالتالي من فك الغازه ، ومواجهة عقده ؛ ومهمة التحليل النفسي هي فك هذه الرموز ، وتعريف المريض بمرضه .

## بلاغة اللاشعور :

وبلاغة اللاشعور التي تحمس لها لاكان هي المظهر الحرفي للتفسير اللغوي ، للعمليات اللاشعورية ، أو هي ( الحرفية ) في قراءة متن من رموز ، هي دوال شخصيته ، تتوحد مدلولاتها في الكتب وآثاره .

ان ( اللاشعور ) يسلم كلمته عن طريق المعنى الحرفي ، والتأكيد على الحرفية شيء من روح الفرويدية ، والتي أتاحت تمييز انزلاقات المدلولات ، لا شعوريا ، تحت الدوال .

يقول « لاكان » استعمل كلمة موضع أخرى ، تجد نفسك امام ( النقل اللغوي ) ، الذي يسمى شعرا ، أو مجازا ، ـ والذي يقع ، على حد قوله ، في النقطة التي يحصل

فيها معنى حيث لا معنى[٣٢] . ـ

والنقل يستعين بالاستعارات والمجازات ، وهي التي يتكاثف بها حقل الدلالة ، وتظل المظهر الحرفي لكفاح اللاشعور في مخاتلته كل ما يعيقه عن حريته .

والرمز دال ، لانه الوسيلة التي تعبر الرغبة فيها عن ذاتها .. وكان ( فرويد ) أعطى قاعدتين لرمزيـة الحلم ، وهما : التكثيف ، والازاحـة ؛ ولكن « لاكان » يجعـل من ( التكثيف ) استعارة ، ومن ( الازاحة ) مجازا مرسلا .

وفي مقالته : ـ البنية الحرفية للاشعور ـ ، والتي ترجع الى عام ١٩٥٧ ، يضع لاكان تحت اسم ( النقل ) كلا من عمليتي : التكثيف ، والازاحة اللاشعوريتين ، ويعرف النقل بانه : ـ انزلاق المدلول تحت الدال[٣٣] ـ .

ان ( الرمز ) هو قتل للشيء[٣٤] ، كما يقول لاكان ، ولكنه كلفة هو تحرير للرغبة ؛ أن الكلام هو الذي يحيل الشيء الى رمز ، ولكنه ينم عن ( غياب ) الذات فيه ؛ وها هنا تبرز قيمة التحليل النفسي ، واهمية تقنيته ، والتي يجب التزام الحرفية فيها .

ان العلاقة بين الدال والمدلول علاقة لا تخلو من الانفصال ؛ و ( لاكان ) يعتبرها علاقة دال بدال ، وسوف يعتبرها ( ريكير ) وآخرون ، علاقة معنى بمعنى ؛ وذلك بفعل كوكبة المتن الجنسي الذي تقترن فيها الرموز ، وتنم عن غياب الذات ، غياب المعنى الحقيقي .

وفي نظر لاكان يمكن تدبر الفراغات ، والصور المجازية في اللغة ، بواسطة ما أسماه بـ ( التنقيط ) ، أي وضع الفواصل ، والشرطات ، والنقاط ، والاقواس ، والأهلة وغيرها مـن علامات كتابية توضع بـين الجمل ، والعبارات ، والكلمات ، فتساعد على القراءة[٣٥] ..

لقد استعار ( لاكان ) هذا المصطلح اللغوي : ( التنقيط ) ، واستعمله بمعنى تحليلي نفساني ؛ واعتبر أن قراءة الرموز اللاشعورية لا تتم بدونه ؛ فالتنقيط هو بمثابة الايقاع لجلسات التحليل النفسي ، وأيضا هو بمثابة الايقاع في الاستماع الى حديث المتحدثين .

---

(٣٢) كتابات ، ص ٥٠٨ ، وانظر البنيوية ، لجان ماري أوزياس ، ترجمة ميخائيل مخول ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ١٧٢ وما بعدها ..

(٣٣) راجع في التحليل النفسي ، باريز ، ١٩٧٦ دراسة كاترين كليمان عن لاكان ، اللاشعور واللغة ، التعريف من ص ١١٩ .

(٣٤) دراسة كاترين كليمان عن الخيالي ، والرمزي ، والواقعي عند لاكان ، المصدر السابق الذكر ، ٤٨ وما بعدها ؛ ويقول لاكان : ـ بادىء ذي بدء يتجلى الرمز كموت للشيء ، ولكن هذا الموت يؤلف في بنية الشخص تخليدا للرغبة ـ ص ٥٨ .

(٣٥) المصدر السابق الذكر ، ص ١٢٠ ..

## الأنا ومرحلة المرآة :

اعتبر لاكان الاستعارة معادلة للتكثيف ، والمجاز المرسل(٣٦) معادلا للازاحة ؛ واعتبر علاقة الدال بالمدلول علاقة تجانس بنيوي ، ولذلك ركز بحثه على توضيح الوظيفة المكونة للدال ، دون المدلول ، والذي ينزلق لا شعوريا من تلقاء نفسه تحت الدال .

وامام هذه البنية الشخصية التي تتشكل بنيويا ولا شعوريا ، يتساءل المرء عن مراجع الحياة النفسية ، الأنا ، والأنا العليا ، والهو .. ان ( لاكان ) رغم الاهمية التي يعطيها للاشعور ، الا انه لا يخصه بالهو ، وآلياته ، كما فعل فرويد ؛ على العكس ، أن لاكان يعتبر الاوساط النفسية ( استعارة ) عن المستويات ؛ ولكن هذه الاستعارة تظهر ، وتزول ، مع بروز واختفاء الملامح البنيوية للشخص .

لقد تسقط ( لاكان ) ـ بنية الشخص ـ ، من زاوية ما أسماه بـ ( مرحلة المرآة ) ، أي حوادث السنتين الاولبين من حياة الطفل ، وما لها من آثار على بنائيته ، أو تكوينه الشعوري واللاشعوري .

الطفل في ( مرحلة المرآة ) يكون بين قوى متضادة للنرجسية .. أنه يضاد ذاته ، ويجذبها في وقت واحد ، ويعرف بالتالي وحدة ذاته في ازدواجية الصورة ، الى أن تتحول غرائزه ، وميوله الى بنية عقدية ، تلعب لعبتها على صعيد الاستعارة الابوية ، أو عقدة اوديب .

ان المنابع الحقيقية للانا ، هي الصور المجزاة التي يصور الطفل بواسطتها أجزاء متقطعة من الجسم ، باشكال مشوهة ، مبتورة ، أو مبالغ فيها .. ان صورة الجسم كما

---

(٣٦) ترجمه د. زكريا ابراهيم ميتونيمي بكناية ، وذلك في حديثه عن بلاغة اللاشعور ، وأن لاكان ـ يحصرها في قاعدتين ، قاعدة الاستعارة ، وقاعدة الكناية ( كذا ) ؛ الاولى تقوم على احلال حد أو لفظ محل حد أو لفظ آخر ( كذا ) ، والثانية تنحصر في الاشارة الى جزء من الموضوع على انه يمثل الكل ( كذا ) . ـ مشكلة البنية ، مصر ١٩٧٦ ، ص١٩١ . وذلك يفتقر الى الدقة ، وغير صحيح ، لأن الكناية هي ايراد المعنى اللازم للفظ ، مع ارادة الملزوم ؛ ومن أشكالها عند الغربيين ما يسمى بـ ( أيفويسم ) كأي مجاز التلطيف ، و ( الليلوت ) أي مجاز الايجاز ؛ وريكير يستعملها في تحليلاته الظواهرية والوجودية ..

ولكن المجاز المرسل ، الميتونيمي ، استعارة عرضية ، أو فكرية ، واستعمالاتها أوسع من الاشارة الى جزء أو كل ؛ وكنت كتبت العديد من الدراسات في ذلك ، كما وضعت تصنيفا حديثا لصور البيان العربية ادخلت فيه مفهوم الرمز ، وملاشاته ، ودرستها باعتبارها صور أسلوب ، ولذلك اقتضى التنويه ..

يعيشها الطفل هي تشريح تمويهي ، ذو وظيفة تمويهية ؛ والعلاقة التي بين هذه الصور التمويهية ، وبين حاجات الطفل ، واندفاعاته ، تكتسب أكثر فاكثر قيمة رمزية .

## الخيال والمثال :

الطفل في مرحلة المرآة عوز ، وافتقار ، وتبعية ؛ ولكن تشكل الصورة في المرآة هو الذي يجعله يتجاوز ذلك كله ، في مبادرة حثيثة الى صنع ما سيصبح كيانه المستقبل كيافع ، أو كرجل .

لقد حرص لاكان على القاء الضوء على النوابض البنيوية التي تتفجر في حياة الانسان ؛ والمرور الى اليفاعة اساسي ، لانه في نظره يضع تكوينات ( الانا ) في خط الخيال .

ان الانا باعتبارها الخيالي ، تتحدر من مواجهة الانسان للذات في داخليتها ، وأيضا من المسافة التي تفصل الشخص عن صور الموضوعات ، والاشياء ، والاشخاص في الخارج .



هناك فقط في نظر لاكان تتاصل البنية الشخصية ، ومراجعها : ( الانا ) هي وسط الخيالي ، أو وسط الذاتية الهشة ، وعلاقاتها المختلفة بالموضوعات ؛ في حين ( الانا العليا ) هي وسط الرمزي ، أو وسط الأمر ، والنهي ، والقانون ؛ و ( الهو ) ، هي الهذا ، أو الواقعي ، وبالتالي العيني نفسه(٢٧) .

وهذا معناه ان الطفل يغوص منذ ولادته في الرموز ، وان مبادرته للتعرف على الاشياء ، والاشخاص سجل الآثار المميزة لعالمه ، ومحيطه على صفحة ذاتيته النامية .. ولكن ليس ثمة أية صورة وراء المرآة ، ان كل الصور هي من مرحلة المرآة ، وبها ، أي ما يعادل بناء الخبرة للذات ، ولا شيء خارج الخبرة .

هذا التمثل اللاكاني يشبه تمثل ( لاغاش ) ان الطفل يبدأ وجوده من ( الغير ) ، ولاجله ؛ وبالفعل ، ان لاكان مثل ( لاغاش ) يعتبر المثل الاعلى للانا شيئا من صنعها ، تنحته على نموذج هو الاب ، أو سواه .. وصورة الانا عن نفسها هي المعيار المنظم للبنية الشخصية ، واللاشعورية .

(٢٧) مقالة كليمان السابقة الذكر ، وقاموس التحليل النفسي ، المواد في صفحات متفرقة ..

## اللاشعور حديث الغير :

ان اللاشعور هو حديث الغير ؛ وهذا الحديث يتم من خلال اللغة العادية .. و (الغير) هو ما سوى الانا ، أي العالم الخارجي ، والموضوعات ، وأيضا الاشخاص الآخرون .

والاغتراب هو مظهر انزلاق المدلول في الدال ، وبالتالي مظهر الغياب ؛ ان الاغتراب هو دائما بين فعل الشخص ، أي هو شيء ذاتي ، الا أنه يتأتى من الغير ، وبالتالي مـن اللاشعور ، نتيجة ( لغة ) تسللت الى الشخص ، ونخرت شخصيته كالسـوس .

ان حقيقة الذات ماثلة في صميم الذات كتاريخية لها ؛ و ( اللغة ) هي استرجاع لهذه التاريخية .. ان الذات تفرت حقا في الرمز ، ولكنها تجد نفسها فيه .. والرمز دائما دال كما رأينا ، وهو حديث هذه الذات في تحققها عبر التبادل الذاتي في المجتمع ؛ واللاشعور[٢٨] بفعل انه مبني كلغة هو وحده المنفذ الشخصي الى النور ، والواقع .

ان التقهقر عند فرويد يوصل الى اللاشعور ، المشهد الآخر الذي يدس كلماته في لغة الشعور ؛ ولكن التقهقر عند ( لاكان ) يوصل الى عبارات رمزية تحكي عن البنية الشخصية، واللاشعورية ، كما عاشها الشخص في مرحلة المرآة .



والانسان يتعقل الرمز لانه يعيش في عالمه ؛ أنه منذ ولادته حتى وفاته يتحمل آثـار الرموز الاجتماعية ، والتاريخية ، ولكن ذاته لا تعرف نفسها الا من خلال الرموز ، وبالتالي لغتها ، اذ لا صورة وراء المرآة كما رأينا .

## احاديث ودلالة :

لقد نسب لاكان للنظام الرمزي قدرة مطلقة على انشاء الذات ؛ ولا سبيل الى ذلك الا بواسطة اللغة وفيها .. لقد ضحى لاكان بالذات لحساب ( البنية ) ، بحيث أصبح الرمز هو الذي يصنع الانسان ، بدل أن يكون الانسان هو الذي يصنع الرمز .

وتلـك بالفعل هـي الثغرة في مذهبه ، التي جرت عليه الانتقادات ، والتي وصمته

---

(٢٨) يقول لاكان : ـ أن القوة السحرية للاشعور ، اي جلجلانه على طريقة افتح يا سمسم ؛ هي انه له تأثير الكلام المقول ، وانه هو نفسه بنية لغوية ؛ أي مبني كلغة ـ، انه جزء بالتالي من بنية الشخص ؛ ولا مظهر له غير اللغة ..

باللاانسانية .. اذ أصبح ( الانسان ) مجرد العوبة بيد النسقية ، وبنيتها اللاشعورية .

وعام ١٩٦٢ طلع لاكان بنظرية ( الاحاديث ) ، والتي يقسمها الى اربعة أصناف : حديث المعلم ، وحديث العصابي ، ثم حديث الجامعي ، وحديث المحلل النفساني[٣٩] .

الحديثان الاولان يدلان على العلاقة التي بين سلطة المعلم ، ومعرفة العصابي ، أو السلطة والمعرفة عامة ؛ واما الجامعي ، والمحلل النفساني ، فاحدهما واضع معرفة ، والآخر واضع لا معرفة ..

الجامعي ينقل الثقافة كمعرفة ، والمحلل النفساني يجهل ما يعرف ، ولا ينقل شيئا ، سوى وضع في المكان لكل ثقافة .. ولاكان يسمي حديث المحلل النفساني : ( حقيقة ) .

التحليل النفسي هو لعبة الحقيقة التي تقوم على حركات الحضور والغياب ؛ انه صياغة اللغة عن طريق تبادل ذاتي بين شخصين ، بله الاشخاص ؛ والمحلل النفساني هو المتحدث باسم اللاشعور ، وبواسطته .

وعلى هذه الشاكلة طرح ( لاكان ) مفهوم العلوم الانسانية ، ليستعيض عنه بمفهوم العلوم التخمينية ؛ انه لا يقضي على الانسان ، كما ظن كثيرون ، ولكنه يفتح أمامه سبيلا الى كلام الذات ، وبالتالي بزوغها[٤٠] .

## الطبيعة والثقافة :



ان احوال الفراغ ، والنقص ، والغياب التي يدل عليها الكلام من خلال الرموز ، هي الآن أحوال يطولها التحليل النفسي ، اذ يتسقط دلالتها في حرفية جملها ، وعباراتها وتراكيبها ؛ والهوية الانسانية شيء يمكن بلوغه من فوق كل اغتراب ، او تشويه .

هنا لاكان يكرر فرويد ، ولكنه يقترب من « فوكوه » الذي اعتبر الذهان شيئا طبيعيا ، ويدخل في تكوين الشخص ، ونفسيته . ان « لاكان » ، كما رأينا ، ينفي أن يكون وراء المرآة صورة ، وانما صور اللاشعور هي خبرته .

وعلى هذا النحو هو يفسر العرض العصابي ، بانه ( دال ) على منبه مثير في أعماق النفس ؛ فهو اذن رمز يشارك من فوق غموضه الدلالي في اللغة ..

و ( الخلل الحضاري ) في نظره ، هو التعرية للمفصل نفسه الذي يربط بين الطبيعة، والثقافة[٤١] .. والبنية العقدية النرجسية ، أو الاوديبية هي أيضا كذلك .

---

(٣٩) مقالة كاترين كليمان ، السابقة الذكر ..

(٤٠) البنيوية ، ومشكلة البنية ، الآنفا الذكر ..

(٤١) يقول فيديدا : ـ ان مفهوم ( الرمزي ) الذي قال به لاكان يقصد نظاما من الثقافة بالمعنى الشتراوسي ، وما يؤسس هذا النظام من قانون ، أي سلطة الاب ، أو افضلية ـ اسم ـ الأب . ـ ، قاموس التحليل النفسي ، ص ٢٤٢ .

وفي حين ان ( العصاب ) هو الشكل المرضي ، لما أسماه هيجل بالشعور الشقي ، لأنه يحمل في ذاته حقيقة هو يجهلها ، ولا غنى له عن الاعتراف بها .

## التفسير اللغوي :

وقد تحزب كثير من الدارسين لهذا النوع من التفسير اللغوي للاشعور(٤٢) ، من أبرزهم لابلانش ، ولوكلير ، واللذان توسعا في بلاغة اللاشعور ، وأيضا في بنية الحديث اللاشعوري في اللغة(٤٣) .

لقد اكد على ازدواجية الكبت ، من انه حاجز يفصل بين الانظمة ، وفي الوقت نفسه هو علاقة تربط علاقات الدال بالمدلول .. والتعبير الاستعاري بذلك يحوي بلور دلالة ، بفعل هذه المضاعفة بين ( الاستعارة ) والكبت .

ان هناك دائما بعض دوال ـ مفاتيح ، هي في وضع استعاري ، تشبيهي ، تساهم في تنظيم اللغة الانسانية .. وأما ( المجاز المرسل ) ، فميكانيكيته التي لا تنصب في الازاحة ، هو نفسه مصنوع للدلالة ، فهو يسجل وأيضا يخفي الكسر الذي تنشأ فيه الرغبة ، وتتدافع باستمرار .

ويقول لابلانش ، ولوكلير : « اننا يمكننا صياغة أسطورة نشأة اللاشعور : انه ينتج من وقوع الطاقة الاندفاعية في شباك الدال ، خاصة أن هدف الدال هنا هو اخفاء الفراغ الاساسي للكائن، هذا الفراغ الذي يؤمن، بدون انقطاع، المجازات المرسلة من الرغبة(٤٤) ».

ويضيفان الى ذلك ترجيحهما كون سلسلة الدوال مفتوحة لكل معنى : « يمكن القول بمعنى ما ان السلسلة الدالة هي ( معنى خالص ) ؛ الا اننا يمكننا ايضا أن نقول انها ايضا ( دال خالص ) ، او انها ( لا معنى خالص ) ، أو هي مفتوحة أيضا لكل معنى(٤٥) » .

ان اللاشعورليس ممتدا مع الظاهر مثل دلالة له ، وانما يجب ادخاله في الفراغات التي للنص الظاهر ؛ انه بنية ثانية تجد الظواهر الغائبة فيه وحدتها ، بشكل مستقل عن بقية النص .. التمثل هنا فرويدي في الاساس ، ولكنه يحمل طابعا لاكانيا ، ولغويا .

(٤٢) ناهيك بأن ديكور قبل به ، مع تحفظات استقاها من بنفيست ، راجع في التفسير ، السابق الذكر ، ص ٣٨٥ وما بعدها ، وخاصة ٣٩٠ ..

(٤٣) و (٤٤) و (٤٥) اللاشعور ، دراسة تحليلية نفسانية ، أسفار بونيفال ، ١٩٦٠ ، ص ٦ و ٤٠ ؛ وانظر في التفسير ، السابق الذكر ، نفس الصفحات ..

# مشكلات اليوم والغد

د. عزة مريدن

لم تصل هموم العالم ومشكلاته ، في اي زمان مضى الى مثل ما وصلت اليه ، منذ اوائل هذا القرن العشرين . ولا ندري بعد ماذا يخبىء الغد القريب او البعيد . واذا كانت لكل أمة مشكلاتها التي تتصل بطبيعة الموقع الجغرافي والواقع التاريخي، مشكلات سياسيا واقتصادية واجتماعية ، اسهمت في تكوينها الظروف والانظمة والمذاهب ، السياسية والاجتماعية والدينية ، فلعلنا نحن العرب ، محاطون من كل جانب ، بمشكلات وهموم اسهم التاريخ والواقع في احداثها ، حتى جاء ماتفخ فيها والهب اوارها ، حين فرقنا الاستعمار لاضعافنا وامتصاص ثرواتنا وخيراتنا ، ومنذ مامزقنا الجهل والفقر والانانية ، بعد ان كنا سادة الامم الفاتحين ، قوة وعلما وغنى . حتى اذا انقشع بعض الغمامة بتفجر البترول في غير قليل من البقاع التي يسكنها ويملكها العرب ، تكالبت علينا المطامع ، وتفنن المستعمرون في اساليب التقلب علينا ، وتكاثرت علينا الهموم والمشكلات التي لاتقل بل قد تزيد على ما تعانيه معظم الدول النامية في العالم الثالث ، وعلى راسها تلك الحربة المسمومة ، التي غرزوها في قلب الوطن العربي ، وراحوا اليوم يساوموننا على حقنا الصريح في ارضنا العزيزة الغالية . ولقد كتب علينا وآبائنا وابنائنا ، ان نولد ونعيش هذا القرن ، الذي اطنبت به الكتب والمجلات ، وأشادت به الاحاديث والمقالات حتى لقد اصبح المفاخرون يرفعون صوتهم عاليا حين يقولون : اننا نعيش القرن العشرين منذ عصر البخار والكهرباء ، حتى عصر الفضاء والعقل الالكتروني والقنبلة النوترونية .

على أن الحق والانصاف والنظر البعيد ، يقضي علينا ان نذكر الحسنات والسيئات ، الى جانب بعضها بعضا ، فلقد تضافرت عوامل مختلفة ، في اثارة مشكلات كثيرة وكبيرة، ولسنا نستطيع اليوم ، ان نستثني بلدا أو أمة او موقعا على هذه الارض ، تعيش في

مأمن من الهموم ، أو بمعزل عن المشكلات ، ذلك أن عالمنا الحاضر ، مر بتغييرات كثيرة وعميقة ، وانقلاب شامل في جميع نواحي الحياة الانسانية ، ولعل بعض التطور العلمي المتسارع ، ببحوثه وكشوفه ومنجزاته ، الذي كان عليه ان يفضي الى تضاعف احترام الانسان وتقديسه ، وهو الركن الاساسي في هذا الكون الفسيح ، قد انقلب عليـــه خوفا وتهديدا وخذلانا ، حتى وجد ان العقل الاكتروني ، قد استبدل بعقله المفكر المبدع ، مع ان الانسان ، هو الذي ابتكر العقــل الالكتروني ، وان اجهزته المختلفة واطرافه ، اصبحت في متناول التغيير والتبديل ، وأمكن نزع اكثر احشائه ، لتوضع بدلا عنها احشاء اخرى ، بصرف النظر عن النتائج ، فالمريض الاول ، الذي أجرى له الاستاذ ـ برنار ـ عملية نقل القلب وزرعه ، لم يعمر اكثر من اشهر ، ومثله الاخرون ، حتى طلعت علينا اخبار العلم والاحصاء ، بان كل الذين نقلت اليهم القلوب لم يعيشوا ما كان مقدرا لهم ، الا واحدا بين المئات ، وان كان العلم والعالم ، قد صفقا طويلا ، لاول عملية اجراها ( برنار ) ، وربما كان هذا الاخفاق ، أحد الاسباب التي دعته الى العزوف مؤخرا عن الطبوالجراحة ،والانصراف الى السياسة والدفاع عن حقوق الملونين، الواقعين تحت وطأة التمييز العنصري ، ولا سيما بعد أن اصبح يشكو من رجفة وآلام شديدة ، في اصابعه ويديه .



ولعل انسان اليوم ، ينظر فيما حوله ، فيجد أنه أصبح الى بعض الحدود ، ساحة واسعة للتجربة والاهواء ، يؤخذ منه الدم قسرا اذا كان أسيرا ، ويطبق عليه أبشع أنواع التعذيب ، قبل ثبوت ادانته ، فتسمل عيناه ، أو يجز لسانه ، أو تقطع اصابعه واطرافه، وتجرب عليه الاسلحة المتطورة في ساحات الحروب ، كما تجرب عليه الادوية المبتكرة ، وألوان القهر والتمييز العنصري ، ولم يعد يستطيع كل فرد ايا كان ، أن يعرض بملء حريته ، ما انجزه عقلـه المبدع ، بل ان كل ما عليـه أن يعملـه ، هو أن يسير مدفوعا بالمنجزات التي تحيط به ، فوق جسر الحياة المهتز ، من شاطىء الى آخر ، حتى ينطفىء وتنتهي حياته ، أو انه بات يعيش فردا في هذه المجموعة المروضة ، التي يسيطر فيهـا القوي على الضعيف والمادة على الروح ، والمصلحة المتهافتة ، على الخير والحق والعدل ، كل ذلك ، على الرغم من الحرب الكلاميـة ، والاتهامات المتبادلة ، القائمة بين عدد من الدول ، حول احترام حقوق الانسان ، والتي بلغت حـد التهديد بسوء العلاقـات او قطعها ، وكل فريق يدعي أنه اكثر حرصا على احترام هذه الحقوق من الفريق الآخر .

واذا كان التسابق في صنع المركبات الفضائية ، والاسلحة المتطورة ، والقنابل الجهنمية ، يسير في ركاب هـذا المنهج ، فما الذي أفيد منه الانسـان ، العائش في صميم الخوف والقلق ، على مصير العالم الغامض ، أو كان يعيش حياته ، بقلب مريض أو رئة معطوبة ، وكبد مقروحة او معدة مجروحة ، وامراض مختلفة من الداء السكري حتى السرطان ؟ وما الفرق بين الحالتين ؟ وقد نشرت مجلة ( باري ماتش ) مؤخرا ، وبخط كبير على الصفحة الاولى ، جملة رائعة حين قالت : « ان السرطان الخطر المخيف ، هو سرطان النفس والروح » ، ولعل هذه الظروف العشوائية الصعبة ، هي التي تنطبق على ما قاله الاستاذ ( شافاس ) في المؤتمر العالمي للبيولوجيا ومصير الانسان ، الذي عقد في جامعة السوربون بباريز ، والذي مثلت فيه بلادي السورية ، قال : اننا نعيش اليوم عالما نجهله مفعما بالهموم والمشكلات ، ويؤسفنا اننا لم نستطيع حتى اليوم ، على الرغم من امكانات القرن العشرين ، أن نقضي على تلك السحب الداكنة التي تملا سماءه ، اذ ليس غيرالانانية والاستعلاء ، مايدفع كلا في نطاق اختصاصه الى العمل على اكتشاف خفايا الكونوالانسان، واذا اردنا التزام الحق والانصاف ، قلنا ان الدافع الحقيقي وراء كل الاعمال العلمية الحاضرة ، خيرها وشرها ، ينبعث من الخوف والقلق ، على مستقبل الانسان ومصيره ، في هذا العالم الحائر ، المحفوف بالخطر والضجر وعدم الاستقرار ، حتى ليمكن ان يقال مع كثير من الباحثين : ان كل المستحدثات والمنجزات العلمية والفنية ، هي وليدةرياضية عقلية ، محاطة بالخطر والتهور والغد المجهول ، ولاندري بعد ان كانت لخير الانسان والانسانية ، ام أنها لشره وقهرها ، ولانظن ان الوقت سيطول بين الحالتين ، ولكن تظل النتيجة الحتمية ، ان الانسان دائما هو الضحية الاولى ، لكل الحقائق العلميةوالنظريات الفلسفية ، والاتجاهات السياسية والمذاهب القديمة والمستحدثة .

هذا مادعا بعض العلماء والباحثين ، من اساطين الفكر والادب ، ورجال العلم والفن والدين ، ان يرفعوا صوتهم عاليا ، منادين باقامة مركز تسجيل دولي ، لمواطني العالم ، فقد نشات فكرة تاسيس هذا المركز ، على معطيات تتصل بما آلت اليه حالة العالم الحاضر ، تجاه مشكلاته العديدة ، التي لم تعد تدخل تحت حصر ، في مفارقاتها العجيبة: ضعف وقوة ، بؤس وترف ، فقر وغنى ، حرب وسلام ، صلح واستسلام مع دعاوىعريضة كاذبة ، في الحرص على السلام والعدل والحرية ، مذاهب سياسية واقتصادية واجتماعية، كل يعتقد أن ماجاء به هو الاصلح والامثل ، تمييز عنصري ، وطغيان الظلم والباطل ، على

الحق والعدل ، الى جانب خلل فاضح في النظم والمفاهيم الاخلاقية والتربوية ، حتى قام تمرد وعصيان ، بين الاب وابنائه ، وبين الرئيس والمرؤوس ، وعدت الطاعة الواجبة ، تنازلا عن الحرية ، دعوة الى الذل والعبودية ، كل ذلك الى جانب غضب الطبيعة بين آن وآخر ، بزلازلها وأعاصيرها وطوفاناتها ، بامطارها وسيولها الجارفة في جزء من العالم ، وشحها وجفافها في الجزء الاخر ، حتى لم يعد يجد كثير من السكان ، الماء الذي يشربونه أو يسقونه لمواشيهم ، فنفقت وضاع كثير من الثروات ، ومات العديد جوعا وعطشا ، دون ان تقوى الايدي الكريمة ، على المساعدة والانقاذ .

وفي المقدمة التي اعلنها العالم ( روبير ليتس ) في النشرة الدورية ( هلم الى التالية ) التي نشرها قبل بضعة شهور ، وكذلك في التقرير الذي رفعه العالم الاقتصادي (ميدوفس) فيما يجب البحث فيه بحثا جديا مستفيضا ، مما يتعلق بكل البشر على الارض ، تبين ان أهم مشكلات يومنا الحاضر ، وغدنا القريب او البعيد ، هي الامور التالية : تفجر عدد السكان ونقص المواد الغذائية ، وتراجع مساحة الارض التي كان يعيش الناس من خيراتها ، بسبب اقامة البناء عليها ، وتسارع الصناعة والتنافس فيها بين الامم ،واستهلاك الطاقة المتعاظم ، حتى بات يهدد انعدامها ، واخيرا تلوث البيئة ، الذي اصبح حديث الساعة في كل مكان . ولقد قدر العالم ( روبير ليتس ) مؤخرا ، ان الزمن لن يطول حتى تظهر الاثار السيئة لهذه المشكلات ، وان كانت تباشيرها ، قد ذرت قرنها منذ عهد قريب، ولكنها ستبلغ الذروة ، بعد بضع عشرات من السنين ، وربما كان عام الالفين طليعة الاثار الواضحة ، اذ سيزداد حينئذ عدد السكان ، زيادة هائلة . وتذكر الاحصاءات المختلفة ، على مابينها من تفاوت ، أن عدد سكان الارض ، لم يكن يزيد على ثمان مائةمليون نسمة ، في عام الالف وستمائة وواحد ، وانه اصبح في عام الالف وتسعمائة وسبعين ، ثلاثة مليارات وست مائة وخمسين مليونا ، فاذا استمرت الزيادة على هذا المنوال ، فسيصبح عدد سكان الارض ، حوالي سبعة مليارات او اكثر ، في عام الالفين ، ويذكر التاريخ ، ان عدد نفوس القطر المصري ، حينما دخله ( نابوليون ) لم يكن يزيد على مليونين ونصف، وذلك قبل أقل من مائتي سنة ، فاذا هو يصبح اليوم اثنين واربعين مليونا ، وان عدد نفوس الهند ، كان اقل من مائة مليون نسمة ، منذ عهد غير بعيد ، وأخذ يزداد حوالي ثلاثة عشر مليونا كل عام ، فاذا هو هو اليوم ، يزيد على خمسمائة مليون ، وتدل هذه الامثلة،

على ان عدد نفوس البشر ، قد زاد عدة اضعاف ، خلال قرنين من الزمان ، وهي زيادة مذهلة حقا ، فكيف لانشهد بعد هذا تفجرا سكانيا سوف يقف العالم حياله مشدوها ، لايدري كيف يوفر له الغذاء والكساء والماوى والدواء . ومنذ عهد قريب ، زار مصر ،مدير البنك الدولي ( ماكنمارا ) ، وافصح امام المسؤولين ، عن ذهوله ودهشته ، من تزايد النفوس المتسارع ، وصرح بانه يتوقع ، اذا ما استمر التزايد على النحو الحاضر ، أن يصل عدد نفوس القطر المصري ، الى سبعين مليونا في عام الالفين ، ولم يخف خشيته وتشاؤمه ، من هذا التزايد الكثير ، مبديا خوفه الشديد ، من العجز عن اطعام واسكان هذا العدد الهائل في المستقبل القريب .

وانه لمن المفارقات العجيبة ، ان ينقلب عالم الطب والاجتماع ، من البحث عن اكسير الحياة ومكافحة المرض والموت ، الى الحد من تزايد نفوس البشر ، بالوسائل المختلفة ، باسم تنظيم الاسرة . واننا لم نفعل ، فستطلع علينا ايام قاسية ، قد يموت فيها الاحياء جوعا او اختناقا ، او انسماما جسميا ونفسيا ، او يعيشون بين الضحايا المتساقطين الذين حرموا الغذاء والماء والهواء ، ان لم نكن نحن من شهودها ، فقد يشهدها الاحفاد والاجيال القادمة ، ومن أسباب هذا التفجر السكاني ، تقلص الامراض السارية التي كانت تحصد السكان بالالاف والملايين، والوعي الصحي، ووسائل الوقاية الصحية والمعالجة من الامراض المختلفة ، فلم يعد يموت عدد كبير من الاطفال ، كما كانت الحال في الماضي ، ولم يعد يموت كثير من الشباب والكهول ، بالسل والتيفوئيد والحميات المختلفة ، اذ استطاع العلم أن يجد لها جميعا ، ادوية ناجعة ، كما نقص عدد الوفيات بين الكهول في سن مبكرة وطالت اعمار الشيوخ ، وبتنا نشاهد عددا اكبر ، ممن تجاوزوا الثمانين ، اذ تضاعف عددهم خمس مرات ، ما بين اليوم وما قبل مائة سنة ، كما تبين ان معدل الحياة الوسطي الذي لم تكن تزيد نسبته في اوائل القرن الماضي ، على سبعة وعشرين عاما ، قد ارتفع في يومنا الحاضر ، الى خمسة وستين ، ولاسيما في البلاد الراقية ، وبلغ في بعضها تسعة وستين . وقدانقسم الباحثون حول ذلك فريقين ، احدهما يركز اهتمامه على منع تزايد البشر ، والثاني يحصر جهده في اساليب اطالة العمر ومنع الشيخوخة ، واتخذ كل منهما سبيله لتحقيق غايته ، فاستعملت اولا بعض الادوية والحشائش ، كوسيلة مجهضة ، الى ان شاعت حبوب منع الحمل ، التي ظهرت لها بعض المضاعفات ، كما استعملت اللوالب وتسليط الاشعة على المبيض ، أو اجراء بعض

العمليات الجراحية ، للرجل او المرأة ، واقترحت حقن للمرأة يمكن ان تمنع الحمل لمدة ثلاثة اشهر ، وحقن للرجل ايضا تشل فاعلية الحيوانات المنوية مدة طويلة ، ولكن البحث فيها لم يستكمل بعد .

وعلى الرغم من كون الحبوب مؤكدة التأثير ، فان كثيرات من النساء ، رفضن استعمالها مع انها تقدم لهن بالمجان ، كما هي الحال في الهند ، وبعض البلاد الاخرى .

أما الفريق الثاني ، فقد كانت ابحاثه استمرارا لما قام به الاقدمون ، الذين لم يتركوا وسيلة للمحافظة على الشباب ومنع الشيخوخة او اطالة العمر ، الا وسلكوها ، ابقاء على القوة الجسيمة والجنسية والعقلية ، ودفعا للحسرة والسام وسوء الاحتمال .

وانهمك الباحثون سعيا وراء الحصول على ما أسموه اكسير الحياة ، وراحوا يجربون ويظنون ، وراح الناس يصدقون ويطبقون ، قالوا ان رؤوس اليعاسيب ( ملكات النحل ) وهي التي تعمر طويلا ، تحتوي على ذلك الاكسير ، فصنعوا منها الهلام الملكي ، الذي طغت شهرته على فائدته ، وقالوا ان العسل الذي يحتوي خلاصة مجموعة من مختلف الازهار ، هو الاكسير بعينه ، وراح آخرون يظنون بفوائد اللبن الرائب ، والذي كنا نعرفه عن هذا اللبن ، انه غذاء جيد بريء ، يطهر الامعاء بخمائره وبحمض اللبن الذي يحتوي عليه ، ينصح به للاطفال والمرضى ، لمعالجة الاسهال التالي للعفونة المعوية ، وكنا ولانزال نمنع الحليب ومشتقاته ـ واللبن الرائب منها ـ عن المصابين بزيادة الكولسترول ، والجلطة وارتفاع الضغط وتصلب الشرايين ، ومنذ حين اخذ الباحثون الامريكيون يتحدثون عن فوائده الاخرى ، بعد أن تأكدوا ان قبائل ( المازاي ) العائشة في كندا وبعض اطراف امريكا ، لا يعرفون شيئا عن الامراض المذكورة ، اذ يتناول أحدهم كل يوم ، أكثر من لترين من اللبن الرائب ، وقد تابع الباحثون دراستهم ، لمعرفة السر في ذلك ، فتبين لهم ان خمائر اللبن ، تحتوي حمضا شحميا غير مشبع ، يمنع تشكل الكولسترول في الكبر ، وقد نشر الاستاذ ( جورج مان ) من جامعة ( فاندر بيلت ) في الولايات المتحدة ، بحثه هذا في العدد الثاني لعام الفوتسعمائة وستة وسبعين من مجلة ( Medicine digest )

ومع ذلك ، فهو يقول في آخر بحثه ، ان الامر لا يزال بحاجة الى متابعة البحث قبل اقراره نهائيا . وطلع ( فورونوف ) العالم الروسي المتفرنس ، بعملية التطعيم الخصوي ،

التي ظلت وقتا غير قصير ، مثار الدهشة والاعجاب ، وخرجت على العالم ، الطبيبة الرومانية الاستاذة ( اصلان ) بفوائد استعمال البروكائين ، المخدر الموضعي ، حقنا وريديا او بطريق الفم ، مؤكدة انه يطري الشرايين ، ويمنع تصلبها ، ويطيل العمر ، لاعتقادها كسواها ، ان الشيخوخة الحقيقية ، هي شيخوخة الشرايين وتصلبها ، وماينجم عن ذلك من نقص الرواء ، في مختلف الاعضاء ، من الدماغ والقلب وبقية الاحشاء ، الى العظام والمفاصل والعضلات ، مع ان الشيخوخة ، هي الضعف الحادث في كل الاحشاء ، التي طال العهد على قيامها بوظائفها ، وان انحلال الاعضاء وضعف الغرائز وانهيار القلب والكبد والكليتين ، ووهن الاعصاب والعظام والعضلات ، وضعف السمع والبصر ، وعجز الدماغ عن الاستمرار في العمل المرهق اليومي ، كل ذلك ، يؤدي الى الشيخوخة والهرم ، ويجعل الموت قدرا حتميا ، ان لم يكن باحد الامراض الطارئة ، فبالانحلال الطبيعي كما يقولون . ويصر فريق من الباحثين ، على ان العمر الطويل ، مرتبط بالوراثة ، وانها تلعب في ذلك دورا هاما ، وكذلك الطريقة التي عاش عليها الانسان، منذ ما كان في صلب ابيه او بطن امه الى ان يرى النور ، حيث ينشا تنشئة وقائية وصحية ، حتى اذا أدرك وعقل ، عرف كيف يتحكم في وظائف اعضائه وغرائزها ، وفي عواطفه وحدودها ، وكيف يلتزم النظام في العمل والراحة والرياضة ، جسميا وفكريا، وكيف يراعى قواعد حفظ الصحة ، فلا يخلط في الطعام ، ولا يبالغ في السهر ، ولا يدخن أو يتعاطى المشروبات الروحية او المخدرات ، ولايستسلم لرغباته الجنسية ، ولايتعرض للغضب والانفعال ، ولا تستاثر به حوادث الشدة والاكدار . ولانزال نقرأ كل يوم ، ابحاثا جديدة عن اطالة العمر والقضاء على الشيخوخة ، ينشرها علما ء باحثون ، وقفوا انفسهم طوال عدة سنين ، على البحث عن اسرار العمر الطويل ، ومنها مانشر مؤخرا عن اطالة العمر الى مائة وخمسين سنة او اكثر ، وذلك بالاستفادة من هرمون الغدة السعترية ، النشيطة والنامية في الاطفال والفتيان ، وقد قام بالبحث فيها منذ عشرين عاما ، العالم السويدي ( صاندبرغ ) ووجد انها تفعل فعلا عجيبا في المحافظة على الشباب وتاخير الشيخوخة واطالة العمر ، مثلما جرب استعمالها في بعض حوادث السرطان ، وحذا حذوه بعض الباحثين في تاخير الشيخوخة ، وعلى راسهم العالم الاحيائي ( كارول ويليامس ) في جامعة ( هرفارد ) ، اذ استخرج خلاصة من رؤوس بعض الحشرات ، وجربها في معالجة المصابين بالسرطان ، وذلك خلال السنوات العشر الاخيرة ، ولايزال هذا البحث آخذا مايستحقه من الاهتمام . وقد تبين للعالم (صاندبرغ)

أن خلاصة الغدة السعترية ، تعد من احسن أدوية السرطان والابقاء على الشباب اذ وجد فوائدها واضحة ، في سرطان الثدي والبروستات وسرطان الدم ، وقد تجلت نضارة الشباب في تجاربه ، بغزارة الشعر وعودة الشائب منه الى السواد ، مثلما شاهد تراجعا في أعراض تصلب الشرايين ، وضخامة البروستات ، وامراض العين ، ولا سيما السواد الشيخي ، وقد صرح أن معالجة متوازنة بخلاصة الغدة السعترية ، يمكن أن تطيل العمر الى مائة وخمسين عاما . ولقد قام الى جانب هذه البحوث الهامة ، من يعترض عليها ويعارضها ، وصرحت زمرة من هؤلاء المعارضين ، ان اطالة العمر عشر سنوات عن الحد المألوف ـ ويقدرونه بثمانين عاما ـ يؤدي حتما الى الخراب الاقتصادي في كل العالم ، وربما كان هؤلاء المعترضون على بعض الحق ، اذ انه اضيفت اطالة العمر الى التفجر السكاني ، فلن يجد البشر من الغذاء ما يمسك الرمق ولاسيما من المواد البروتينية ، وهي غذاء اساسي ضروري ، ليقوم الجسم بأوده وعمله ، فينتشر الجوع والهزال ، ويعيش المحرومون على هامش الحياة ، او من فئات الثروة الفائضة في الدول الغنية او النفطية ، التي لا تعود تتخلى عن هذا الفائض بيسر وسهولة ، على الرغم من ادعائهم بانهم انما زادوا سعر البترول ، ليردوا جزءا كبيرا من هذه الزيادة ، على الدول النامية والفقيرة ، فاذا هم فعلوا ذلك خلال عشر سنوات ، أتراهم فاعلوه حينما يبلغ التفجر السكاني أوجه في عام الالفين كما يتوقعون ؟ ولكن هل وقف العلماء والباحثون حيارى تجاه هذه المشكلة ، ام ادت بحوثهم وجهودهم ، الى تزويد البشر بمصادر جديدة من المواد البروتينية ؟ فاذا عدنا قليلا الى الماضي البعيد ، وجدنا ان غذاء الانسان في العصور الموغلة في القدم ، يعتمد على صيد البر والبحر ، ولم تظهر الزراعة البدائية ، الا في العصر الحجري الاخير ، حيث شرع بزراعة الاراضي للحصول على منتوجاتها بجهد اقل من مشقة الصيد والقنص ، وقد دعي ذلك العهد ، بالثورة الخضراء ، وكانت النساء هي التي تهتم بزراعة الارض وقطف الخضار والثمار ، ولانزال نرى رواسب هذا الاسلوب، الذي استمر خلال العصور ، موجودا في كثير من البلاد النامية ، كما هي الحال في بعض القرى السورية ، فزرعت الحبوب قرب المساكن ، وبذلك نشأت القرى والمدن ، بينما كان الناس قبل ذلك ،ينتجعون الاماكن المختلفة ، بالتنقل المستمر ، والبقاء بمقى الوقت، حيث يطيب العيش ويكثر الخير ، وبعبارة اخرى ، كان معظم البشر ، من زمرة الرحل والغجر ، ثم تكاثر البشر فتنوعت الزراعة ، وراح الناس يلتصقون بالارض ويتعلقون بها ، وأخذوا بالتجربة والمران ، يتبعون الطريق الافضل ، للحصول على انتاج زراعي جيد

ووفير ، فلما ازداد عدد البشر ، وكثرت الحاجة الى الغذاء ، قام المصلحون بارشاد المزارعين ، واقيمت المزارع النموذجية ، وتالفت فرق من المرشدين ، لبيان أفضل الطرق في الزراعة المنتجة ، واصبح الشعار الاساسي ، اذا اردت ان تحصل على انتاج زراعي جيد ووفير فعليك بالارض تحرثها وتحرثها ثم تسمدها وتسمدها ، ثم تسقيها حتى تمام الارواء ، وهذا الاسلوب هو ما شرحه العالم الزراعي ( كاتون ) في كتابه الشهير : ( الزراعة ) ، حيث عرض أفضل الطرق ، في الحصول على المواد البروتينية من القمح وفول الصويا والذرة والارز والقمح القاسي ، وذلك بطريقة التهجين ، فيستحصل على اصناف تفوق بصفاتها وغناها ، الانواع القديمة ، وربيت في الاقفاص الزجاجية ، نباتات كثيرة ، اكتسبت بالتدفئة والتسميد والنور ، صفات من الجودة ، لم تكن معهودة بها من قبل ، كما جد الباحثون ، لمعرفة أفضل الطرق في تربية المواشي ، التي يستفاد منها في الحصول على أكبر مقدار من المواد البروتينية ، فانهمكوا بتحسين الابقار الحلوب ، بحيث قدر انتاج الاصيلة منها ، بين خمسة وعشرين وثلاثين كيلو غراما من اللبن كل يوم ، كما تعطي العجول اكبر مقدار من اللحم ، وذلك باللجوء الى التلقيح الاصطناعي ، الذي اصبح ميسورا بفضل السائل المنوي المحفوظ بالتجميد ، والماخوذ من افضل انواع الثيران ، كما اجري مثل هذا التهجين ، على النعاج والدجاج ، مثلما اهتم الباحثون في اقامة المسامك لتربية أفضل انواع السمك ، اضافة لما يجنى من البحار والبحيرات والانهار .



وليس ينكر أحد دور الماء ، هذا العنصر الاساسي ، في حياة الانسان والحيوان والنبات على السواء ، وصدق الله تعالى في قوله : وجعلنا من الماء كل شيء حي ، لهذا كان الجفاف الذي اصاب افريقيا الغربية منذ اعوام ، ومازال يلاحقها ، سببا هاما في العطش المميت ، الذي نفقت به المواشي ومات غير قليل من السكان ، عطشا ومرضا ، كما تاثرت في العام الماضي ، معظم الاراضي الزراعي في فرنسا ، بسبب الجفاف الشديد ، وطالب المزارعون الدولة ، باسعافهم واعفائهم من الضرائب والديون .

ومن المواد البروتينية الهامة ، ما استحصل من مزروع الخمائر على البترول ، حيث تتغذى بالبارافين ــ وهو الشمع الابيض ــ الذي ينقلب فيها الى مواد بروتينية ، فتغسل وتصنع لتصبح شبيهة بشريحة من اللحم الطبيعي ، وهي اليوم ، تستحصل بمئات الاطنان ، في عدد غير قليل من الدول الصناعية المتقدمة ، وتدخلها في كثير من الاغذية

المحفوظة ، التي تأكلها بنهم وشهية ؛ وعلى الرغم من جميع هذه البحوث القيمة ، التي سدت غير قليل من العوز ، وعلى الرغم من قيام منظمة الاغذية والزراعة بجهود لا تنكر ، فان غير قليل من البشر ، لايزال يعاني الجوع والفقر والعطش ، بله المسكن والملبس . وفي الدورة التاسعة ، لمنظمة الاغذية والزراعة ، التي انعقدت في روما منذ عهد قريب ، أعلن مديرها العام الاستاذ ( ادوار صوما ) انه لمن المؤسف حقا ان تسوء حالة كثير من البشر ، حتى أصبحوا ضحايا جوع وحرمان ، تدين الضمير العالمي وان تبلغ نسبة الوفيات بين الاطفال المحرومين ، ثمانية اضعاف ما هي عليه في البلاد المتقدمة ، وان مليارا من الذين يتخطون مرحلة الطفولة ، يعانون في اجسامهم وعقولهم من سوء التغذية ، ما يؤدي الى موتهم في سن مبكرة . واعلن بعض المعلقين على هذا الحديث بقولهم : انه لمن العار ان يتضور غير قليل من البشر جوعا وحرمانا ،وان يقوم في الوقت نفسه ، رئيس أصغر دولة افريقية فقيرة ، باعلان نفسه امبراطورا ، فيضع على رأسه تاجا مزينا بماسة وزنها مائة وثمان وخمسون قيراطا ، وان يتشح برداء من المخمل الاحمر ، يضم سبع مائة وثمان وخمسون الف لؤلؤة ، مصفوفة على هيئة الشمس والنجوم ، وان يجلس على عرش وزنه ثلاثة اطنان ، ويركب عربة مطلية بالذهب والعاج ، وهذا لعمري مهزلة المهازل في هذا القرن العشرين .

ولقد أدى تزايد البشر ، الى نقص واضح في مساحات الارض المزروعة ، بسبب اتخاذها مساكن لايواء الاعداد المتزايدة ، ومثل هذا الاعتداء على الاراضي الزراعية ، لجعلها مساكن ومعامل ومستودعات ، قد حدث في بلادنا السورية ، مع وفرة الاراضي القاحلة ، التي تصلح لان تقام عليها هذه المؤسسات . وأوضح مثال على ذلك ، حرمان مدينة دمشق ، من حزامها الاخضر الجميل ، الذي كان يطوقها ؛ ولقد كان لقرار المسؤولين ، بمنع مثل هذا الاعتداء على الاراضي الزراعية ، وقع جميل لدى المواطنين ، الذين المهم ان يتم اتساع المدينة ، على حساب الرياض والحقول والبساتين ، التي كانت متعة للجسم والعين والنفس ، تجمل المدينة ، وتغل الخير الوفير ، وتنقي الهواء والاجواء ، وحبذا لو انشأت تلك المؤسسات ، في الاماكن البعيدة الخالية ، واقيمت بدلا عنها حدائق ورياض عامة ، يرتادها الصغار والكبار ، طلبا للراحة والمتعة والشمس والهواء ، في ايام العطل والفراغ ، كما هي الحال في البلاد المتقدمة .

اما استهلاك الطاقة ، فيعد اليوم ، شغل العالم الشاغل ، ولاسيما في الدول الصناعية ، التي تاثرت كل التاثر ، حينما استعمل العرب حقهم في استخدام سلاح البترول ، أداة للضغط على الدول العديدة ، التي صمت آذانها عن سماع الحق العربي ، وذلك لما أصاب معاملها وصناعتها من شلل ، ادى الى اضطراب واضح في نظامها الاقتصادي، وفي دخلها القومي ، بل دعا الى اتباع حياة التقشف والقناعة ، والى انقاص ساعات العمل ، والاقتصاد كثيرا في استهلاك الطاقة ، حتى في التدفئة والاستعمالات اليومية ، ولعل الخوف من العودة الى استعمال هذا السلاح مرة اخرى ، أو توقع نضوب هذا المرفق الحيوي الهام ، وعدم امكان الحصول على البديل الحقيقي حتى اليوم ، على الرغم من البحوث القائمة ، حول الاستفادة من الطاقة الشمسية ، والذرية ، والمائية ، والغاز الطبيعي ، والبخار المندفع من باطن الارض العميق ، والحرارة الجوفية الواقعة على بعد اميال من سطح الارض ، كل ذلك ، دعا غير قليل من الدول ، الى التسابق في استخدام المفاعلات الذرية ، والى انشاء المستودعات الكثيرة الواسعة ، لتخزين البترول، بحيث يكفيها في حال انقطاعه ، حوالي ستة اشهر او اكثر ، وهذا ايضا ما دعا رئيس الولايات المتحدة ، الى أن يرسل نداء عاليا للمواطنين ، والى اتخاذ قرار بتخفيف استهلاك الطاقة ، عرض على الكونغرس الامريكي ، واحدث اخذا وردا كثيرين ، واعترض عليه غير قليل من النواب .



اما تلوث البيئة ، فيعد كذلك من اهم أحاديث الساعة في يومنا الحاضر ، ويعود سببه الاكبر ، الى انكباب الكثير من الامم ، على اقامة المعامل الصناعية ، واستخدام الطاقة والمواد الكيمياوية ، المدنية والعضوية ، والى ما تنفثه محاصيل الاحتراق ، من المعامل والسيارات وجميع المحركات ، حتى من دخان اللفائف في المقاهي والمجتمعات ، وتنشره في الجو عامة ، او في الاماكن المحصورة ، مثلما تنصب فضلاتها السامة ، في البحار والانهار ، هذا بالاضافة الى ما تسببه كثرة السكان ، من استهلاك اهم عنصر في الحياة ، وهو الاوكسجين ، كل ذلك ، يجعل الجو والارض والماء ، مفعمة بالسموم الضارة للانسان والحيوان والنبات على السواء . مثلما تصيب بالضرر البالغ ، الثروة السمكية ، اذ تموت الاسماك القريبة من السواحل ، فضلا عما يمكن ان يصيب البحار ، من انتشار طبقة واسعة من الزيت ، حينما تصطدم ناقلات البترول ، كما حدث غير مرة ، وكما حدث مرة ، في سواحل جنوبي افريقيا حيث طفا الزيت على مساحات واسعة

من البحر ، فاختنقت الاسماك الكثيرة ، لحرمانها من الهواء الذي تتنفسه ، كل هـذا يشغل بال العلماء والباحثين ، ويثير الضجة العارمة حول هذه المشكلة ، التي اصبحت تتردد على كل شفة ولسان : تلوث البيئة .

ولعل من أهم مشكلات العالم الحاضر ، هو القلق المستمر ، الناجم عن عدم الاستقرار في حياة وادعة مطمئنة ، ولذلك فان معظم المفكرين والمصلحين ، يصرفون جهودا كبيرة في استنباط أجدى الحلول واكثرها استجابة لرغبات بني البشر عامة ، في محو التهديد المستمر ، بحرب قريبة لا تبقي ولا تذر ، بعد أن انحصرت هموم الدول بتفضيل السلاح على الغذاء والدواء ، وبعد أن أصبح كل من الدولتين العظميين ، يملك من الاسلحة الجهنمية ، في تسابق القوة والاستعلاء والى تغلغل أفظع من عرفوا بالضرر والأذى والخراب، وجمع الذهب والمال الوفير ، عن طريق الفساد والحروب الهدامة ، ألا وهو الصهيونية .

وان ما نسمعه كل يوم ، عن مفاوضات للسلام ، ومن مؤتمرات لنزع الاسلحة المتطورة ومنع الاسلحة الذرية ، ليس الا حبرا على ورق ، كما يقال .



واذا استعرضنا مختلف المشكلات التي سبق ذكرها ، نجدها مجموعة حلقات يرتبط بعضها ببعض ، وان كلا منها نتيجة وسبب ، فزيادة السكان ، تدعو الى الحاجة الى الغذاء والكساء ، والمأوى والدواء ، وهذه الحاجة ، تجر الى زيادة الصناعة لزيادة الانتاج . ويؤدي نمو الصناعة الى استهلاك المزيد من الطاقة ، في المعامل والمحركات ، في القاطرات والسيارات ، وفي كل ما يحتاج الى الطاقة ، التي تستهلك الاكسجين ، وتنبعث منها غازات الفحم السامة ، ثم تنطلق محصولاتها في المحيط والاجواء ، وفي البحار والانهار، ويفضي جميع هذا الى تلوث البيئة ، في كل ما يحيط بالبشر ، العائشين في هذا الكون ، المملوء بالسموم والاقذار ، الجسمية والروحية .

وبعد ، لئن كنت قد ألممت بطرف من المشكلات العالمية ، التي تهدد البشر في اليوم والغد مثلما تهدد الابناء والاحفاد ، فلن استطيع انهاء هذا البحث دون ان آتي على ذكر ما يشغل بالنا نحن الاطباء ، من جراء هذا التطور العام في حياة الانسان ، منذ ما ظهرت بوارق النهضة العلمية الحديثة ، التي كان لها فضل في تقليص عدد غير قليل ، من الحميات والامراض الانتانية السارية ، ذلك ان كل الجهود التي بذلها العلم والطب

خاصة ، لم تمنع مضاعفة غير قليل من الامراض ، التي كانت ضئيلة فيما مضى ، فزادت زيادة كبيرة في وقتنا الحاضر ، مثلما ظهرت امراض جديدة ، لم يكن لنا عهد بها من قبل ، ابرزتها المدنية الزائفة كما اسهم في ظهورها سوء استخدام الحرية ، والاغراق في تعاطي التدخين والمخدرات والمشروبات الكولية والروحية ، واصبح على الطبيب تجاه ذلك ، أن يتسلح بالدقة والتحقيق العميق ، للوصول الى كنه الامراض الناجمة عنها . ولقد قررت البحوث والاحصاءات الاخيرة ، ان كثيراً من الامراض الاخلاقية والاجتماعية والسياسية ، يعود امرها في كثير من الاحيان ، الى انحراف الجسم عن محوره الطبيعي ، بسبب مرض عضوي الم به ، وفي كتاب ظهر في الولايات المتحدة عن حياة ( هتلر ) ، تابع مؤلفه حتى الاعماق ، ما كانت عليه حياته الصحية ، فتبين له أن ( هتلر ) مصابا بداء الافرنجي العصبي ، وان جنون العظمة ، الذي كان أبرز المظاهر في تصرفاته العسكرية ، لم يكن الا نتيجة اصابته بهذا الداء العصبي ، فليس من العجيب بعد هذا ان نقول : ان غير قليل من الامراض الاخلاقية والاجتماعية والسياسية ، يقع على عاتق اطباء الاجسام ، مثلما يقع على كاهل المصلحين الاجتماعيين .



واذا كانت الكشوف العلمية والطبية ، قد قضت على معظم الامراض السارية ، التي تنتقل من المريض الى السليم ، في المدارس والنوادي ، في المساجد والكنائس ، في المقاهي والملاهي ، وفي كل ما يدعو الى الاختلاط ، وذلك بفضل اللقاحات والمصول والمرديات ، والعزل في المحاجر ، والوعي الصحي ، وما تقوم به منظمة الصحة العالمية ، من اعمال جليلة ، فان كل هذا لم يمنع تكاثر الامراض القلبية والكبدية والمعدية والكلوية ، التي يرتبط معظم اسبابها بحياة الشدة والقلق ، وبالمدنية الزائفة ، وفساد الاخلاق والعادات ، ولذلك دعونا بعضها بامراض الشدة ( Stress ) ، وقد اقامت هذه الامراض المتكاثرة اليوم ، مشكلات عديدة في وجه المرضى والاطباء ، لتطورها ووفرتها وسوء نتائجها ، وعلى رأس هذه الامراض احتشاء القلب ( الجلطة ) والقرحة الهضمية ، والداء السكري ، وارتفاع الضغط الشرياني ، ووهن الاعصاب والخور ، ويمكن أن نحشر معها السرطان ، الذي ثبت أن للتدخين والتحريش بالقول والحموض ومحصولات الاحتراق ، أثراً كبيراً في احداثه ، وان التبغ ليفعل في الجسم ، وهو الذي يتناوله المدخن مختاراً ، فعلا أشد ضرراً من كثير من السموم التي يخشاها الانسان ، وهو الذي يحدث تصلب الشرايين واحتشاء القلب ( الجلطة ) والتهاب المعدة ، وسرطان الرئة والشفة واللسان ،

مثلما يؤذي الغول والمشروبات الروحية والمخدرات ، كل عضو في جسم الانسان ، اذا لم تبد آثاره عاجلة في الشارب المدمن ، فلا بد أن تظهر آجلة فيه أو في جسم أولاده أو في عقول أحفاده . فأما الجلطة ، فتعد مرض العصر الحاضر ، في الشباب والكهول والشيوخ، وهي مرض كان عدد اصاباته ، أقل كثيرا مما هو عليه في الوقت الحاضر ، فقد نشر أحد الباحثين الامريكيين مقالا ، أكد فيه أن نسبة الاصابة بهذا المرض ، قد زادت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في العهود الماضية ، ويرد سبب ذلك الى توتر الاعصاب المستمر ، وقسوة الحياة الحاضرة ، والشدة اللازمة للجهاد المادي والاجتماعي والسياسي ، ويرى ان هذا المرض ، سيظل ملازما متزايدا باطراد ، ما ظلت العوامل الاجتماعية القاسية ، وما دام الخوف والقلق وعدم الاستقرار، ويكثر هذا المرض ، مثلما تكثر القرحة الهضمية، في البلاد التي تكثر فيها الحركة والصخب والعمل الآلي المستمر ، كما هي الحال في الولايات المتحدة وأمثالها من البلاد ذات الحياة المشابهة ، ويقول هذا الباحث الامريكي ، لو أخذنا مائة انسان من الطريق ، من غير معرفة سابقة ، واستقرأنا حالة قلوبهم بالفحص الدقيق والتخطيط لوجدنا بينهم ما يقرب من عشرة بالمائة ، مصابين بالاحتشاء الخفيف أو تشنج الشرايين أو تصلبها أو الاستعداد لها ، ولو تقرينا حالة جهازهم الهضمي ، بالفحص السريري والتصوير الشعاعي أو التنظير ، لوجدنا بينهم حوالي عشرين بالمائة على الاقل ، من المصابين بالقرحة الهضمية أو التهاب المعدة أو المستعدين لها ، وهذه لعمري نسبة كبيرة جدا ، اذا ما قيست بنسبة الامراض الاخرى ، التي تصيب بقية المواطنين ، ومثل هذه النسبة قد نجدها في المصابين بالداء السكري أو ارتفاع الضغط الشرياني . وقد أطل منذ ما قبل الثلاثينات من هذا القرن ، وعلى نطاق واسع ، عنصر من عناصر التردي والفساد ، ألا وهو استعمال المخدرات ، من الحشيش والهروئين والكوكائين ، الى غيرها مما يسلب العقول والافكار ، والتي كثر انتشارها في الولايات المتحدة وغيرها من بلاد العالم ، بين الصغار والكبار ، حتى بين فتيان المدارس وفتياتها ، وخلعت على هؤلاء وأولئك ، لباس الحرية الزائفة ، التي تجلت بالهيبية والخنفسة ومعانقة الكلاب على الارصفة ، في غمرة النشوة بالمخدرات ، ولا ندري بعد بماذا سيطلع علينا الغد القريب . وإذا كنت الح على مختلف هذه العوامل الاجتماعية ، التي تبعدنا عما نبتغيه من المثالية والخير للانسانية ـ مع أن معظمها أصبح شائعا معروفا ، فما ذلك الا امعانا في التحذير ـ ودفعا للردة العكسية ، وقد بتنا نحن الاطباء ، نشاهد الكثير من حوادث الخور والضعف النفسي والاضطراب العقلي ، وهي حوادث ، وان كنا نجهل

بعض اسبابها الحقيقية ولكن الباحثين ، يجمعون على ان للوراثة دخلا كبيرا في حدوثها ، ولكنها بحاجة الى العوامل التي تثيرها وتنبه ظهورها ؛ ويرى العالم الانكليزي ( وليام سرجان ) ، ان الظروف العالمية الحاضرة ، قد زادت كثيرا منها ، وتبين له بالاحصاء ، ان هؤلاء المرضى ، يشغلون في المستشفيات البريطانية ، ما يقرب من نصف عدد الاسرة ، ويوضح ان سببها الغالب ، خلل في التوازن والتناسق ، في الاعصاب المسيطرة على حياة الانسان يبدو بشكل حلقة معيبة ، تحيط بحياة الشباب والكهول ، وان الامة لتخسر في هؤلاء الواهنين ، جزءا غير قليل من قوتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وبعد فاني لآمل الا أعد في زمرة المتشائمين ، ولكني عرضت الحقيقة ناصعة لا لبس فيها ولا غموض ، واشهد اني لم اوف هـذا الموضوع بعض حقه ، ولكنها باقة من كل بستان وخميلة ، قد يكون منظرها جميلا ولكنها ضنينة بالمسك والعبير ، واني لأرجو للبشر كافة ، ان ينظروا الى هذا الواقع المفروض ، على انه قدر كتب على البشرية ان تعيشه ، وما علينا الا أن نستنصر العلم والفن والعزم والعزم ، في انتزاع الاشواك من طريق الحياة ، وفرشها بالورود الى ان تحل المعجزة الخارقة .

# الواقع والرواية

محمد كامل الخطيب

تحاول هذه الدراسة ان تستقرىء العلاقة بين الرواية والواقع الاجتماعي العربي عبر دراسة تطبيقية لثلاث روايات (*) كان هذا الواقع خيوط نسيجها الفني ومدار عالمها الروائي . هذه الروايات ، تشترك في كونها نتاج مرحلة واحدة ، وبالتالي تصدر عن واقع محدد واحد .



تنطلق هذه الدراسة من مقولة محتواها أن اية نظرية حول علاقة الادب بالواقع الاجتماعي عموما انما يجب أن تتاسس بدراسات تطبيقية ، منها تستخلص النظرية او الراي .

## ١ ــ الف ليلة وليلتان ــ هاني الراهب

تمتد رواية « الف ليلة وليلتان » الى الواقع الفعلي المعاش في احداثها . عاكسةبذلك امتداد الواقع الفعلي نفسه في الفن عموما . ولهذا ، فالتاريخ ؛ اي المرحلة الاجتماعية تحديدا ، وهي في حالتنا سيطرة البرجوازية الصغيرة ، مهم جدا سواء في بناء هذه الرواية ام في فهمها ، فالوضع الاجتماعي هو « الشرط التاريخي » لشخصيات هذه الروايةوبالتالي فان الانتماء الطبقي لهذه الشخصيات ، والتي هي جميعا من البرجوازية الصغيرة ، فيمرحلة سيطرة وازمة هذه الطبقة ، سيكون العامل الحاسم في تكوين هاته الشخصيات ، وفي اختياراتها ومن ثم فهمها .

---

★ ١ ــ الف ليلة وليلتان . هاني الراهب . اتحاد الكتاب العرب . دمشق ــ ١٩٧٧ .
٢ ــ يحدث في مصر الان : القاهرة ١٩٧٧ .
٣ ــ الخبول : وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٧٦ .

تتحرك الشخصيات على شاشة بانورامية واسعة ، ليس هناك شخصية محورية او مركزية ، هناك بانوراما كاملة ، لمرحلة تاريخية ـ اجتماعية ، كما تعيشها طبقة معينة، يمثل على هذه الشاشة البانورامية ، والتي تربطها أسباب كثيرة وبالواقع الفعلي ، شخصيات متعددة وكثيرة ، لكنها في جوهرها واحدة ، اي واحدة من حيث مشكلاتها وهمومها وطريقة تفكيرها ومن ثم اختياراتها النهائية ، لكن كثرة الشخصيات في رواية ما ليست عيبا وليست مزية ، المهم هو ماتقوله الرواية ككل بعد ان تنجز كتابة وقراءة ، فثمة روايات لايبقى في الذهن من شخصياتها الا واحدة ـ الابله لدوستوفسكي ـ وثمة روايات تحتوي على عشرات الشخصيات ـ الحرب والسلم لتولستوي ـ .

في « الف ليلة وليلتان » ليس هناك اية شخصية مرسومة بالطريقة الكلاسيكية للشخصية ، ولهذا تغيب الشخصيات بسماتها وأسمائها ليحل محلها رمزها الطبقي . ان المشهد المصور في الرواية هو وضع يعيشه بشر فقدوا الحياة منذ ان صاروا رموزا ،لكنهم ومنذ ان صاروا رموزا ، اكتسبوا حياة اخرى من خلال شبكة « الاشخاص ـ الرموز ـ الوضع » الذي ينسجونه .



هذه الشخصيات تتحرك كلها دفعة واحدة ، مقدمة بذلك مقطعا عرضانيا او مشهدا بانوراميا ، اي من كل الجوانب تقريبا ، لحياة طبقة معينة في مرحلةتاريخية محددة ، في هذه المحاولة البانورامية تحاول الرواية ، فنيا ، السير وبنجاح ، في الطريق التي بداها فلوبير في مشهد سوق القرية الشهير في روايته « مدام بوفاري » . كان فلوبير يحاول ان يصور حدوث « كل شيء في آن واحد » وكما هو معروف فقد كان لجيمس جويس الفضل الاكبر في تعميق هذا الاتجاه ، ولنقرأ هذا المقطع مثلا من « الف ليلة وليلتين » :

« في المساء تصير المدينة جسدا مثقلا كثيفا . وفي الليل تنام قريرة الخاطر ، آمنة مطمئنة . تتوارى خوفها من الال والسلسال ، من الزمن الهارب والشوق المحرور ، على الفها تتلاقح وحشة الافل والآتي . والسكون يلفها كرداء مرهوب ، والحركات لاتنقطع . سكون مبهم خالف تواري البشر وراء الابواب المغلقة . والصوت اجش تتركه فوق علب الاسمنت محركات العالم الحر . من احدى النوافذ تنبعث أنغام مزمار غجري وتنتشر فوق

الشارع الهامد . في مكان مايدور ذراع معدني قصير فتهب من تحته ابرته اجمل هندسة للاصوات اقامها البشر .

تنظر الفتاة من وراء الستارة الى الليل الاتي ، يسترخي محمود في غرفته والى جانبه كوب الشاي ، تنفك اوراق صفراء من اغصانها وتنتهي .

يتقوس جذع امراة ويداها غارقتان في الصابون والماء . تهرب اسمى في الشوارع راجعة الى بيتها . يقبع بائع الخردة في حانوته منتظرا رزق الله الحلال والحرام . يتناول علـي ابوعبد الله وزوجته واولاده عشاء يسيرا .

يسمع لفيف من الناس نشرة الاخبار بانتباه ونصف انتباه وبلا انتباه . تستبيح يـد محمومة نتؤات جسد محموم . تهوي يد غضبى على وجه محكوم شاحب ... » ص ٢٦١.

لكن اللغة تتحرك في الزمن ، ومن هنا فان هذه الافعال التي تحدث في آن واحد تقدم في الرواية ـ اللغة بتتابع زمني يفقدها في الحقيقة تزامنها لكان الرواية هنا تحاول ان تحل مكان الكاميرا .



هذا التكنيك الفني ، يجعل من العبث التساؤل عن مغزى او دلالة هذه الشخصية او هذا الحدث ، كل على انفراد ، ليست الشخصية بحد ذاتها او الحدث بحد ذاته ، وبانفراده، مهما. فكل من الشخصيات والاحداث تتعاون مجتمعة لايجاد الرواية وخلقها، انها انسجة في ثوب اذا « حللناه » بقيت لنا خيوط لا اكثر ، في حين اننا نريد ثوبا لاخيوطا. « الف ليلة وليلتان » تنسج باحداثها واشخاصها هذا الثوب ، لكن اي ثوب ؟!

تصور الرواية حياة طبقة يعرفها الكاتب جيدا ، هذه الطبقة هي البرجوازية الصغيرة في مرحلة سيطرتها ، لكن وفي مرحلة أزمتها كذلك . من العبث ان يطلب احد من الكاتب ان يكتب عما لايعرف .

فالكتابة عن البرجوازية الصغيرة لم تنتقص من قيمة نجيب محفوظ الفنية بل والفكرية كذلك ، بل زادتهما ، لان هذه الطبقة أعطت نجيب محفوظ الادوات التي يتعامل من خلالها مع الواقع والعالم ، ولانه يعرف هذه الادوات جيدا فقد كان استخدامه لها جيدا ، لكن ماهي الرؤية او الموقف المستخرج من التجربة مع عالم هذه الطبقة ؟! هل أدرك الكاتب من

خلال عالمه المصور مكانة هذه الطبقة ، من الحركة الاجتماعية التاريخية ام انه جعل الحركة الاجتماعية تدور في فلك عالم هذه الطبقة ، ( والتي هي في حالة نجيب محفوظ وهاني الراهب البرجوازية الصغيرة ) وبالتالي هل بقي وعي الكاتب ، اسيرا لوعي هذه الطبقة؟!

تتحرك الشخصيات في « الف ليلة وليلتان » ضمن ازمات نفسية مصدرها وضعها الاجتماعي وكونها نتاج مرحلة انتقالية ، مرحلة انتقالية من سيطرة البرجوازية الكبيرة التجارية والعقارية الى سيطرة البرجوازية الصغيرة تحت وهم الثورة ، فالشخصيات في هذه الرواية تعيش خيبة مصدرها هذا الوضع ـ الوهم . كانت تتوهم الثورة وتحكي عنها وتظن نفسها تحققها لكنها تكتشف كل يوم في الواقع الاجتماعي حولها ، وفي حياتها انها لم تحقق شيئا ، وبالتالي يتولد لديها وهم آخر وهو انها ( ريفية ) اي ريفية في المدينة ، وبالطبع ليس هذا اكثر من وعي زائف لمشكلة اعمق ، وربما هو تسويغ وعزاء ، ان ابلغ وصف لهذه الشخصيات تقدمه الرواية .

« .. جلالته انهى كتابة رواية تتابع اكتشافات المفتش الاعظم للنفس البشرية ، ولكن كيف ؟ من خلال شخصيات لا وهي مريضة ولا هي سوية ، لا هي استثنائية ولا هي تافهة لانبيلة ولا وضيعة ، انما مرتبطة بشرطها الاجتماعي . كل منها يأكل وينام ويتزوج ويموت، له مسرات صغيرة وامجاد اصغر وله علاقات ومخازي صغيرة ، ويتنطح لمشاكل الامة العربية» ص ٢٤٤ .

وبالضبط تلك هي شخصيات « الف ليلة وليلتان » . انها فعلا « تتنطح » لحل مشاكل الامة العربية لكن هذه المشكلات اكبر منها ، واكبر من قدرتها ، وربما من هنا ازمتها واخفاقها ، طبقة واشخاصا ، روائيا وواقعيا .

ان من الخطأ ان تنتقد رواية تقدم مثل هذا العالم من داخلها ، فذلك يفقد هذه الرواية اهميتها وقيمتها ويحولها الى مجرد صورة تذكارية عائلية للبرجوازية الصغيرة قبل ان يتفرق شمل الاسرة ، فمن داخل هذه الرواية لن نحصل مطلقا على الايجاب الذي تحتويه الرواية ، اذا نظرنا اليها من خارجها . نقد الرواية من خارجها يكون بطرح السؤال التالي :

ما الرأي في عالم هذه الرواية ؟!

سيكون الجواب حسب الموقع والوعي الاجتماعي للقارىء ـ المجيب ـ ان القارىء الذي ينتمي الى مواقع وفكر يتجاوز البرجوازية الصغيرة سيقول : لقد اخفقت هذه الطبقة في الواقع قبل ان تخفق في الرواية ، ان اخفاقها في الرواية ليس الا وضع باقة من الازهار على قبر عزيز مضى ، فالى الجحيم ـ اذن ـ بعالم هذه الرواية . وهنا تحقق الرواية مهمة عظيمة الا وهي فضح وتعرية وضع طبقي مائل . قارىء آخر متعاطف مع هموم البرجوازية الصغيرى سيانس لقلق الشخصيات وسيجد في قلقها صورة من قلقه وقلق طبقتـه ، وسيتحمس للحلول التي اختارتها شخصيات الرواية ، فهذه الحلول ـ الانتماء للعمـل الفدائي ـ ستطهره ، وتريح ضميره .

القارىء الاول يمكن ان نقول عنه انه ينطبق منهج ( بريخت ) في المسرح اذ انه يبقى مثل الممثل البرختي ، على مسافة من الحدث الذي يمثله ، وبعبارة ثانية لايندمج عاطفيا في اللعبة بل يبقى ( داعيا كذلك المتفرج ) أن يحكم العقل لا العاطفة ، ولهذا فالرواية اذا قرئت بهذه الطريقة النقدية تجاه عالمها ، اي اذا بقي القارىء خارج عالم هذه الرواية ، وبالتالي خارج الطبقة التي تصورها فان الرواية في هذه الحالة ستعمق معرفته بالواقع، بل وستكون دعوة صريحة للعمل ضد هذا الواقع ، اما اذا اندفع القارىء مع الرواية فان هذا سيفضح القارىء اولا ، وسيريه نفسه في الرواية ثانيا ، لكن ، وهذا هو الاهم ، ستطهره وتريح ضميره عبر الالتحاق بالفدائيين ، ثالثا . وتلك مفارقة ، ان يكون القارىء لرواية هو الذي يعطيها دلالتها بدل ان تفرض الرواية دلالتها على القارىء ، على كل ان هذا يثبت الرأي القائل : ان القارىء ـ الناقد يعيد خلق الرواية ، وكل قراءة جادة لرواية هي ابداع ثان لها ، وبالطبع فالروايات الجادة هي وحدها التي تقدم مثل هـذا « الموضوع » للقراءة الابداعية .

في « الف ليلة وليلتان » نرى حالة بلزاك كما عرضها انغلز ، جلية ، تماما . ليس المهم هو الموقف الشخصي ـ العقائدي لصاحب الاثر الادبي ، المهم هو ماتقوله القراءة النقدية لهذا الاثر ، المهم هو الدلالة التي يستخرجها القارىء الواعي لا الدلالة التي تحاول الرواية ايصالها ، المهم هو مايستخرجه القارىء من عرض هذه الصورة الصادقة لشريحة مـن المجتمع ، ففي هذه النقطة تكمن دلالة الرواية مثلما فيها تكمن فنية الرواية ومقدرة الكاتب، اي في تقديم ماسماه هنري جيمس « انطباع شخصي مباشر عن الحياة » ان « الف ليلة

وليلتان » تقدم انطباعا شخصيا مباشرا عن قسم من حياة ، عن طبقة من مجتمع ،والموقف من هذه الطبقة هو موقف من المجتمع ، من العالم ، وبذلك تعود هذه الرواية لتحصل على كليتها وعموميتها عن طريق خصوصيتها ، فتصويرها الصادق لوضع طبقة معينة ، هو في التحليل الاخير ، تصوير للحياة الاجتماعية ككل منظورا اليها من منظار هذه الطبقة .

ان هذه الرواية التي تكونت كنتاج لواقع محدد ، تعود ـ عبر حياة الطبقة التي تقدمها ـ الى الواقع لتكون في صلبه ، فالواقع الماش باحداثه العيانية ، وكما نراه طبقة معيشة هو احد ابعاد الرواية ، لهذا تصبح الرواية احد مظاهر الواقع ، ومن هنا فالموقف من الرواية يتحدد عبر الموقف من الواقع ، والعكس صحيح . ان الموقف من الواقع يتحدد عبر الموقف من الرواية ، ان الوحدة المفتقدة احيانا بين الفن والواقع تعود في مثل هذا العمل لتجد تشابكها وان كان ذلك عبر تقديم مواقف وحلول قد لاتكون في الرواية صائبة ، مثلما هي غير صائبة كذلك في الواقع ، ذلك ان الطبقة المتحكمة في الواقع ، هي نفسها الطبقة المصورة في الرواية ، وعلى كل حال ليس من مهمات الروائي دائما تقديم الحلول ، مهمته الاساسية ان يعرض الواقع والعلاقات الاجتماعية كما هي حقيقة ، ان هذا العرض الصادق للعلاقات والوضع الاجتماعي هو الذي سيشير حتما الى الاتجاه الذي يسير فيه واليه الواقع في حركته ، هذا اذا كنا نملك نظرة متكاملة للواقع في حركته ، اي للتاريخ.(*)

---

★ ملاحظة :

قد يعترض على تحليلنا للرواية ، وادعائنا انها تقدم صورة بانورامية للبرجوازية الصغيرة وبالقول ان « امام » وهو احد شخصيات الرواية ولايخفى مافي اسمه من تورية، يرمز الى الطبقة العاملة وبالتالي فان اختياره في النهاية هو اختيارها ، والحقيقة ان امام ليس اكثر من برجوازي صغير ألبسه المؤلف ثيابا زرقاء ـ وهو نقابي وليس عاملا انتاجيا كما يفهم من الرواية ـ على كل ليس المهم في الشخصية مانقول وماتشتغل فقط ، بل المهم هو شبكة العلاقات التي تدخل فيها ، فمن شبكة العلاقات تلك تأخذ الشخصية مدلولها بل وكيانها ، وكما بينا فشبكة العلاقات في هذه الرواية هي شبكة علاقات البرجوازية الصغيرة واختيار ( امام ) في نهاية الرواية هو اختيار الآخرين نفسه ، ولهذا فامام مثلهم يحمل المفهومات ويقدم الحلول نفسها .

## ٢ ـ يحدث في مصر الآن : محمد يوسف القعيد

« قررت الكتابة .. ان اخرج على مؤامرة الصمت والاسكات التي تدبر لاخفاء مايحدث وماحدث » الرواية ـ ص ـ ١٧٠ .

كيف يكتب الروائي تحت تأثير واقع سياسي مباشرة ؟ كيف ينطلق مثل هذا الروائي من الواقع الى الفن ، ثم يعود الى الواقع ؟ هاني الراهب في روايته « الف ليلة وليلتان » انطلق في روايته من واقع وضع اجتماعي ـ طبقي ، مشيدا روايته من خلال عكسه لهذا الوضع ، وبانيا رؤيته وموقفه من خلال تحليله ووعيه لهذا الوضع ، اما يوسف القعيد فينطلق من روايته « يحدث في مصر الآن » من حدث سياسي واقعي ضمن وضع اجتماعي ـ طبقي ، هذا الحدث هو زيارة الرئيس الامريكي نيكسون للقاهرة عام ١٩٧٤ .

ان نقطة الانطلاق تلك ، تطرح قضية العلاقة بين الواقع والخيال وبين الواقع والفن كيف ينطلق الخيال الفني من الواقع وكيف يعود اليه عبر بناء جديد ، يصب في الواقع المعاش ، ويكون بالتالي بعدا من أبعاد الصراع في الواقع ، بعد أن عاد الى هذا الواقع الذي انطلق منه اصلا ، ومن هذه الزاوية يكتسب الحديث عن كون الادب ـ قوة مادية ـ معناه .

من خصوصية وضع اجتماعي محدد ، أو من خصوصية واقعية حقيقية او متخيلة، ينطلق الكاتب ليبني عالما يقدم من خلاله مفهومه عن الراهن والواقع الاجتماعي والانساني. ان الكاتب في مثل هذه الحالة ( وكما سنرى في هذه الرواية ) ينطلق من الخاص الى العام ، من الجزئي الى الكلي ، من حدث واقعي ـ سياسي ـ الى دلالته الاجتماعية ، اما اذا توقف الكاتب عند الجزئي والخاص ، دون ان يدرك علاقته بالكلي والعام ، فانه يقدم بذلك ادبا كسيحا وفي احسن الاحوال ، اعرج . ماعلاقة حدث سياسي بوضع اجتماعي؟ ما الدلالة الاجتماعية لهذا الحدث السياسي ؟ واذا اختار كاتب مثل يوسف القعيد حدثا سياسيا معروفا مدارا لروايته ، فكيف يتم ادراك العلاقة بين هذا الحدث السياسي وبين الوضع الاجتماعي وحركة التاريخ عموما ؟ ثم ماهي الجمالية التي يمكن اخراج مثل هذه الرؤية ـ الموضوع من خلالها ؟!

بعبارة ثانية ماهي التقنية التي ستربط الواقعي بالمتخيل ؟!

ان حقيقة الحدث الذي بنيت عليه هذه الرواية ، جعلت الكاتب يقدم اشخاصا موجودين فعلا ، لعل اوضحهم شخصية الكاتب نفسه الذي ياخذ دور الراوي والمعلق على الاحداث ، وبالطبع ليست تلك اول مرة يتدخل فيها المؤلف في السياق الروائي ، فثمة روايات يسير فيها السياق الروائي مع سياق حياة المؤلف الشخصية ـ او حياة الروائي ـ ولنتذكر « مزيفو النقود » لاندريه جيد ، و « الخماسين » لغالب هلسا وغيرهما .. لكن ماهي الدلالة المستخرجة من مثل هذا التكنيك ؟

ربما تكون اول الدلالات هي التاكيد والايضاح لعلاقة الفن بالواقع ودور الواقع في تشكيل الفن ، ان تاكيد مثل هذه العلاقة يقدم سندا شرعيا لمحاولة الفن التاثير في الواقع وذلكم تطبيق عملي لفكرة ان الفن والادب يمكن ان يتحولا الى قوة مادية ، وبهذا تكون رواية يحدث في مصر الان وصفا لحدث ـ واقع معين ، في سبيل استخلاص دلالة هذا الحدث ـ الواقع ، تمهيدا ، وعن طريق رؤيتها وشكلها الفني للدخول في الواقع المعاش والتاثير فيه . فكيف انجزت الرواية هذا الطموح الكبير والمشروع معا ؟!



في اسبوع زيارة الرئيس الاميركي نيكسون ، وبينما الترتيبات تعد للزيارة المرتقبة يقتل عامل زراعي بيد الشرطة ، ذلك هو العمود الفقري الذي بنى عليه المؤلف روايته ، وبالطبع فان اي تلخيص لاي عمل روائي او قصصي انما هو اغتيال له، وباقي الرواية، اي الخيمة المرفوعة على عمود الجريمة في اثناء الزيارة هو ترتيبات اخفاء الجريمة من ناحية، ومحاولات التحقق من شخصية القتيل من جهة ثانية ، ويكون مؤلف الرواية من جملة الذين يحاولون الكشف عن قضية وشخصية ( الدبيش عرايس ) اي القتيل الذي يقدمه المؤلف كرمز لجماهير الشعب العاملة في الارض ، والتي تولد وتتزوج وتموت دون ان يدري احد بوجودها ودون ان تشارك في الاحداث اية مشاركة فعالة .

الحدث السياسي ، والواقعة المبنية عليه ، فادا المؤلف الى هذه النتيجة والتي تم تقديمها عبر تقنية تتراوح مابين العرض التسجيلي للحدث ، او رفع الحدث الواقعي ، او المتخيل الى مستوى الرمز ، فالمخبر الذي يحقق في شخصية ( الدبيش عرايس ) يثبت في احد تقاريره ان ( الدبيش عرايس ) غير موجود اطلاقا ودليله على ذلك انه ليس مسجلا

لاهو ، ولا أي شخص من اسرته ، في اي من سجلات الحكومة ، وبالطبع فان المؤلف ينطلق من هذه الواقعة الى دلالتها الرمزية التي عرضناها وهي كون ( الدبيش عرايس ) ، ومن بمثلهم « كما مهملا » . من الناحية التقنية ، اتى الانتقال من الحدث الواقعي الى دلالته الرمزية ، وكما تحقق هذا الانتقال في الرواية ، مخلا بالوحدة الفنية لسياق الرواية ، بل واتى غير مقنع ، فالكاتب انتقل من السرد التسجيلي الى الرمزية ، مما خلخل وحدة البناء الروائي ، كما وان المؤلف اعطى الدلالة الرمزية لنفي وجود القتيل اصلا بعدا ساخرا ، في حين ان الموضوع اذا كان هكذا حقا يكون مأسويا ومأسويا جدا . ان هذا الخلل الفني يتكرر مرة ثانية في الرواية قرب نهايتها عندما يطرح مشروع اقامة دعوى على الرئيس نيكسون باعتباره المتسبب الحقيقي في مقتل ( الدبيش عرايس ) ، والدلالة الرمزية واضحة ، لكن مجيء هذا الرمز في سياق سرد تسجيلي جعل الموضوع يبدو اقرب للسذاجة . ان وجه الجودة الفنية في عالمي زكريا تامر وكافكا هو انهما يقدمان بناء رمزيا متكاملا معتمدا على، ومعادلا لواقع اجتماعي محدد ، اما في هذه الرواية فالمؤلف يخلط السرد التسجيلي ببناء رمزي قائم على حدث حقيقي وليس مستخلصا كدلالة ومغزى من الحدث نفسه .



من هذه الحادثة الجزئية ـ مقتل العامل الزراعي ـ التي تزامنت في البناء الروائي مع حدث سياسي واقعي ـ زيارة الرئيس نيكسون ـ انطلق الكاتب نحو الكلي والعام ، معلنا بذلك قصد روايته وهدفها ، يقول الراوي ، المؤلف :

« اذكركم من جديد ، ولا اقول للمرة الاخيرة ان الدبيش عرايس قتل ، مطلوب منك هو التأكد ان هناك اكثر من ـ دبيش ـ يموتون في كل لحظة .

.. ماحدث غير عادي ، وتحويله الى امر عادي ويومي متكرر خيانة يجب الوقوف في وجهها » وهكذا تحقق هذه الرواية العلاقة بين العام والخاص ، بين الجزئي والكلي ، بين موت هذا العامل الزراعي وبين موت الآلاف مثله كل يوم نتيجة سياسة معينة ، وحتى تتعمق المشكلة اكثر ، مشكلة ـ الدبيش ـ ومشكلة امثاله ، نسأل من هو قاتل الدبيش ؟!

المؤلف لاينافر ولايداور ، بصراحة يقول : « كان قتل الدبيش حكم طبقة ضد اخرى » ص ١٧٤ . لكن من هو القاتل تحديدا ؟! من هي هذه الطبقة القاتلة ؟!

« سأله الغلبان ـ صديق القتيل ـ » : من القاتل ؟

دارت عينا الغريب ـ الذي انبا بالقتل ـ على أشياء كثيرة : فيلا الدكتور ، ومكتب رئيس مجلس القرية ودوار العمدة وعمارات الاغنياء ، وادارة رعاية عمال التراحيل ومقر الاتحاد الاشتراكي ، ومدفن باشا سابق اعده لكي يدفن فيه بعد موته ، ويبدو انه لن يموت ابدا ، فهاهو زمنه يعود اقوى من سنوات الاربعينات . اشارت عينا الغريب للتوفيقية وايتاى البارود والقاهرة ، سمعا صوت القطار البعيد ، [ هذا القطار الذي سيحمل نيكسون ] ـ التوضيح من كاتب المقال ـ دارت يده لترسم كل الاتجاهات من حولهما » ص ١٠٧ .

رواية « يحدث في مصر الآن » كافية وحدها لتوصلنا الى القاتل الحقيقي ، ولتفهمنا من القاتل ومن المقتول ولماذا ؟ ودون الحاجة الى الصفحات الاستفزازية ـ التي لم ير محرر « النهار العربي والدولي » الادبي غيرها ـ والموجهة ضد النقاد وربما القراء اليساريين، وواضح ان القعيد كتبها مسوغا بذلك ماضيا شخصيا كانت مثل هذه الرواية كافية لاعلان تجاوزه ، دون الحاجة الى شتم « الناس » كما فعل القعيد ، ام ان القعيد مصر على مواقفه السابقة على الرغم من ان هذه الرواية تتجاوزها ؟!

## ٢ ـ الخيول : أحمد يوسف داوود

اقطاعي يبيع أرضه لمتمول جديد صاعد . فلاحون تصيبهم الصفقة بالضرر فيتمرد أحدهم . رجل دين ذو شخصية مهزوزة ينضم الى المتمول الصاعد ، صبي يتعلم في المدرسة يتعاطف مع الفلاح المتمرد ، والزمن هو الفترة التي اعقبت خروج الفرنسيين من سورية .

تلك هي الخيوط الاولية التي تنسج منها رواية ( الخيول ) مقدمة عبر هذا النسيج الروائي معادلا ادبيا لنسيج مرحلة تاريخية معينة في حياة سورية ، ومن خلال الظروف

العلاقات الاجتماعية في احدى القرى ، ومن هنا فالسؤال الذي يطرح هو التالي :

ـ ما علاقة هذه الصورة الادبية ـ التاريخية بالحاضر الراهن اولا ، وبالواقع العام الذي يحاول الادب عموما تمثله ؟ :

ان السؤال يعود بنا الى الاشكال التقليدي والذي يحاول النقد الاجتماعي حلـه وايضاحه وهو : ماهي العلاقة بين الظاهر والجوهر ، بين الراهن والتاريخ ؟ وبعبارة ثانية : لماذا يكتسب عمل أدبي يتحدث عن او أنتج في ـ فترة تاريخية محددة ، اهميـة تتجاوز هذه الفترة وتمتد في التاريخ والفكر ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال هي مفتاح فهمنا لـ « الخيول » ، أو ليحدث في مصر الآن ، او « لالف ليلة وليلتان » .

في رواية « الخيول » نرى مجتمعنا يعبر عن التشكيلة الاقطاعية الى الراسمالية ، فالافندي عاصي الاقطاعي ـ يبيع القرية لمتمول جديد صاعد ـ راسمالي . وبالمقابل ، فان الشيخ حسين الذي هو البعد العقائدي لعاصي افندي ، يقدم لنا كشخصية ممزقة . ان تمزق العلاقات الاقطاعية سيؤدي حتما الى تمزق اخلاقها ، وقد انعكس هذا التمزق في الشيخ حسين شيخ القرية : اذا كان الافندي عاصي هو نمط اقتصاد القرية ، فالشيخ حسين هو نمط أخلاق اقتصادها ، لكن اذا مات نمط اقتصادي ما ، فان اخلاقه لا تموت معه فورا بل تدخل في التركيبة التي تخلف ، وهكذا يتحول الشيخ حسين الى ملالاكذلك.

حركة تمزق المجتمع الاقطاعي ، واهتزاز قيمه ، وبالمقابل نمو الراسمالية التيتحتوي في داخلها نقيضها كذلك ـ تشير رواية الخيول الى هذا النقيض في شخصيتي الفـلاح المتمرد وتلميذ المدرسة ـ هي الحركة المقدمة في الرواية ، وبشيء من التجريد ، أو رفع الرواية من مجال خصوصيتها الى مجال عمومية الادب ، نستنتج ان ( الحركة ) التي تؤدي الى التغيير هي مدار رواية « الخيول » ، والحركة في هذه الرواية ليس الحركة الفلسفية المجردة ، مثل حركة جسم في حالة انعدام الوزن ، بل الحركة المقدمة هي الحركة الاجتماعية ، والتي منها يستخلص التجريد الفلسفي والقانون . ان الكاتب بعمله هذا ، اي بانطلاقه من التعين الاجتماعي الى التجريد ، من الواقع الى القانون ، انما يعلن ان المنهج العلمي هو اداته في فهم الواقع وامتلاكه معرفيا وجماليا ، فالزمن ، مثلا في « الخيول » هو الزمن التاريخي ـ الاجتماعي ، وحركته هي حركة المجتمع وليست مجرد « سيولة » في الذاكرة .

المشهد الظاهري المصور في الرواية هو هذه الحركة ، وهذا التغير الناتج عن الحركة ، لكن ما الذي يكمن خلف هذا المشهد الظاهري ؟ ! وكيف « يجمع الفن بين الجوهر والظاهرة ليظهر الحقيقة » كما يقول هنري ارفون في كتابه « الجماليةالماركسية»؟!

خلف القرية التي تنتقل من يد الى اخرى ، وخلف غروب الاقطاعي عاصي وصعود الراسمالي الجديد وانكشاف حقيقة الشيخ حسين وتمرد لطيف التامر وذهاب الصبي الى المدرسة ، خلف هذه اللوحة لقرية جبلية بعلاقاتها وطبيعتها ، تكمن حقيقة هي وحدها الازلية ألا وهي : كل شيء يتحرك ، كل شيء يتغير ، الطبيعة والمجتمع والانسان ، ومن هنا تكتسب هذه الرواية أهميتها الراهنة واهميتها الواقعية ، ان مقولة كل شيء يتغير ، تقودنا اذا نظرنا الى واقعنا الحاضر من خلالها الى الايمان بان هذا الحاضر الراهن سوف يتغير كذلك، والمقولة تقودنا كذلكاذا نظرنا اليهامن زاوية الحركة التاريخية ــ الاجتماعية والعناصر الفاعلة فيها ، اي من زاوية الفلاح المتمرد والصبي التلميذ في الرواية الى الايمان بان هذه الحركة وهذا التغير هما في صالح الانسان ، ان هذه الرواية باكتشافها نبض الحركة انما تكتشف نبض التاريخ ، وبتعيينها للحركة اجتماعيا ، تحدد مسار هذه الحركة ، فالظاهر السلبي في حركة الرواية ، وهو انتقال ملكية القرية من اقطاعي الى رأسمالي صاعد انما هو مظهر لحقيقة اعمق واشمل هي الحركة ، وهذه الحركة وهذا التغير هما اللذان سيجعلان الفلاح المتمرد والتلميذ ياخذان حقهما في المستقبل ، فالحركة التي قلبت الاقطاعي القديم هي التي ستقلب الراسمالي الجديد ، وهي التي ستدفع الفلاح المتمرد والتلميذ الذي يتعلم من الحياة والمدرسة حقائق القرية والوجود، ستدفعهما الى الصدارة .

تحت سطح حركة الرواية الخارجية ، الانتقال من ظلم الى ظلم ، من ظلم الاقطاعي الى ظلم الرأسمالي نرى الايجاب ، نرى اتجاه حركة المجتمع ــ التاريخ ، فالرواية تصور العلاقات الاجتماعية كما هي ، وبصدق ، وامتيازها في صدقها ، فمن يتمعن في الحركة التاريخية ، وفي الواقع الاجتماعي ، ير عناصر الايجاب تتداخل وتتمازج مع عناصر السلب، ير اتجاه سير هذه الحركة . كذلك فالانتقال من ظلم الى ظلم هو في التاريخ طريق العدل، والانتقال من الاقطاعي الى الرأسمالي هو طريق الانتقال الى مستقبل الفلاح المتمرد والتلميذ في الرواية ، والفن العظيم عبر خصوصية الوضع الذي ينتجه يصل الى ما هو عام وشامل في التاريخ اي تلك الحركة الابدية الدائبة وذلك الشوق المضطرم الى الحرية

والعمل ، و « الخيول » عبر تمثلها لمرحلة تاريخية محددة من تاريخ سورية انما تتمثل وبخصوصيتها كرواية وخصوصية الوضع الذي عالجته ، تلك الحركة الابدية وذلك الشوق الدائم الى العمل لدى انسان بلادنا ولدى اي انسان على وجه هذه الارض . وبدهي انه ما من « عام » الا عن طريق الخاص ، ليس هناك حركة مجردة وليس هناك انسان مجرد وليس هناك مجتمع مجرد ، هناك انتقال من وضع محدد الى آخر ، هناك نوال واحمد ، هناك المجتمع العربي والمجتمع الفرنسي .

تعيد « الخيول » طرح قضية العلاقة بين الخاص والعام ، العيني والمجرد ، مؤكدة تلك العلاقة الجدلية . ورحلة الذهاب والاياب بين ما هو عام وما هو خاص ، بين العيني والمجرد ، بين الانتقال من وضع اجتماعي الى آخر ، وخلال كل ذا يتحرك الانسان عبر تاريخه نحو الافضل .

اخيرا : ان كون الكاتب شاعر اعطى لغته جمالا شاعريا مميزا وخاصة الفصل الحادي عشر حيث الحوار الجميل بين البلطة وجذوع الزيتون التي كان الفلاح المتمرد يريد قطعها لان الراسمالي استولى عليها . ان هذا الحوار يصور قلق الفلاح وتمزقه بين رغبته في قطع الاشجار التي سرقت منه ، ورغبته في الحفاظ عليها لانها نتاج جهده . ان الرواية تصل هنا الى ذروتها ونهايتها معا ، واعتقد انه كان من الافضل لو ان الرواية انتهت بنهاية هذا الفصل ، فالفصل التالي ــ الاخير ــ لايضيف شيئا .

# علم الجمال عند لوكاتش شابا

لوسيان غولدمان
ترجمة: توفيق الاسدي

تعرف(١) الدوائر الفلسفية منذ زمن طويل أن جورج لوكاتش يحضر لانجاز مؤلف ضخم عن علم الجمال سيكون ـ كما يبدي ـ تاجا لكل اعماله . وقد سبق لجزء من هذا المؤلف ان ظهر فعلا في ايطاليا تحت عنوان « مقدمات نقدية لعلم الجمال الماركسي » . ولن أعالج هذا العمل في مقالي هذا طبعا .

يمكن لاعمال لوكاتش ان تقسم الى جزئين متميزين على نحو واضح تفصلهما فترة صمت طويلة استمرت ما بين عام ( ١٩٢٧ ) والاعوام السابقة على الحرب العالمية الثانية . وكيفما كان الشكل الذي اتخذه تطوره فان ما نشر بين عامي ( ١٩٠٨ – ١٩٢٦ ) يشكل جسدا موحدا على نحو نسبي بحيث تطور فيه موقف الفيلسوف باسلوب متماسك شامل من الفلسفة الكنطية الى الماركسية التقليدية ( الارثوذكسية ) . ان ما انوي معالجته هنا هو افكاره حول علم الجمال خلال هذه الفترة مع الاشارة خصوصا الى كتابه الاول الصادر بالالمانية (٢) « الروح والاشكال »(٢) .

ترتكز المكانة المهمة التي أعتقد انها ستمنح لاعمال لوكاتش الشاب في تاريخ الفكر الغربي في المقام الاول على حقيقة انه قد أحدث نقطة لقاء ما بين البنيوية التي ودعها والفكر الماركسي الذي انجذب اليه فيما بعد .

(*) نشرت هذه المقالة في المجلة الفصلية الهنغارية الصادرة باللغة الانجليزية في خريف عام ( ١٩٧٢ ) وهو عدد خاص عن جورج لوكاتش .

ولكن « الروح والاشكال » هو ـ على نحو مسبق ـ تركيب يجمع تقريبا ما بين البنيوية الفينومينولوجية والكنطية التراجيدية ، فانا أعتقد أنه على الرغم من ان لوكاتش لم يعترف على نحو واضح بتأثير الفينومينولوجيا ( علم الظاهرات ) عليه(٤) ، فاننا في التحليل النهائي نجد من الواضح ان الموقف البنيوي الذي يهيمن على أعماله الاولى لابد وان يفسر جزئيا على أنه نتيجة لتأثير « هوسرل »(٥) ان لم يكن بشكل مباشر فضمنا على الاقـل .

وكصديق لـ « لاسك »(٦) وكخريج من مدرسة «هايدلبرغ»(٧) وكمثقف ينزع نحو العلوم الانسانية ( بالتعارض ) مع كنطية « ماربورغ »(٨) الجديدة المؤسسة على العلوم الفيزيائية والرياضية ) وجد لوكاتش نفسه ضمن حلقة جامعية عالية الثقافة ومرتبطة على نحو وثيق مع مجموعة « فرايبورغ »(٩) . وكان فلاسفة هاتين الجامعتين ينضوون عموما تحت تسمية ( المدرسة الالمانية الجنوب غربية ) .



هذا ويمكن توضيح الصلات ما بين مدرسة هايدلبرج الكنطية الحديثة ومدرسة فرايبورغ الفينومينولوجية وعلى أفضل وجه بواقعة أن دراسة هوسرل الشهيرة « الفلسفة بوصفها علما محكما » قد ظهرت اول ما ظهرت في مجلة « لوغوس » وهي مجلة كنطيي هايدلبرغ الحديثين ، او بواقعة أن كتابي « هايدغر »(١٠) الاولين قد تأثرا الى حد كبير بفكر « لاسك » وان ثاني هذين : « المقولات ونظرية المعنى عند دونس سكوتوس » يذكره بشكل واضح في مقدمته .

ان الاسهامة العظيمة للفينومينولوجيا في مجال الفهم الايجابي للحقيقة الانسانية لا تتجلى كما أعتقد في اكتشاف فكرة البنية ولكن في اختزالها الى تصنيف موضح وحتى ـ اذا لم نقصر انفسنا على اراء هوسرل ـ الى فكرة البنية الدالة ( ذات المعنى ) . وبالتأكيد ـ تقريبا ـ لن يقبل عالم فينومينولوجيا تقليدي مثل هذه الفكرة ، ولذا علي ان اوضح انها مضافة ضمن سياق علمي وايجابي وليس فينومينولوجيا .

ان المشكلة التي تواجه شخصا ما يرغب في فهم الفينومينولوجيا كنظام فلسفي لا تتجلى في فهم افكارها الرئيسية ، ولكن في معرفة أي من الافكار التي خلقتها قد بقيت صالحة ضمن السياق الديالكتيكي ،حتى حينما تكون الفينومينولوجيا نفسها مرفوضة كموقف فلسفي .

لم يكن لوكاتش ماركسيا بعد وبكل تأكيد حين كتب « الروح والاشكال » ، ومع ذلك فقد صاغ عمله هذا ككاتب في مجال علم الجمال يهتم بفهم الاعمال الفنية المحسوسة ، وكمفكر كنطي . لذا لن يدهشنا ان نلاحظ انه يختار من أعمال هوسرل ( عن غير وعي طبعا ) ليس ما هو اشد اهمية من وجهة النظر الفينومينولوجية ، ولكن ما استطاع ان يدمجه في تفكيره الخاص به . وليس محض مصادفة ان وقع اختياره منذ البداية على فكرة البنية الدالة ( ذات المعنى ) ، ( وهي الفكرة التي كانت وراء ظهور بسيكولوجيا الجيشتالت أو الصيغ ، وهي المدرسة العلمية العظيمة الوحيدة التي نشأت عن الفينومينولوجيا ) .

ان صلة لوكاتش بالفكرة الفينومينولوجية الخاصة بالبنية الدالة ( ذات المعنى ) في فترة تأليفه لكتاب « الروح والاشكال » كانت في وقتها اعظم مما هي عليه في أي وقت لاحق ، لان الفينومينولوجيا أساسا ليست تكوينية كما انها تتعارض مع كل اشكال الفكر الديالكتيكي . كما ان الكنطية ليست تكوينية على نحو قاطع . لذا لا يجب ان ندهش عندما نجد اول كتاب للوكاتش يصدر بالالمانية يقوم بتركيب يجمع ما بين موقف كنطي صارم وبنيوية الهمها اياه « هو سرل » بشكل مباشر او غير مباشر على الاقل .

وعلي ان اضيف انه اذا كانت فينومينولوجيا القرن التاسع عشر قد جعلت من فكرة البنية الدالة ( ذات المعنى ) « موضحة » ، فقد سبق لها وكانت « مضمرة » في الفلسفة الكلاسيكية وذلك من « باسكال » (١١) و « كنط » الى « هيغل » و « ماركس » .

وهناك على كل حال فرق كبير ما بين الموضح والمضمر ، وهذا ينطبق حتى لو كان المفهوم يستخدم أحيانا من قبل اولئك الذين يستعملونه بشكل مطلق على نحو اكثر تأثيرا وفعالية من اولئك الذين يبنون نظرية عليه .

وباختصار ، فان مايمكن ان يوصف ــ وفق الاختيار ــ كضربة حظ جلبتها العناية الالهية للوكاتش ، أو واحدة من فضائله الاصيلة ، فهي أنه قد وجد نفسه في بداية القرن في ملتقى مجريين فلسفيين : الكنطية من جهة ( وهي التي كان يعود الى معناها الاصيل مبتعدا عن تشويهات الكنطية الحديثة ) ، والفينومينولوجيا من جهـــة أخرى . وكان هذا هــو الذي مكنه من انتاج عمل يشكل دون شك مرحلة مهمة في مستقبــــل الفلسفــة الغربية .



وصفت منذ قليل « الروح والاشكال » على انه كنطي على نحو صارم ، ولكن ربما كانت كلمة « صارم » غير دقيقة تماما ، طالما ان الكتاب هو مجموعة من المقالات وعلى نحو دقيق تماما ، وطالما انه يمكننا ان نسال الى اي حد تنسجم فكرة الكنطية الصارمة مع فكرة المقال .

في الموقف التراجيدي ( الذي هو خاص بلوكاتش ) والذي يتوافق مع المعنى الاصلي للفكر الكنطي فان الحقيقة في الواقع « واحدة » ، وكل اشكال الفكر أو التعبير الاخرى هي « دون أية قيمة » ان كانت تختلف عنها ، وذلك وفقا لهذا الاختلاف وبدقة .

ان المقال من ناحية اخرى هو ذلك الشكل من التعبير ــ بالضبط ــ الذي يطرح من الاسئلة اكثر مما يجيب ، كما انه يقترح تلك الاجوبة ولا يؤكدها بالاحرى .

وبالاضافة الى ذلك كان لوكاتش نفسه قد أعطى تعريفا عظيما للمقال في اعماله ، فالمقال كما قال هو شكل وسطي مابين الفلسفة التي تعبر عن رؤية للعالم على المستوى المفاهيمي ، والادب الذي يخلق في المخيلة عالما متسقا من الافراد والعلاقات الخصوصية .

والمقال في علاقته بالفلسفة حيث انه يعبر عن نفسه على مستوى مفاهيمي يبقى شكلا وسطيا طالما اثار مسائله على نحو يتعلق بواقع خاص . ولذا فانه دائما ذو بعدين : الاول هو الموضوع الذي يتناوله ، والاخر هو المسألة التي يثيرها . ولذا فانه نتيجة لذلك وعلى الدوام عبارة عن علاقة « حينية » ومعقدة وضرورية ومتواجدة بشكل طبيعي بين المسائل والموضوع . وهذا يعني انه على الرغم من اية تحفظات قد تكون لدى كاتب المقال ـ على الاقل من زوايا معينة ـ فان الموضوع يمتلك قيمة « ايجابية » بالنسبةاليه.

ومن جوانب معينة فان خطة لوكاتش في عمله كانت تتوافق على نحو صارم مع اهدافه الكنطية . وقد قام لوكاتش بالتوسع في مجال الرؤية التراجيدية للعالم والرفض الجذري الاصيل الذي تتضمنه هذه الرؤية في الفصل الاخير من الكتاب ، ولكنه استهل ذلك بتحليل لمختلف اشكال الرفض التي اعتبرها في التحليل الاخير غير اصيلة وغير جذرية الى حد كاف .



وبتقديمه هذه الدراسة لهذه الاشكال غير الاصيلة من اشكال الرفض كسلسلة المقالات وليس كتحليل نظري على اية حال ، وباختياره لها كمواضيع ، وببذله جهدا عظيما لاثبات ماهو ذو قيمة فيها كاشكال متسقة من اشكال التعبير عن الروح الانسانية ، وقبل كل هذا باستهلاله للكتاب بـ « مقال عن المقال » يحمل من الايجابية بقدر ما يحمل الفصل الاخير المخصص لميتافيزيقا التراجيديا ، وان لم يكن متوافقـا معه بسـهولة ، فان لوكاتش قد ادخل عنصرا الى موقفه الكنطي بشكك فيه ، وهذا مما يدل على انـه قد سبق له وتجاوزه وراح يتجه نحو الهيغلية التي توضحت في كتابه التالي .

قلت ان علم الجمال عند لوكاتش الشاب كان بنيويا ، ولكني وضحت هذه العبارة بأن شرحت انه تقدم في تطوره وعلى نحو مطرد من البنيوية الستاتيكية ( السكونية ) والبنيوية الجمالية في « الروح والاشكال » « ونظرية الرواية » الى البنيوية التكوينية والمعممة في كتابه « التاريخ ووعي الطبقات » .(١٢)

وفي هذه المحاولة لتلخيص الملامح الرئيسية لعلم الجمال هذا فاني اواجه بالتالي ومنذ البداية اكثر المشاكل المنهجية أهمية في تاريخ الافكار ، الاوهو تقرير ما اذا كانت دراسة شاملة لاعمال فيلسوف ما يجب أن تتبع منهجا ملتزما بالتسلسل التاريخي او على العكس ان تفسر الماضي على ضوء المستقبل .

لقد دعمت الوضعية على الدوام اول هذين الخيارين ، ويبدو ان الفطرة السليمة البسيطة تؤيدها في هذا المجال . عندما ندرس عملا ما فلا شيء هناك يخولنا أن نضمن الدراسة أي شيء فلا المحتوى الحرفي للنص المدروس ، وكذلك بنيته ، وتنظيمه الداخلي وكذلك ـ الا اذا كان الباحث فينومينولوجي النزعة ـ العوامل الخارجية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها التي قد تكون قد أثرت في تكوين المحتوى والبنية .

وفي التحليل الاخير فمن العدل ان نقول ان الوضعية أو الحتمية العقلانية تفسران الواقع من خلال الماضي ، بينما تميل البنيوية الفينومينولوجية الى تفسيره على نحو رئيسي أو على وجه الحصر من خلال الحاضر .



وخلافا لكلا ما سبق فان الفكر الديالكتيكي دون أن يبخس من أهمية الماضي أو الحاضر يرى المستقبل على أية حال عامـلا مهما في التفسير الوضعي ، ويبرره بفرضية البنية التكوينية الشمولية التي ترى في كل معطى ( donnée ) ماضيا كان ام حاضرا مجموعة من الكمونيات التي تكتسب أهميتها الحقيقية من تطورها اللاحق ومن تقديمها الى البنى التي في طور التشكيل والبنى الدينامية والمتوازنة نسبيا والتي تعرضها للخطر . ورغم اعجاب ماركس الشديد بداروين الا انه أوضح هذا الاختلاف عندما كتب في مقدمته لكتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » أن « تشريح الانسان هو مفتاح لتشريح القرد»(١٢).

هذه المسالة المنهجية تثار ثانية في هذه الدراسة . من الممكن طبعا مناقشة الافكار الواردة في « الروح والاشكال » دون العودة الى « التاريخ والوعي الطبقي » . ولكن اعطاء

هذه الافكار اساسا ــ وفي الوقت نفسه ــ اظهار أهميتها بالنسبة الى مستقبل الفكر الغربي سيتضمن صعوبة خاصة . نعود الآن الى ماركس . ان تشريح الانسان هو مفتاح لتشريح القرد ، و « التاريخ والوعي الطبقي » هو النقطة التي ننطلق منها لتقويم أهمية ومغزى الاعمال التي سبقته .

ان المفهوم الجوهري في « الروح والاشكال » والمشار اليه في العنوان نفسه هو أن القيم الفكرية عموما الادبية والفلسفية خصوصا مبنية كلها على وجود عدد من الاشكال والبنى المتسقة التي تمكن الروح الانسانية من التعبير عن امكانياتها المختلفة . ولكن ، ليس هناك في الكتاب ذاته ما يشير الى الاساس الذي بنيت عليه « الاشكال المتسقة » . ( ومن ناحية اخرى فان كيفية قيام الحقيقة بمنح اساس ــ من بين هذه الاشكال ــ للمركز ذي الامتياز الذي تتمتع به الرؤية التراجيدية امر تمكن رؤيته بسهولة ) .



لا نستطيع سوى في « التاريخ والوعي الطبقي » ان ندرك فلسفة التاريخ المبنية على واقعة أن الانسان هو الكائن الذي يخلق بتزايد مستمر بنى واسعة متسقة الى الابد ، وبالتالي فان التوكيد على المركز الجمالي والفلسفي والديني ــ المتمتع بالامتياز ــ لتلك البنى يستمد طبعا من الواقعة البسيطة القائلة ان النشاطات وعمليات الخلق الانسانية متعلقة بذلك .

وهكذا فان الافكار تتكشف مرتبطة مع بعضها البعض وبشدة :

١ ــ الانسان كائن تاريخي ينزع الى اعطاء معنى لحياته .

٢ ــ التاريخ ، وهو من خلق الانسان ، ذو معنى ويفترض مسبقا صحة مقولةالتقدم .

٣ ــ الاشكال المتسقة للابداع الفكري تؤلف طبعا الاشكال ذات الامتياز الخاصة بنشاط ما ، والتي يكون الاتساق فيها واحدا من المعايير الرئيسية للقيمة .

وأخيرا فان مفهوما جماليا نهائيا يهتم بالشكل ليس كبنية متسقة تشكل المعنى

الجوهري للادب ، ولكن بالشكل ـ ضمن معنى أضيق بكثير ـ كوسيلة شكلية للتعبير عن هذا المعنى .

وبالفعل فان « الاشكال » المختلفة التي يحللها لوكاتش في كتابه تشترك بما يلي : انها جميعا ـ عدا المقال ـ تعبر عن الالينة ، عن هوة لا يمكن تخطيها بين الانسان والعالم. وفي كل منها يواجه لوكاتش بسؤال هو في الواقع سؤال تقني : الطريقة التي مكنت الشاعر والكاتب من بناء عالم متكامل من معنى مضاد جوهريا . هذا الاسلوب في التعبير عن معنى ما يمكن أن يوصف على أنه « شكل » بالمعنى الاضيق ، وبالطبع فان كاتب المقال بعد أن يعطي الفرق بين المعاني ، والميزة المحددة لكل من التضادات ، والتعبير عنها كما جرت معالجته في هذا العمل ، سيواجه في كل مناسبة بالمشكلة الخاصة التي تواجه الكاتب والتي حلها الكاتب باسلوب محدد .



من المستحيل طبعا أن نعالج هنا مختلف الدراسات الواردة في الكتاب . ومن المهم على اية حـال أن نشدد على واقعة أن لوكاتش قد بدأ يشعر من هذه الفترة فصاعدا بانحلال الرابطة ما بين عمل ما وشكله ، وهو انحلال يعود الى حقيقة ان أي « معطى » ما في هذا المجتمع يميل على نحو متزايد الى ان يكون ذا اكتفاء ذاتي في هذا « الشكل » المباشر دون اي نقل الى مستوى الابداع الفكري الذي وصفه المفكرون الماركسيون بانه واحد من نتائج التشيئة ( جعل الشيء ماديا ـ المترجم ) .

لو استعملنا لغة مستمدة من لوكاتش عام ( ١٩٢٣ ) لقلنا ان تطور انتاج السوق يتضمن على نحو ضروري ظهور حياة اقتصادية « مستقلة » ( ونتيجتها الطبيعيـة علم النشاطات الاقتصادية ، أي : علم الاقتصاد ) تتبع قوانينها الخاصة بها ، وتكون مستقلة على نحو متزايد عن اية عملية أخلاقية أو فكرية أو فنية .

تصبح العلاقة ما بين البنية التحتية والبنية الفوقية ، بين الحياة الفعلية للناس

واسلوب تعبيرها الفكري ، بهذه الطريقة ، أكثر هلهلة وهذا مما يعطي الجهود الفردية ككل في حقل البنية الفوقية خصوصية أوسع وأكثر تجريبية ولكنها اقل اصالة .

هناك علاقة متينة بين واقعة ان مجتمعنا ـ على مستوى الوعي ـ قد اصبح مجتمع متحف خيالي يجمع في متاحفه ومجموعاته الفنية والادبية كل شكل من اشكال التعبير وذلك بدءا من اقلها بدائية الى اكثرها حداثة ، بما فيها اللوحات التي يرسمها الاطفال ونزلاء المصحات العقلية ، بالاضافة الى الواقعة القائلة في الوقت نفسه انه مجتمع اكثر التجارب جرأة على مستويات الابداع الجمالي وبين واقعة أن هذا المجتمع على الارجح من النوع الذي يبدو فيه الابداع الفني في أشد حالات ضعفه ، كما يبدو اكتشافه أمرا في منتهى الصعوبة على أية حال وذلك في غياب أي معيار مقبول عموما .

هذه هي الفرضية التي طرحها لوكاتش عام ( ١٩٢٣ ) وكثيرا ما رددها ماركسيون لاحقون(١٤) . اما في عام ( ١٩٠٨ ) حين كان لوكاتش ما يزال بعد غريبا تماما عن الفكر الماركسي ، فقد وصف هذا الوضع بلغة فينومينولوجية .



وبعد تطويره لافكاره بالتفصيل حول العلاقات ما بين الشكل والمعنى عموما ، اتجه لوكانش نحو تحليل هذه العلاقات في العالم المعاصر ، ثم انتهى بمقطع مهم الى درجة ان علينا أن نورده هنا بالكامل :

« يمكننا ان نصوغ المشكلة بالاسلوب التالي أيضا : ثروة من التنوع والاشكال . ما الذي يمكن بل ويجب التخلي عنه لانقاذ الشكل ؟ وهل يجب التخلي عن شيء ما بالضرورة ؟ لماذا ؟ ربما لان الاشكال لا تنبع من حياتنا هذه ، فهذه الحياة لا تكاد تكون جمالية اطلاقا ، لانها أصبحت ضعيفة جدا ولا حول لها بسبب خاصيتها الفوضوية ، وحتى أنها لم تعد قادرة الا نسبيا ـ وفقا للحاجة الحقيقية ـ على نقل ما هو متغير وما يتوجب تغييره في الاشكال لو ان فنا حيا وأصيلا يجب أن يولد :

ان وجوده مستحيل اليوم بالتالي الا من خلال الشكل المجرد ، هذا من ناحية ، ويتبع هذا الوجود من التفكير العميق في الفن من جهة ، ومن التأمل المحموم في أعمال الماضي العظيمة ، والجهد المبذول لفهم غموضها ، ولكن هذا الشكل المجرد غير قادر على التعبير عن الخاصية المحددة لحياتنا ، والغنى والجمال اللذان ـ في حياتنا هذه ـ يرتبطان بالحاضر ، أو من ناحية أخرى غياب تام للشكل يرجع الى واقعة أن كل شيء يقوم بنشاط ما لا يفعل ذلك الا من خلال التجربة الجماعية المباشرة ويصبح غير مفهوم في تلك اللحظة نفسها التي تنتهي معها هذه التجربة الجماعية .

ربما يكون هذا هو الاساس ، ولكن من المؤكد على أية حال وجود صراع هنا ، ومن المؤكد على حد سواء أنه لم توجد مثل هذه الصراعات في الفترات الابداعية ( الخلاقة ) العظيمة . ولهذا السبب فان معظم المواقف الحميمة الحماسية قد أمكن التعبير عنها مباشرة في التراجيديات الاغريقية ، ولهذا السبب نفسه أيضا فان الثروات الهائلة ـ مهما عظمت ـ لم تكن تستطيع أن تولد انفجار الاعمال العظيمة للقرن الخامس عشر ( في ايطاليا ) وعلى نحو أقل طبعا أعمال الازمان القديمة . وباختصار فان لدينا اليوم أعمالا تؤثر من خلال اشكالها وأخرى على الرغم من اشكالها ، والكثير منها ، أو ربما كلها ، تثير التساؤل حول فيما اذا كانت لا تزال تحوي أي عنصر من عناصر الهارموني .



وبلغة أخرى ، هل هناك أسلوب معاصر ؟ هـل من الممكن الامساك بشيء جوهري ضمن الاشكال التجريدية والإمساك بها بحيث أن « كلية » الحياة المعاصرة لا يسمح لها بالهروب ؟ هـل من الممكن تثبيت الوان وروائح وغبار طلع لحظاتنا الهاربة الى الابد ، الرائحة وغبار الطلع اللذان قد لا يتواجدان بعد ذلك في المستقبل ، وان نشرح في الوقت نفسه ما هو الجوهري فينا وما هو الذي لم نعرفه عن أنفسنا حتى الآن ؟ »(١٥) .

وبعد كتاب « نظرية الرواية » الذي استبعد فيه لوكاتش الفكر الهيغلي بالافكار الكنطية التي عبر عنها في « الروح والاشكال » ، وحافظ فيه على الموقف نفسه تجاه علم

الجمال ولم يغير سوى موضوع المادة المطروحة بحيث كرس نفسه لتحليل الاشكال الملحمية، ظهر كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» عام (١٩٢٣) والذي نشر منذ فترة قصيرة بالفرنسية، وفي هـذا الكتاب هجر لوكاتش قضايا علم الجمال البحتة ليطور ـ لاول مرة في القرن العشرين ـ تفسيرا للماركسية كبنيوية تكوينية معممة .

وهذا الكتاب علامة على مرحلة في تاريخ الفلسفة والعلوم الاجتماعية وذلك لانه في تقديمه لمقولة « الكلية » وبتأكيده على استحالة فصل أحكام الوقائع عن أحكام القيمة ، وقبل كل شيء ، فان تقديمه للمفهوم الرئيسي الفعال للتفكير الديالكتيكي « الوعي الممكن » Possibleconsciousness قد جعل علم الاجتماع الديالكتيكي الايجابي ممكنا .

ان مثل هذه الرؤية للكل ـ طبعا ـ حتى لو لم تكن متطورة على نحو واضح محدد ، تتضمن نتائج جمالية معينة ، والامر على هذه الحال بما أنه من الضروري عزلها فحسب كي يجري ربط المفهوم القديم للشكل الذي ساد أعمال لوكاتش السابقة مع البنيوية التكوينية التي نضجت عام ( ١٩٢٣ ) ويسودها مفهوم « الوعي الممكن » .

هذا « الوعي الممكن » الذي يعني الحد الاقصى من التطابق مع الواقع يمكن أن ينجزه وعي جماعة ما ، على شرط أن يكون ممكنا بالطبع ألا ينجز أبدا دون أن يحث على هجر بنيته بالتالي ، هذا الوعي يكشف عنه في الواقع على أنه مماثل جدا للمفهوم الشكلي القديم عن الروح الفردية .

فبالنسبة الى لوكاتش كان الشكل قيمة نمطية ذات امتياز ، مع عدم وجود تبرير لهذا الامتياز سوى حكم الناقد ، وهذا نوع من التأكيد الواضح على أن حكم القيمة هذا كان غير قابل للفصل عن المساهمة الثقافية الفعالة .

لقد كان حب وفهم الاشكال والاعتراف بقيمتها الانسانية الخاصة هو الذي يميز بطريقة ما الاشخاص « الجنتلمان »(١٦) .

ومع حلول عام ( ١٩٢٢ ) أصبحت النزعة تجاه « الاتساق المنطقي » أمرا ذا صفة شمولية بالنسبة الى لوكاتش ، والمميز الرئيسـي لكل الواقع الانساني كذلك . الفن والفلسفة والابداعات العظيمة للفكر قد أضحت جميعا على هذا النحو جزءا من العمليات الاجتماعية ككل . لقد اصبحت وقائع انسانية ـ في مركز امتياز دون شك ـ ولكنها ذات طبيعة مشابهة للظواهر الاخرى التي تشكل الواقع الاجتماعي والتاريخي .

وبهذه الواقعة ذاتها فان المنظور الشائع لسوسيولوجية البنى الفوقية قد حوفظ على استمراريته ونقض في الوقت نفسـه . لقد حوفظ على استمراريته فيما يخص الابداع الجمالي ، اذ أن هذا بعيدا عن بروزه كظاهرة فردية ، يظهر على العكس من ذلك كتجل للرابطة التي لا يمكن فصلهـا والتي تجمع ما بين الوعي الفردي والبنى الشاملة التي ندعوها عادة الوعي الجماعي . ولقد تم نقضه فيما يخص العمل الفني ، اذ أن هذا بعيدا عن كونه يعكس على نحو نفي وبسيط الوعي الجماعي ، وبما انه ممكنا اخضاعه لـه ( النموذج المألوف للماركسية غير المثقفة يقول : « البنية الفوقية ما هي الا ... » ) فهو على العكس من ذلك درجـــة من الاتساق المنطقي الفريد بالدوران من حولهـا اشكال الوعي الفردي التي تؤلف الجماعة على نحو قد يكون أقل او أكثر فعالية .



بعيدا عن التعبير عما يفكر أو يقول اعضاء الجماعة فعلا فان العمل يكشف لهم « ما يفكرون به دون علمهم بذلك » . انه أكثر النقاط تقدما لاتساق منطقي تدور من حوله أشكال الوعي الحقيقي للافراد ، وهو لذلك بالطبع فريد وغير ممكن استبداله .

ولا يجب ان ينسى على أية حال أن العمـل لا يمكنه تحقيق هذا الاتساق المنطقي وامتلاك هذه القيمة النموذجية سوى لانه مركب من المقولات العقلية الدينامية والجماعية والتي تمنح بنية لوعي الجماعـة وتقرر اتجاهـا يقوم الفنان او الكاتب او الفيلسوف بالتقدم عن البشر الاخرين قليلا وفقه .

من هذه الناحية فان معضلة الفردي والجماعي الشهيرة التي اضرت كثيرا بالعلوم الانسانية قد اصبحت باطلة الطراز تماما .

ان العمل الابداعي ليس في الوقت نفسه اكثر الاعمال ذاتية واجتماعية ، ولكنه بالفعل أكثر ذاتية لانه أكثر اتصالا بالاجتماعية والعكس بالعكس . ان مكانه دون شك في طليعة الجماعة التي يعبر عن رؤيتها ، ولكن ليس هناك من طليعة ليست ملتحمة مع كل الجيش الذي خلفها .

ويجب ان أشدد ايضا على ان فكر لوكاتش من خلال المكانة التي يعزوها الى الفن في الحياة الاجتماعية ككل ، ماهو الا تركيب لأنظمة علم الجمال الكلاسيكية العظيمة لدى كل من كنط وهيغل .



مع كنط يضع لوكاتش الابداع الجمالي على المستوى نفسه مع العلم والعمـل ، وهما الفعاليتان الابداعيتان العظيمتان الاخريان للانسان ، رافضا أن يضعـه في مرتبة أدنى من مرتبة الفكر كما فعل (( الما قبل الكانطيين )) وهيغل فيما بعد ، أو ان يمنحه مركزا ذا امتياز قد يجعل الفعاليات الابداعية العظيمة الاخرى في مرتبة أدنى منه كما فعل الرومانسـيون .

ومع هيغل فقد رفض أن يهبط بالفن الى أن يكون جوهريا عنصرا شكليا ومجردا ، معتبرا اياه بنية ديناميةهي دائما تركيب يجمع المعنى ـ وهو قابل للتغير وملتحم بالحالة التاريخية للتقلب المتواصل ـ مع الشكل الاكثر ملاءمة للتعبير عنه .

وكختام لهذه المقالة هل يسمح لعالم اجتماع أن يضيف أنه حتى من وجهـة نظر منهجية فان القيمة المعرفية التي تقدمها دراسـة للظاهرة الاجتماعية هي ـ من هذه الناحية ـ قد تغيرت تمامـا ؟ لانه لو كانت التبصرات في تكوين ومعنى الاعمال الادبيـة والفنية

والفلسفية الفردية قد جرى التماسها منذ وقت طويل في دراسة الحياة الاجتماعية ، فان وجهة نظر لوكاتش تقدم البرهان على واقعة ان دراسة الاعمال العظيمة يمكن بل ويجب أن تقدم تبصرات في معنى وتكوين البنى الاجتماعية .

ففي مجال علم الجمال ، كما في مجالات اخرى ، كان لوكاتش أول مفكر في القرن العشرين وضع مقولة « الكلية » — ومن المستحيل المبالغة في التشديد على خاصيتها — للمرة الثانية في موقع القلب من الفكر الفلسفي .

## الحواشـــي



(١) نشرت هذه المقالة لاول مرة في كتاب « الماركسية والعلوم الانسانية » للكاتب لوسيان غولدمان ، وقد نشر هذا الكتاب من قبل دار نشر « غاليمار » عام ( ١٩٧٠ ) وكان لوكاتش لا يزال حيا . ( الناشر ) .

(٢) الكتابات الاولى السابقة حول هذا الموضوع نشرت بالهنغارية ولذا فهي غير معروفة عموما للقارىء الغربي . ( المؤلف ) .

(٣) نشر هذا الكتاب عام ( ١٩١١ ) من قبل دار نشر « فلايشل » في برلين . ( المؤلف ) .

(٤) في مقدمة كتبها لوكاتش عام ( ١٩٦٧ ) [ ترجمتها الى العربية ونشرت عدد المعرفة السورية — آذار — نيسان ١٩٧٨ ] والتي نشرت بالانكليزية لاول مرة عام ( ١٩٧٢ ) ويبدو أن لوسيان غولدمان لم يكن قد اطلع عليها حين كتابته لهذه المقالة عام ( ١٩٧٠ ) يقول لوكاتش في معرض الحديث عن نفسه حين كان لا يزال شابا بعد :

« لقد أثر علي أكثر ما أثر كتاب ( فينومينولوجيا الفكر ) وأعمال هيغل الاخرى » . ( المترجم ) .

(٥) ادموند هوسرل ( ١٨٥٩ — ١٩٣٨ ) وهو فيلسوف ألماني مؤسس ما يعرف بمذهب الفينومينولوجيا . ترجم له في سورية ثم في مصر كتاب « تأملات ديكارتية » .

( المترجم )

(٦) إميل لاسك ( ١٨٧٥ — ١٩١٥ ) وهو فيلسوف ألماني ينتمي الى المدرسة الالمانية الجنوب غربية التي ابرزت مسألة القيم والوجوب على حساب معرفة العالم والوجود . من مؤلفاته : « مثالية فيشته والتاريخ » و « ونظرية الحكم » .

( المترجم )

(٧) و (٨) و (٩) أسماء لمدن ألمانية . ( المترجم ) .

(١٠) هايدغر ( ١٨٨٩ — ١٩٧٥ ) وهو أحد مؤسسي الفلسفة الوجودية . مؤلفاته « الزمان والوجود » و « ما هو التفكير ؟ » . ( المترجم ) .

(١١) بليز باسكال ( ١٦٢٣ — ١٦٦٣ ) وهو فيلسوف فرنسي عرف بعدائه للجزويت ( اليسوعيين ) . ( المترجم ) .



(١٢) نشر في الولايات المتحدة بالانكليزية وكذلك في فرنسا عام ( ١٩٦٠ ) بالفرنسية .

( المؤلف )

(١٣) هذا الاستشهاد من ماركس مأخوذ من كتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » المنشور بالفرنسية في باريس عام ( ١٩٢٨ ) . ( المؤلف ) .

(١٤) راجع كتاب جورج لوكاتش « التاريخ والوعي الطبقي » وكذلك لوسيان غولدمان في مقالته « التمدية » من كتاب « ابحاث دياليكتيكية » . ( المؤلف ) .

(١٥) جورج لوكاتش : « الروح والاشكال » . من صفحة ( ٢٢٨ — ٢٤٩ ) من الاصل الالماني . ( المؤلف ) .

(١٦) الجنتلمان : هو رجل ينسجم سلوكه مع مقياس رفيع من مقاييس السلوك الحسن . ( قاموس المورد )

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الكتب التالية :

## القيد البشري

شعر احمد يوسف داود

## بحوث في المعلقات



يوسف اليوسف

## التنمية صفر

تاليف ريموند ريشنباخ وسيلفن أورفر

ترجمة سهام الشريف

## الارنب المخملي

قصص للاطفال لعدد من المؤلفين

ترجمة رباب هاشم